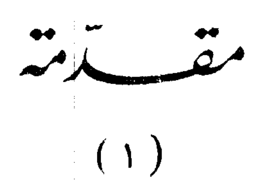
أعلام العرب
٣٦

ابن المعتز العباسى

تأليف
الدكتور أحمد كمال زكى

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة



(١)

هذه سيرة أبى العباس عبد الله بن المعتز سليل جماعة من كبار الخلفاء العباسيين ، ولد عام ٢٤٧ / ٨٦١ وقتل عام ٢٩٦ / ٩٠٩ بعد ثورة لم تستمر أكثر من يوم واحد بويع له فيه بالخلافة ، ثم انفض أنصاره من حوله .

ولقد كانت تلك الحادثة من المواقف المثيرة التى لفتت أنظار القدماء ، فبسطوها فى كتبهم ، وأشاروا اليها فى مجالسهم . غير أنهم لم يعنوا بما وراءها من مقدمات توغل فى العصر بقدر ما توغل فى نفسه هو ، بل اكتفوا بتصوير سطحى يبرز ابن المعتز فيه خارجا على الدولة معتديا على القانون .

وفى العصر الحديث تقدم اليها كثيرون فلم يكن عملهم يفضل كثيرا عمل أسلافهم ، وان يكن خالطه لون من التفسير فى حدود الأحداث التى يلعب فيها القصر دوره الأول . وعلى سبيل الاستشهاد أذكر الدكتور عبد العزيز الدورى فى كتابه « دراسات فى العصور العباسية المتأخرة » خلال حديثه عن المقتدر بالله .

وأما الذين عنوا به من حيث انه شاعر وكاتب ، فقد حددت طبيعة بحثهم المحيط الذى ينبغى أن يطرقوه ، ومن ثم ضاع

ابن المعتز بين شروحهم لأشعاره وتقييمهم لآرائه وتقديمهم لكتبه . بل بدا لبعضهم أنه يحتذى أبا بكر محمد بن يحيى الصولى عندما ساق شتيتا من الأخبار عنه مشفوعا بنصوص له ، بعضها نثرى وبعضها شعرى مبوب على نوع الغرض من مدح وعتاب وغزل وحكمة الخ ..

باحث واحد اختلف عنهم — وهو الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل — فاستوحى من حياة الرجل قصة ممتعة نشرها سنة ١٩٤٩ باسم «يوم وليلة» صادرا عن خيال شاء أن يطلق جماحه ليفيض على القصة روحا جديدة كما يقول هو فى مقدمة القصة . ولقد حاول أن لا يحدث عن شيء الا وهو من صميم «الفتنة» كما حاول أن يربط بين المواقف التى تحكى ما ضاع من سيرة ابن المعتز ، ولكنه لم يخرج عن الدائرة التى رسمها فى قصصه التاريخى جرجى زيدان — مع غلبة عنصر التاريخ عنده — ولم يعن قط بأن يحقق مفهوم السيرة الأدبية على النحو الذى اصطلح عليه المحدثون .

وفى كتابه الثانى « عبد الله بن المعتز أدبه وعلمه » خضع تماما لأسلوب الأكاديميين فتحدث عن البيئة العامة للأمير الفنان ثم عن بيئته الخاصة — خطفا — ليأخذ فى شرح مذهبه الشعرى وفنونه والنقد والبلاغة عنده وأنواع نثره ، وعاد فى ذيل الكتاب فبسط شيئا عن صفاته وشيئا آخر عن أخلاقه .

ويذكرنى ذلك الكتاب بالبحث العلمى الذى قدمه الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى بعنوان « ابن المعتز فى الأدب والنقد والبيان » وطبعه سنة ١٩٤٩ قبل كتاب الأهل الثانى بعامين على

وجه التدقيق ، وفيه عنى أيضا بآثار الرجل مع مناقشة موضوعية لأدبه وبسط لآراء علماء الأدب فيه وشرح لأسلوبه ليحدد فى آخر الأمر طبيعة فنه .

وفى رأيى أن الكتابين — كتاب الأهل وخفاجى — لم يخرجا قط عن الفلك الذى قطعه الدكتور طه حسين يوم ألقى محاضرته الجليلة « ابن المعتز وشعره » فى قاعة الجمعية الجغرافية ، وقد نشرت عام ١٩٣٦ فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

بل لم يخرج عن هذا الفلك الآسر أغلب الأكاديميين الذين تعرضوا له بعد عام ١٩٣٦ كالدكتور محمد نجيب البهبيتى والدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى . الأول فى الفصل الذى عقده عن فن الشاعر فى كتابه « تاريخ الشعر العربى » والثانى فى كتابه المسمى « عبد الله بن المعتز العباسى » . بل لقد انتفع الدكتور الكفراوى بكثير مما وصل اليه الأستاذ الأهل والأستاذ خفاجى ، فخطا من بعدهما خطوة مسددة .

ومع كل ذلك فقد بقيت سيرة ابن المعتز ناقصة ، بل بقيت فيما سجل الأولون — وهى متناثرة فى كتب عدة — أكثر حياة وأعظم خصبا ، فبدا لى أن أعود اليها بالمنهج الذى اصطنعته فى كتابى عن « الأصمعى » وقد صدر فى هذه السلسلة منذ عام أو يزيد وفاز بجائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٤ ، لتكون نتيجة أخرى للمحاولات التى تبذل فى تنسيق تراثنا ونشره وتقديمه فى الصورة اللائقة .

ابن المعتز هنا وآراؤه ومؤلفاته وعصره ، وحدة متماسكة تتحرك فى اطار التاريخ المحقق ، هو كالأصمعى يوم تعرضت له ، يخضع لمنطق السيرة الفنية كما يحدده المتخصصون من أمثال أندريه موروا وليتون ستراتشى وستيفان زيفايج .

هو هنا ليس كابن المعتز على ما صوّرته قصة « يوم وليلة » وليس على النحو الذى قدمه الدكتور طه حسين ، وانما جاء تاريخا فنيا لم يقتحمه قط خيال ولم يذكر فيه اسم مخترع .

ان قصة « يوم وليلة » تذكرنى برواية « طريق البشر » التى كتبها صمويل بتلر سنة ١٨٧٣ مستوحيا حياته . حقا حرص بتلر على ألا يذكر الأسماء الحقيقية لأبطاله ، ولكنه أقحم الخيال على ما شاء أن يذكر من تفصيلات واقعية ، فجاء كتابه على هذا رواية أكثر مما هى سيرة ذاتية .

أنا أعلم أن الأستاذ الأهل يترجم لغيره وصمويل بتلر يترجم لنفسه ، ومع ذلك فهما يتفقان فى المنهج على الرغم من أنهما لم يلتقيا قط ولم يقرأ أحدهما للآخر !

فاذا كان ثمة من يرى أننى لم أخرج فى هذا الكتاب بالقياس الى صنيعى فى « الأصمعى » عن أسلوب الروّاد من أمثال جرجى زيدان والجارم وسعيد العريان — والأهل امتداد لهم —

فقد أنكر عليّ عنصر الحقيقة الذى لم أتخل عنه قط . وآية هذا تلك التهميشات الكثيرة التى نراها متناثرة فى الكتاب هنا وهنالك ، والتى سجلت فيها المصدر حتى يكون التاريخ الحقيقى هو الفيصل .

ذلكم هو المنهج المناسب لكتابة التاريخ الفنى ، أعنى لكتابة السيرة الأدبية بخاصة . وقد أضطر أحيانا الى فت الموقف فى حوار ، وفى هذه الحالة أحرص على شيئين : الأول رصد أبعاد الموقف رصدا أمينا مع اصطناع دقيق لألفاظه وصوره ، والثانى الارتفاع الى مستوى الحوار الحقيقى الذى يسجله التاريخ كاملا على ما جاء هنا فى الفصل الأول من الباب الثانى .

كذلك قد أضطر الى ما يضطر اليه الاكليكتيون فأختار مستصفيا ما فى تاريخ الرجل من أحداث مروية ، بعضها يرفض ما كان ينفيه منطق الزمن قبل أن أنفيه أنا ، وبعضها يمكن تنسيقه بمنطق الفن حتى اذا لم يكن مستندا الى نص مذكور .

ولكنى مع هذا لم أجانب الحق ، ولم أوغل فى الخيال لأسلك مع الروائيين والقصاص !

ان السيرة الفنية عمل دقيق ، وهى قد تطورت هذه الأيام تطورا يؤذن بخروجها عن قصد الحقيقة التاريخية ، الا أننى آثرت أن أقف عند المرحلة التى قطعها موروا عندما كتب شيلى وعندما كتب ديكنز ، فهى فى رأيى أصلح أو أنسب لما يقدم لقراء هذه السلسلة الرفيعة ، سلسلة أعلام العرب .

(٣)

وبعد ..

فالسيرة فى ثلاثة أبواب وفصول تنفتح عليها ، وكل باب يرصد لفترة من فترات التاريخ يمكن أن تكون محاولة جادة لدراسة مجتمع العصر من مختلف نواحيه وفى شتى تركيباته الاثنولوجية والأنثروبولوجية والميثولوجية والطبوغرافية وغيرها.

الباب الأول يستغرق حياة ابن المعتز اللاهية الى أن اكتمل شبابه ، والباب الثانى يتعرض لحياته وهو رجل يشتغل بالعلم والسياسة ويفكر فى عرش أبيه الذى انتزع منه ذات ليلة مشئومة من ليالى المغامرات ، والباب الثالث يقف عند مؤامرته على المقتدر — وكان فى الثالثة عشرة من عمره — بعد أن أقنع بأن الخلافة لا يمكن أن تكون لصبى لا يعرف كيف يقابل تصادم القوى .

والقسمة هنا قد تبدو اقتسارية أمام بعضنا ، لا سيما أنه لم يكن ثمة فاصل تاريخى عام بين الباب الأول والباب الثانى ، اذ كان الخليفة هو المعتضد والمجتمع نفسه يسير فى اتجاه واحد منفعلا بالوقائع الحربية انفعاله بمغامرات الشطار والمغامرين والعيارين والخلعاء المجان . ولكن هذا يصح لو أننا كنا نعنى بالتاريخ العام فقط ، أما وأننا نمزج بينه وبين الحادثة والشخصية والنظر الداخلى فمن الضرورى أن نلحظ الخطوط الكبرى فى حياة الشخص الذى تترجم له .

ورسمت هذه الخطوط عند ابن المعتز ، بالصورة التى نجمت عنها قسمتنا تلك .. شباب لاه ثم رجولة لها طابعها الذى فرضته ظروفه الصحية والفكرية وقواه البدنية ، وأخـيرا شيخوخة مبكرة لم تحسن التدبير ولا التقدير فكان عليها أن تبيد .

وعلى الرغم من ازدهار الدولة أيام المعتضد فقد تم رسمها فى الحيز الذى شغل ضعف الخلفاء السياسى ، ومعنى ذلك أن حياة ابن المعتز تأثرت بهذا الضعف ، بل بسببه عاش تلك العيشة المنكودة . حيث قتل أبوه الخليفة المعتز بتدبير من أتراك القصر وخصيانه ، ونفى الى مكة صغيرا ليعيش فى كنف جدته التى صودرت أموالها ، ثم عاد مخوفا منه ليدفع الى حياة أقل ما يمكن أن توصف به أن يقال انها حياة القلق المؤس .

وفى سـنة ٢٩٦ للهجرة يبلغ العبث مبلغه حين يتفق الوزير أبو أحمد العباس بن الحسن مع فريق من الترك على الاطاحة بالمقتدر ، ويكون كل ما عاناه ابن المعتز طوال نصف قرن تقريبا بمثابة تبرير لقبوله أن يكون أداة فى هذه المؤامرة الفاشلة ، أو أن يخوض عمليا فى النزاع الذى نشب بين الخلفاء والترك فى السر والعلن .

وكانت فترة السنوات التسع (٢٤٧ — ٢٥٦) وهى التى شهدت مولد الشاعر واستوفت صباه وابتليت خلالها الدولة ابتلاء عنيفا ، من أهم ما أثر فى نفسية ابن المعتز وشكل شخصيته على النحو المتردد المتحرر الذى يرضى اذا خرج — كما خرجت الدولة

فى تلك الفترة — بنصر مؤقت صغير على رغم ما يصاب به من أجراح وتقطيع أوصال .

وأثمرت الفوضى ثمرها المر ؛ فحرم البلاط — وقد كان من الترك غالبا — يشترك مع الخصيان فى الاثراء غير المشروع وفى الاستبداد بأمور الحكم ، ويرفض ابن المعتز أن يتعاون معه مع أنه اكتوى بناره . ألم يقتل أباه أمه قبيحة لأنها رفضت أن تمدّه بالمال ؟ ثم ألم يقتله هو شغب أم المقتدر بما جمعت من مال أغدقته على غلمان القصر ثمنا لتحديهم قوى الفتنة الطارئة ؟

ومن ناحية أخرى كانت الطالبية تسعى سعيها لتمكين سلطانها ، فدفع ابن المعتز — كعباسى متحمس — الى الدعوة ضدها . بل اشتبك معها اشتباكا أفقده عطف الكثيرين ، وانتهز القرامطة — وهم علوية — هذه الفرصة فشنعوا عليه وكادوا له حتى شككوا فى موقفه العقيدى وطعنوه فى دينه مع أنه كان سنيا حنبليا .

فاذا أضفنا الى ذلك قوة طبقة الكتاب وتوزع دواوين الدولة بينهم أو بين آل الفرات وآل الجراح — على وجه التحديد — ثم انضمام ابن المعتز للجراحين ، تكتمل الصورة بكل تمزقاتها وبراكينها وتياراتها ، وتضطرب حياة ذلك الأمير الفنان داخل تلك الصورة .

كل أولئك نراه فى هذه السيرة الأدبية ممتزجا بذات الرجل امتزاج كل فى كل ، فاذا حققت ما هيئت له فبها ، والا فلكل مجتهد نصيب ، راجيا فى كل الأحوال أن يبعث ابن المعتز غيرى على نحو يقترب من الكمال المنشود .

مصر الجديدة فى سبتمبر سنة ١٩٦٤

أحمد كمال زكى

الباب الأول

الأمير الرجيم

الفصل الأول

الخطوط الأولى

لما قتل عبد الله بن المعتز فى أول أيام ربيع الثانى من عام ٢٩٦ هجرية وألقيت جثته فى بستان داره بالصراة ، قال جاره ابن البصرى أبو الحسين محمد بن الحسن العلوى :

— من لى بمن يندبه من نساء هذه الأمة !

وكانت المرأة الوحيدة التى سعت وراءه فى محنته قد قضى عليها ، وتلكأ أخوه اسماعيل بن المعتز فى الوصول من سامرا حتى غسل وصلى عليه خلق من جيرانه وأودعوه حفرة قصية فى البستان الذى طالما شهد صبواته .

وهكذا خرج ابن المعتز من الدنيا غريبا كما دخلها غريبا ، غير أنه لم يكن هكذا طوال نصف الدهر الذى عاشه . وحسبه أنه أشعل نار ثورة سياسية كادت تنجح لتجعل منه خليفة المسلمين لولا سوء طالعه ، فلم يتمكن من الأمر سوى يوم وليلة وانتهى نهاية لم تقنع أحدا من المؤرخين بجعله واحدا من الخلفاء .

ان هذا العرض الخاطف يعطينا صورة عامة عن حقيقة هذه الشخصية التى لم يعرفها عصرها كل المعرفة ، وهى لا تبرح

بالنسبة لنا أسطورة طريفة .. غريبة .. مثيرة ! ولكنها لا تجحد نفسا فنانة استطاعت أن تفرض نفسها فى دنيا الشعر والكتابة على حد سواء . ومثلما كانت الحياة التى اضطرب فيها ابن المعتز محل تساؤل واعجاب وافتنان ، فالآثار التى خلفها لنا — والتى كتبها بسرعة فيما بين ساعات الفراش والشراب أحيانا وببطء كلما غالبته روح العالم المدقق أحيانا أخرى — تنضح بالموهبة التى تثير وتعجب حتى لتطمس عنده آثار الصفة والتكلف .

والحق الذى لا يمكن أن تنكره أن عبد الله بن المعتز لم يكن قط نباتا طفيليا فى أرض الفكر ، وان كان كذلك فى دنيا القصور . ولكن فى وسعنا أن نقبله على أساس أن الظروف التى أوجدته كانت تشكله ذلك التشكيل الفذ ، ونظن أن أى دارس لحياته ولانتاجه جميعا لابد منته الى الاعجاب به برغم نقائصه ، وهو يقرأ شعره بشىء كثير من المودة والتآلف .

ونحن من هنا يمكن أن نقول ان لابن المعتز منزلته الخاصة فى القضايا الانسانية التى توضع معلما من معالم الطريق ، فاذا ساد الفكر العربى لون من التسامح ، واذا زالت من الحياة بعض جوانبها الموحشة لتبقى الجوانب الأخرى المشرقة ، واذا عومل أولاد الملوك بشىء من التقدير .. فان جزءا من هذا يعود فضله الى هـذا الأمير العالم الفنان ، وان قليلا من رجالات عصره من استطاع أن يزحمه على رغم ميتته الشنيعة وقصر عمره .

وأظهر من ذلك كله أن ذلك الثائر المعتدى عـلى حرمات الخلافة — كما قيل فى عصره على لسان شانئيه — ما كان ليستحق

مصيرا أقل مما قدر له ، فان الشهرة التى ظفر بها بعد النبذ والارادة على النسيان لتفوق كل شهرة ظفر بها خصمه الأول سواء أكان هذا الخصم المقتدر بالله أم وزيره ابن الفرات . وقد استطاع خياله الغريب أن يحتل مكانا بين الخالدين لا يبرحه ، ويغطى على كل شروره وآفاته يوم كان يخدع النساء — أو يجعلنه يخدعهن — ويعكف على زقاق الخمر طول يومه وليله ، ويطرق مراتع اللهو والأديرة .

وهنا نرى الحظ يلعب دوره الأول فى توجيه مصير هذا الانسان الذى أسلم قياده للشهوة دون أن يخطىء الهدف ، وكان بذلك مثلا نادرا للانسان الذى تمتزج فيه السعادة والشقاء بحياة كان كل شىء فيها يغرى بالاضطراب ويدفع الى الحيرة والقلق . ولقد كان له من بيئته الخاصة ما يعصمه من كل المصاعب المادية ، الا أن وضعه كمطالب بعرش — باعتبار أن أباه كان خليفة — كان يفرض على سلوكه التعقد حتى انه ليصبح فى يوم من الأيام أشبه بنديم من الندمان ، وقد يمدح وزيرا دونه أو أميرا مثله ليجد عنده بعض الغناء .

فلا عجب بعد هذا أن نتصوره مغامرا عابثا ، وينال بما خلفه حظوة لدى الخلف يتخطى بها عندهم حدود المألوف ، بل كذلك بيوم مولده وكانت أمه قد وضعته قبل أن يقضى على جده المتوكل بأربعين يوما . ولقد كانت نهاية هذا الخليفة العظيم مطالع فترة السنوات التسع التى تبدأ بعام ٢٤٧ وتهيىء مجالات فوضى قعد الأتراك على أطلائها وأيديهم تقطر بالدماء .

ان ابن المعتز لم يكن يدرى ذلك ، ولكنه كان يستقبل سنواته الأولى بشر عظيم ، حقا هو لم يعرف شيئا عن الليالى المخيفة المؤرقة التى عاشها والداه ، حتى اذا طلع النهار واجها تدبير المنتصر أو المستعين أو بغا الكبير وأوتامش ووصيف أو غيرهم من الترك ، الا أنه عرف معنى النفى والتشريد وذلك عندما قتل أبوه سنة ٢٥٥ بعد أربعة أعوام من تنصيبه خليفة على المسلمين ونفى مع أمه وجدته الى مكة المكرمة .

ولكن عندما حان الوقت الذى أعيد فيه صبيا الى سُرَّ من رأى اطلع على الحياة الشائنة التى عصفت بأبيه أو كانت سببا فى العصف به ، ولكنه لم يجد بأسا من أن يربط بها حياته وقد كانت طبيعته وخلقته ومشاعره تدفعه الى ذلك دفعا . ومن ناحية أخرى راحت جدته « قبيحة » بما ملكت من أموال وبما كانت أمه تأخذ من المعتمد الذى أصدر أمره بالعفو عنها أن تؤدبه فينتقل خائضا محيطه الواسع من شاطىء الى شاطىء مقتاتا بما يلقيه فى سفينه واحد كأحمد بن سعيد الدمشقى أو آخر كالمبرد أو ثعلب أو البلاذرى ، وهؤلاء تولوه بالتأديب بعد أبى جعفر محمد ابن عمران بن زياد الضبى الذى رعاه بالتعليم فى حياة أبيه (١) .

وقد كان ابن المعتز فى ذلك الحين يأكل الفاكهة الفاخرة بمثل

---

(١) تاريخ بغداد ٣ : ١٣٢ (ط . السعادة بالقاهرة سنة ١٣٤٩) والأوراق ١٠٧ قسم أشعار أولاد الخلفاء (ط . الصاوى سنة ١٩٣٦) ومعجم الأدباء ٧ : ٥٢ (ط . مصر سنة ١٩٠٦) ونزهة الألبا فى طبقات الأدبا ٣٠١ (ط . مصر سنة ١٩٢٤) .

الاستهانة التى يتبلع بها العامة حبات التمر والشعير ، ويفهم من الدنيا أن لا خير فيها الا بود من يحب . روى أن البلاذرى كان قد سعى عند جدته حتى أذنت له أن يجلس اليه يؤدبه ، فغضب الدمشقى واعتزل فى داره ، فكتب اليه الأمير وسنّه لا تجاوز الثالثة عشرة يقول [1] :

أصبحت يابن سعيد حزت مكرمة
عنها يقصر من يحفى وينتعل
سربلتنى حكمة قد هذبت شيمى
وأججت غرب ذهنى فهو مشتعل
أكون ان شئت قسا فى خطابته
أو حارثا وهو يوم الفخر مرتجل
وان أشأ فكزيد فى فرائضه
أو مثل نعمان ما ضاقت بى الحيل
أو الخليل عروضيا أخا فطن
أو الكسائى نحويا له علل

ولكن هذا لا يمنع من أن يحب المرء نفسه ، بل لا بأس اذا أعجب بها وأفاض فى تغنيها . وهو بعد أينما حل لم يكن بالذى يتخلّى عن غروره ، ولا سيما اذا اعترضته امرأة ، فان

(١) معجم الأدباء ١ : ١٣٣ وهو يعنى بقس قس بن ساعدة الايادى ، وأما الحارث المذكور فهو الحارث بن حلزة ، ويعنى بزيد زيد بن ثابت أبرع من تحدث فى الميراث ، وأما نعمان فهو أبو حنيفة الفقيه المشهور ، والخليل والكسائى معروفان فى العروض والنحو !

شاقه أن يلهو أو يرقص أو يصخب فدونه وذلك كله تلك الخاصة التى عرفها عنه معاصروه ، بل ربما قدمها اذا امتحنت أمام ولائه ووفائه لأساتذته ، والغرور ضرب من التعالى ، والاثنان عنـــده منبعهما واحد ويدفعانه الى الاخلاص لنفسه أولا ، حتى انه لينفر من مصارحة أحد بدخيلته .

الفصل الثانى

الانسان والفنان

ان كل فنان حقيقى يعيش الجانب الأكبر من حياته منطويا على نفسه ، وكأنه فى صراع داخلى مع مثله . ولما كانت حياة ابن المعتز متنوعة أشد ما يكون التنوع — وقد كشفت الأبيات السابقة عن توزعها بين شتى معارف — فقد اقتضى ألا يهدأ قط . وكان لا يكاد يفرغ من التجربة المباشرة حتى يلقى بنفسه فى أحضان المخيلة يعيش تجربة أخرى غير مباشرة فيها كل ما يقصد اليه بلا حواجز ولا حدود .

كان انسانا أميرا ، وكان شاعرا كاتبا .

الانسان الأمير يطلب الحس ، وكل ما هو متاع وحرارة ، والشاعر الكاتب يطلب الحق وكل ما هو سحر وجمال .

الانسان الأمير بالقياس الى هذا العصر ينشد اللغة وأسرارها والنحو وعلله ، ويطلب الفقه والتفسير مع الشراب والقنص ومعانقة النساء ومحاسبة خزان المال . والشاعر الكاتب ينشد الدفء ، والوداد والحق ، والخير .

الأول فى سبيل عارض زائل ، والثانى من خلف باق خالد !

ولم يضع هو بين الاثنين ، لا ولم يفته الانسان والفنان . حقا ما جعل الله لامرىء من قلبين فى جوفه ، غير أنه هو كان على غير ما فطر عليه كل البشر .

وهكذا نراانا أمام مخلوق آدمى يتأجج صدره بحب اللهو حتى لا شيء عنده الا اغتنام كل فرصة متاحة لا سيما أن الطبيعة قد أغدقت عليه القوة والجرأة والفحولة والذكاء ، ثم اذا خلص منه أو تعب أو مل لم يعجز عن أن يضرب فى مسارب الفن والفكر.

عجب ولا عجب !

ولكنها النفس الخصبة ، فلا ينبغى أن نتصور على غير جدوى كيف أمكن له أن يوازن أو يعدل بين الكفتين بحيث لا ترجح احداهما فيتردى هو الى واحد من الجانبين .

لقد سبق أن قلنا انه نادر المثال !

وأعانه أنه لم يشعر قط أنه مدفوع الى جانب دون جانب ، فهو قد يكون مغامرا خسيسا الى يوم أو الى ساعة أو الى لحظة فقط ، ولكنه لا يعدم أن يكون بعد ذلك طيبا رزينا . وهو قد لا يكون أحيانا الا منقبا عن امرأة حلوة أو عن زق فى حانة من حانات قطربل وطيزناباذ ، ولكنه يكون أحيانا منقبا عن حقيقة فى الدين أو فى السياسة أو فى الشعر . وفى مختلف الحالات لا يطلب شهرة لأن حسبه الشهوة ، فهذه عند الانسان وعند الفنان اذا صدقت أفل فى ضوئها كل شعور بالتباهى والاستعلاء .

ان ابن المعتز ابن الحياة المعقدة ، وهو قد يبدو عاريا ولكن العرى لا يعنى قط الخزى والعار !

وليس عليه بعد وهو فى طريقه الا أقل ما يتطلبه الفن من صاحبه ، أى يجعل حياته سخية العطاء قابلة للتصوّر . بحيث اذا عن لامرىء أن يسأل أترى كان يجب أن يموت على النحو الذى مات به ؟ وجد من يقول : هاك عريه فالتمس الجواب !

وما بلغ الخامسة عشرة حتى تبين أهله ومؤدبوه ما خلب لبهم تماما . وكان ادمانه على قراءة الكتب والرسائل ومقابلة الأعراب الذين يفدون على سر من رأى وبغداد ، يلفتهم الى مدى ما يتمتع به من جلد على التحصيل .

وعندما بنت جدته بالصراة قصرها الجديد — وقد لا يكون أكثر من بيت كبير لأحد سادات بغداد — حرصت على أن تهيىء له فيه مكتبة جمعت كتبها من الوراقين . وكان الغلام يندس فى هذه المكتبة ليلتهم الصفحات التهاما لا يفرق بين هذه التى تقف عند نوادر الأعراب ، أو التى تنطوى على درة من درر الشعر ، أو الثالثة التى تعرض لقصة من ألف ليلة وليلة أو حكاية من كليلة ودمنة أو مثل من الأمثال .

ثم بدا شابا يعرف أين يضع قدمه ، فهو مثلا يكره ابن الرومى لأنه هجا أباه بشعره ، فكان يسبه ويصفه بالشعوبية . بينما يتجه بهواه الى البحترى الذى اعتبر ذات يوم شاعر أبيه الأثير ، وأقام حكمه هذا العاطفى على مبررات فنية كانت تعجب أساتذته . وعندما ماتت جدته وهو فى السابعة عشرة ومن بعدها بأشهر

أمه [1] ورث دار الصراة وما فيها واستقبل المعزين بها فكان يتذكر والده أمامهم ويقول :

لــــو به أقتـــل كل قريب   وبعيـــــــد لم ينم لى ثار
مطلته النصـــــل منى سن   لم تطل بى فخطاها قصـــار

الا أن حزنه وغصته لم يمنعاه من تعقّب الجوارى ومن أن يطرق قصر عمه المعتمد بن المتوكل ويرتاد بيوت العلماء ، حتى ليقول :

شغلى اذا ما كان للناس شغل   دفتر فقه أو حديث أو غــزل

ويمكن أن نقول انه أصـبح فتى العصر بهندامه وفتوته ووسامته ، وقد أخذ أهل الحذلقة من الشبان يقلدونه فى مشيته وفى شد قامته — وكانت طويلة هرقلية — وفى تصفيف شعره من تحت المجلســية [2] ووضـع غلالة قصب مبطنة بمـلحم خراسانى [3] على كتفيه العريضين . بل لم يفت أحـد الألوان الداكنة التى تظهر من تحت الغلالة وخيوط الذهب التى تلمع على أطراف ثوبه وأغلى روائح العطور التى يتضمخ بها . ومن ناحية أخرى كانت حركاته وهو ينحنى فى رشاقة ويده اليسرى التى توضع على خنجره الذى يتلألأ بفصوص كبيرة من الجـواهر وابتسامته العريضة الحلوة ، مثار حديث الناس فى المسجد الجامع وفى القصور وداخل الخدور .

---

(١) ماتت قبيحة والأصل فى اسمها صبيحة سنة ٢٦٤ .
(٢) المجلسية : نوع من أغطية الرأس .
(٣) الملحم الخراسانى : لباس مبطن يصنع فى خراسان .

وكأنما هو غير مدرك لذلك كله . فهو يتحرك بلا مبالاة ، وينظر حوله فى فتور ، حتى اذا لفته شىء لمعت عيناه حتى لتصبحا عينا صقر .

ولم يكن فى تكوينه شىء رخو سوى شفتيه . فهما غليظتان حمراوان ، اذا أغلقهما دار فمه استدارة طيبة ، ربما كانت مما يأسر الجوارى اللائى كن يتعقبنه وينقلن صورته الى سيداتهن المحجبات .

انه حتى هذه السن لم يصل بعد الى درجة الاكتمال ، هكذا يقول بعضهم ، ولكن خاصته — وهم قلة — يؤكدون أن ليله لا يغفو قط ولا يغفل وان يكن هو يزعم أنه من أجل المكرمات :

وأسهر للمجد والمكرمات

اذا اكتحلت أعين بالكرى

الفصل الثالث

بين أعمامه

ها هو ذا يلمح فى قصر عمه جارية ، وعلى الفور تبرق عينا الصقر ويختفى وراء جفونهما ذلك الفتور الناعس . ثم يرفع يده عن مقبض خنجره ويقبض بيمناه على طرفى غلالته . ويومىء الى غلام صغير — قد يكون فى العاشرة — يحمل المراوح ليسلمها الى المتنادمين ، فيطرق الصغير .

والجارية من جانبها تشعر بالارتباك فلا تستطيع النطق وقد أمرت من وراء الستر أن تغنى .

— أطربينا يا بنت الأهوازى .

وغاب صوت الخليفة فى وقع أقدام لغلمان يحملون أوانى الشراب ، وهم فى أردية ملونة ألوان قوس قزح ، وكل واحد فى قبائه (١) أبيض نابض بالحياة والأمل .

وعاد الصوت الرزين ، فأشارت الجارية الى عازفيها فانسابت الأنغام لتقول فى دعة :

---

(١) القباء : بفتح القاف ثوب يلبس فوق القميص او القفطان ويتمنطق عليه ، وكان مفتوحا عند الرقبة فيظهر ما تحته زاهيا وقيل كان عرض أكمامه ثلاثة أذرع .

بحيـــاتى يا حيـاتى اشربى الكأس وهاتى
قبـــل أن يفجعنا الد هر ببين وشـــتات
لا تخـــونينى اذا مــ ت وقامت بى نعـــاتى
انما الوافى بعهـــدى من وفى بعـــد مماتى

ومن وراء الستر صدرت أصـوات الاستحسان ، ثم تقدم موسى بن بغا وكان المعتز قد قتل أباه ، وقال :

— أمير المؤمنين طرب ويسأل من صاحب الشعر !

فأومأت الجارية الى حيث يجلس ابن المعتز ، فانحنى باعتداد وهو يتطلع الى الحضور ويريد أن يقتحم بعينى الصقر ما وراء الستار ، وهنا ارتفع صوت موسى قائلا :

— انه لولى نعمتكم الأمير عبد الله .

وانبعثت بعد ذلك عبارات المجاملة المعتادة ، ويدعى الأمير على الفور الى الدخول على عمه . ورويدا رويدا يرتفع صوته الى أن يصبح مسموعا لدى الجميع . وكأنما درّب نفسه على مثل هذا الموقف ؛ فهو ينطق الكلمات نطقا واضحا ويشفع عباراته دائما بقوله :

— مولاى وعمى أمير المؤمنين حفظه الله .

ويقول له الخليفة :

— أفى هذه السن وتتحدث عن البين وفجيعة الدهر يا عبد الله ؟

فيقول :

— لعمرى يا أمير المؤمنين ما كنت لأفعل وكل شىء الى زوال والباع قصير !

ويسأل الخليفة عمه :

— أيعوزك المال يا ابن أخى ؟

فيجيب :

— فهل يسمع منى مولاى وعمى أمير المؤمنين حفظه الله ما قلت وعابه علىّ بعض من لا أبرئهم من عيب ؟

وعندما يومىء الخليفة برأسه ، ينطلق هو منشدا رافعا صوته أكثر من ذى قبل . وكأنه يريد أن يجاوز الستر التى تحجبه عن المتنادمين الى آذانهم ليعجبوا أو ليتساءلوا أو ليشفقوا على هذا الأمير « الوديع » الذى حرمه الدهر رغد العيش كما يقول :

يا قوم انى مرزّا　　　وكل حرّ مرزّا
خرج كثير ودخل　　　نزر فلم لا أعزّى
فالخرج لا يتناهى　　　والدخل لا يتجزّا

وضحك الخليفة شيئا ، فقطع عليه سبيل انشاده . وهنا أدرك أن شعره لم ينل من نفس عمه فسكت وقد أطرق ، فقال المعتمد :

— لك هذه الألف يا ابن أخى وعندما تراك فى حاجة الى أخرى فاقصد الى بابى فوالله ما كان ليتركك أخى تقول ما أسمعتنيه !

وخرج وهو يدفع بصرة المال الى كمه ، ولكن ما ساءه هو ألا يجد الجارية وكانت قد انصرفت مع أترابها . فتلاعبت على شفتيه ابتسامة لا تحمل أى معنى ، فقال له أحد الجالسين وكان جاره بالصراة واسمه أبو الحسين العلوى :

— فيم تفكر أيها الأمير ؟

وهز ابن المعتز كتفيه فعاد العلوى يقول :
— أتظن أنك تنالها ؟
قال محاورا :
— من هى ؟
فأجاب العلوى :
— خزامى جارية الضبط المغنى .. لقد سألت الغلام عنها قبل أن تسأله !
قال :
— وهل طلبت أن يدعوها الى البيت .. ومتى ؟
وانقطع الهمس عندما اقترب أحد أعمام الأمير ، وهو أبو عيسى ابن المتوكل وكان فى صحبه الموفق عمه الثالث الذى يبدو للجميع وكأنه المسيطر على المعتمد بحيث لا يصدر الا عن مشورته ، وقال أبو عيسى :
— أنت تذكر أخوى وتنسانى أيها الأمير العاق .
فقال ابن المعتز وهو يقبل أطراف يمين عمه .
— انى لك والله منذ الساعة ، فليس أحب الى من أن أفرغ لأهلى ودارى خاوية على عروشها .
فقال الموفق :
— أتصدقنا يا عبد الله ؟
وهم أن يقسم ولكن الموفق أشار بيده وقال لأخيه :
— هاكه قبل أن يقنعنا بما يراه !
وفى اليوم التالى سنراه فى مجلس عمه — وكان مجلس علم

وفن معا — ليفتن روّاده كما فتن روّاد المنادمة فى قصر المعتمد . أجل وسينجح هذا النجاح السريع بفضل ذكائه واحاطته بأسباب الثقافة التى طبعت عصره بطابعه الفريد . ويحكى ابراهيم بن خليل الهاشمى أنه كان حاضرا هذا المجلس ، فدخل على بن محمد ابن أبى الشوارب القاضى وقال لأبى عيسى وابن المعتز ساكت :

— قد احتجت الى معونتك فى أمر دفعت اليه لم أستغن فيه عن تكليفك المعاونة .

قال أبو عيسى :

— وما هو ؟

قال :

— زوجت بنتا من بناتنا رجلا من أهلنا فخرج عن مذاهبنا وأساء عشرة أهله ، وجعل منزل عيسى بن هارون أكثر مظانّه وأوطانه ، ويهددنا ويوعدنا بشره حتى لقد نالنا من عيسى بسط ليده ولسانه فينا بالقبيح والقول السيىء ، وكثرة معاونته له على ما يزرى بدينه ونسبه . وقد توعدنا بأنه يكشف وجهه لنا فى معاونة صهرنا هذا الغاوى علينا ، ولولا نسبه الذى فخره لنا وعاره علينا لانتصفنا منه بالحق دون التعدّى ، الا أنى أستعيذك منه .

فقال له أبو عيسى :

— أنا أوجّه اليه بعد انصرافك وأراسله بما أنا المتكفل بعده بألا يعود الى عشرته ، والضامن أن أرد هذا الصهر الى حيث تحب ويقع بموافقتك !

فشكره ودعا له وانصرف ، فقال أبو عيسى :

— ألا ترون الى هذا الرجل النبيه الفاضل السرى الشريف يدفع الى مثل هذا ؟ طوبى لمن لم تكن له بنت !

فقال ابن المعتز :

— ان لولدك فى هذا المعنى شيئا قاله واستحسنه جماعة ممن يعلم ويقول الشعر .

فقال أبو عيسى :

— هاته فداك عمك !

فقال :

وبكر قلت موتى قبل بعل وان أثرى وعد من الصميم
أأمزج باللئام دمى ولحمى فما عذرى الى النسب الكريم

فقال أبو عيسى :

— أمتع الله أهلك ببقائك وأحسن اليهم فى زيادة احسانه اليك وجملهم بكمال محاسنك ولا أرانا شرا فيك (١) .

وقام الحاضرون يعانقون الأمير الشاب ، وهم يعجبون بهذه الخصال التى قلما ظفر بها شاب من شباب بغداد ، فلما احتوته داره التى بالصراة لم يلبث فيها الا ريثما يخلع رداءه الرسمى ، وخرج بعد ذلك فى مغامرة من مغامراته الطائشة .

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٣ (ط . دار الكتب سنة ١٩٣٨) .

الفصل الرابع

البحث عن طريق

منذ شبت ثورة الزنج والفوضى تسود جميع ربوع العراق ، وقواد الدولة الذين تصدوا للثوار يقاتلون حتى أنهكهم القتال . فها هو ذا سعيد الحاجب يستقيل فيخلفه منصور بن جعفر الخياط ، ثم يعقبهما محمد بن المولد ، فأبو أحمد الموفق أخو المعتمد ، فابن المولد ثانية . وعندما أسندت القيادة الى موسى ابن بغا — وكانت اليه ولاية المشرق كله — ظن الخليفة خيرا ، ولكنه لم يلبث أن استعفى سنة ٢٦١ فانتقلت القيادة مرة أخرى للموفق .

وفجأة هبت زوبعة جديدة على الخلافة ، اذ استحكمت الأزمة بين يعقوب بن الليث الصفار والمعتمد . وانتهز الزنج هذه الفرصة وقصدوا بغداد لامتلاكها والاجهاز على هؤلاء الكبار الذين لم يعرفوا أن الحياة سقيمة مرة المذاق خارج القصور . ويبدو أن الظروف قد أبت الا أن ينتصر الموفق ، فأثار هذا اعجاب ابن أخيه عبد الله بن المعتز وحدد موقفه نهائيا منه . فضلا عن أن ابنه أبا العباس — الخليفة المعتضد فيما بعد — وقد انتصر

انتصارات ساحقة على الثائرين [1] كان يقوى من هذا الموقف ، ويدفعه الى مدحه بأشعار جيدة [2] .

لقد بلغ من احساس هذا الأمير المتعطل بركود حياته فى عهد القلق والاضطراب أن دار جدته — التى أعاد تجديدها [3] بعد أن طفح ماء دجلة وحطم مسناة بستانها فأغرق جدرانها وهدمها — لم تعد تصرفه عن السياسة ومناوراتها . وكانت له جــدة غــير قبيحة ، هى أم حبيب بنت الرشيد [4] يقصد اليها مع رجالات العباسيين ، فيسمع اليهم بعض الشيء ثم لا يلبث بعد قليل حتى ينصرف الى متابعة آثار الفخامة التى تطالعه فى كل شيء بالقصر . فالى جانب أثاثه الفاخر وستره المخملية الملونة تفننت تلك العجوز فى تنسيق بستانها حتى انها فجرت فيه العيون وغرست الأشجار التى تعطى من الزهور والفواكه ألطفها وأطرفها ، ومن وراء القصر ووراء دجلة الى الجبل مراتع للصيد يلهو فيها صغار أمراء العباسيين بالقنص .

ان هؤلاء الأقارب يأخذون بهذه الحياة المترفة بفضل الأموال التى يفيضها عليهم المعتمد ، ولم يمنع اشتراك بعضهم فى تدبير

(١) تاريــخ الطبــرى ٨ : ١١ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٦٩ ، ٨٦ وما بعدها (ط . الاستقامة سنة ١٩٣٩)

(٢) يراجع ديوانه وأوراق الصولى ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ هــذا وقد كان له عم اسمه أبو محمد بن المتوكل يعطف عليه كثيرا فلما مات رثاه رثاء صادقا .

(٣) الأغانى ١٠ : ٢٨٣ وقد كانت له دار أخــرى فى المطبرة بسامرا اعتاد أن يتردد عليها

(٤) ماتت سنة ٢٦٧ وابن المعتز فى العشرين من عمره .

ضده من أن يستمر المد منه . ولكن سوء طالع ابن المعتز عرضه مرة أو مرتين للعقاب ، وهو على أى حال لا يزال يذكر كيف كاد يطاح به عندما ارتحل مع سليمان بن وهب الوزير الى سامرا عام ٢٦٤ وأعلن المعتمد فجأة غضبته على الوزير حتى أمر بانتهاب داره ودار ابنيه وهب وابراهيم [١] ، ثم تعقب الأمير فى كل مكان وضيّق عليه حتى ظن أنه هالك ، ولولا أخوه اسماعيل الذى كان يلزم سامرا واعتذاره عنه أمام الخليفة لتغير مصيره الى الأبد .

من أجل ذلك حرص على ألا يتورط مع المعتمد لا حبا ولا كرها فى شىء ، وآثر عمه الموفق بزياراته والاشادة ببطولة ابنه أبى العباس الذى لم يكن يكبره الا بسنتين أو ثلاث .

ولكن ..

ولكنه يتبين على الأيام عبث كل ذلك ، ثم يجد ألا جدوى من وراء الاقدام على مراسلة عمالقة الفكر والأدب والفن من أمثال الزجاج ، وابن جرير الطبرى ، وابن دريد الأزدى ، ومحمد ابن يزيد البصرى ، وأبو العباس أحمد بن يحيى ، والمفضل ابن سلمة ، والقاسم بن أحمد الكوفى ، ونطاحة أحمد بن اسماعيل ، وابن ثوابه الكاتب ، وأبو الحسن على بن يحيى المنجم وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر [٢] . انه ضائع مبدد ، وكل ما يستطيع أن يفعله — عدا الانتقال بين القصور والبساتين

---

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ٤١

(٢) كتب له ابن المعتز رسالة طويلة فى الغناء أشار اليها أبو الفرج فى أغانيه ١٠ : ٢٧٦ ، ٢٧٧

وبيوت القيان — هو أن يتفقد أسواق النخاسة فى بغداد ، أو فى البصرة ، أو فى سامرا .

وكان فى هذه الهواية يشبه أى أمير آخر أو أى ثرى من أثرياء العراق . كل وجيه مرموق كان يريد لبلاطه أن يتفوق على سائر البلاطات باستحواذه على أفتن الجوارى وأرشق الغلمان . فبيدهم الحياة ، وأحاديثهم هى الصورة الحقيقية لهذا الأسلوب الفريد من السلوك . وعن هذه الطريق التقى بنشر الرقيقة الوديعة ذات الدل الودود ، كما التقى بنشوان الذى أحبه وعشق صوته كلما ارتفع بالغناء .

وأما خزامى التى أراد قنصها فى قصر المعتمد فقد أبى سيدها أن يهبها له ، وان يكن قد ظفر منه بوعد أن تتردد على داره لتعلم نشر الألحان والشعر . فقد كانت مغنية محسنة وشاعرة ظريفة ، وكانت أيضا ساقية ماهرة قادرة على أن تسكره بالتجميش قدرتها على اسكاره بالنبيذ .

وتتردد عليه بنت الكراعة فلا يوليها ما يوليه خزامى ، ولكنه مع ذلك يحس أنها تأسره دائما بكل باهر وبادر ، ثم هو يشهد أنه قد يتوق اليها اذا غابت عنه أياما .

كما عرف زرياب ، وفى حضنها عرف معنى النغم ودرسه ، وأقام عليه حتى شهر به فيما بعد . وقد زارته فى يوم السعانين [1]

---

(١) عيد للمسيحيين يقع قبل العيد الكبير عندهم بأسبوع ، وفيه يخرجون بسعف النخل من الكنيسة .

فصنع من وقته لحنا فى شعر عبد الله بن العباس الربيعى غنته بغداد كلها [1].

وعرف أيضا هزار وبثنة وسليمى وشر وغير هزار وبثنة وسليمى وشر [2] ممن يحلن الليل ضياء والنهار أسطورة تعيش على الطنافس وفى سبحات العطور والبخور . وهو يتحدث اليهن ويداعبهن ، وهن يتملقنه ويسعين وراءه ، ويقدن له سواهن فى عشرات من الأقنعة والصفات المنتحلة . ولا أحد يدرى من أين جئن ، ولا هو يسأل عن حقيقتهن ؛ ففى وسعهن أن يكذبن اذا سئلن ، وهو لا يحب الكذب .

أما اذا أحس أن واحدة منهن تريد أن تتعلق به تعلق الزوجة بالزوج ، فهو مسرّح لها السراح الجميل . وحجته أنه شاعر ، وأنه صانع لحن ، وأنه جوّاب آفاق وراء الملذات . واذا كان حتى هذه السن لا يزال موضع ترحيب فى دوائر الخلافة والوزارة ، فليس يبعد أن يأتى الغد الذى يرى نفسه فيه مطرودا مغلوبا على أمره .

ومع ذلك فقد تزوج ، وكان زواجه اذا صح سياسيا . غير أننا لا ندرى كيف تم زواجه من زوجته ، وان كنا نعلم أن أبا العباس أحمد بن بسطام صهره كان يلى أعمالا من قبل الموفق .

ان أى انسان يقدم للأمراء اخلاصه وتفانيه ، لا شك واصل منهم الى ما يريد . لا سيما اذا كان عربيا ، أو اذا كان سندا لهم

(١) الأغانى ١٠ : ٢٧٨ ، ٢٧٩
(٢) ربما يكون كنى بشر وبثنة وسليمى عمن لم يشأ فضحهن

فى صراعهم مع الأتراك الذين توغلوا فى أمور الدولة وسيطروا على الجيش وملكوا الثغور والأطراف . فى هذه الحال لا يجد الأمير بأسا من أن يساط دم أسرته بدم غير دمها النبيل ، وعن هذه الطريق تمكن أبو العباس من أن يقتنص ابن المعتز — تحت حاجته الملحة الى عطاء الموفق — لابنته التى راح يغمزها فى شـعره :

دست بنية بسـطام عقـاربها
نحوى ونامت على الأضغان والحنق
حتى كأنى قد فزّعت والدهـا
فى المهـد فانقلبت عيناه من فرق

ويبدو أنه عجز حتى عن أن يهادنها ، وصرح بأنه لم يهنأ قط الا بعد أن « نقب عرسه » بالطلاق . على أننا لا ندرى أأنجب منها ولدا سماه العباس — وهو يلقب بأبى العباس فى الكتب — أم أن ذلك جاء حملا عليه (١) .

المهم أن بقاء ابن المعتز تحت سلطان بنت بسطام لم يطل ، والظاهر أن قلق نفسه كان من العوامل الأساسية فى هربه . ولكن ماذا عساه يفعل بعد ذلك ؟ انه يتمنى أن يصـبح أميرا للمؤمنين — لأن هذا حقه — ولكن الظروف لا تزال تبعده عن هذه المهنة . وكان استعداده العلمى رائعا ، الا أن شبقه يجذبه

(١) يرى محمـد عبـد المنعم خفاجى فى كتابه ابن المعتز (ص ٣٤ ط . الحسين التجارية) أنه أعقب أبا العباس وعبد الواحد وبنتا رثاها ، مع أن أبا الفرج يقول فى أغانيه ١٠ : ٢٧٥ ودرج فلم يبق له خلف يقرظه ولا عقب يرفع منه !

الى المجون بالقدر الذى يجذبه جده . وفى بعض الأحيان يغرى على المسامرة شيئا ، ثم يكتشف فجأة أنه أمير لا ينبغى أن يشارك فى بعض قدرات العامة .

ولكن بما أنه أصبح شابا قوى الارادة جدا بسبب التعارض المتكافىء ، ويعتقد بأن كل ما يستحق أن يعمل سوف يعمل فى الوقت المناسب ، فقد غدا صبورا يضرب به المثل فى طول الترقب والانتظار . وكان يتقاضى نظير صبره المال من القصر أحيانا ومن الضالعين مع القصر أحيانا أخرى .

فاذا التفتنا الى خلصائه بعد ذلك — وهم غير من يخالطهم فى ساعات الجد والتحصيل — نرى خليطا عجيبا من الشباب ، فيهم الشاعر وفيهم الكاتب وفيهم المغنى وصانع الألحان ثم فيهم المتهتك المغامر الخليع الذى يطلق العنان لمجونه فلا ندرى أهو انسان أم شيطان !

هذا هو أبو الطيب القاسم بن محمد بن عبيد الله النميرى خدينة وأحد أقطاب مجلسه ، يلهو ويقصف فاذا أذن للصلاة حرص على أن يتجه الى الله . ويروى عنه جعفر بن قدامة — الشاعر الكاتب وزميل الشراب الدائب — أنه قد يصلى الصلاة الخفيفه ويطيل مع ذلك السجود ، وفى احدى المرات أطال سجدته حتى استثقله جميع من حضر ، فلم يجد ابن المعتز بدا من أن ينشده [1] :

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٣ ، ٢٨٤

صـــلاتك بين الورى نقــرة   كما اختلس الجـرعة الوالغ
وتسجد من بعدها ســجدة   كما ختم المزود الفـــــارغ

وهذا أبو أحمد يحيى بن على بن يحيى المنجم الذى اضطر ابن المعتز الى مقاطعته ، مع أنه كان يعجب بذكائه وشعره واطلاعه الواسع على علوم العرب والعجم . لقــد اكتشف أنه شعوبى فهجاه ، ورد عليه هو متهما اياه فى أخلاقه وعلمه (١) .

وهذا ابن حمدون أبو عبد الله محمد ، النديم الظريف وقريب على بن منصور بن بسام الشاعر الذى خاصمه ابن المعتز ، فلما مات كان أحد القلة التى رثته وتفجعت عليه .

ثم هذا جحظة البرمكى ، وأبو بكر محمد بن يحيى الصولى الكاتب الناقد وخير من يلعب الشطرنج ، وأبو بكر أحمد بن أبى العلاء الذى هجاه البحترى وكتب الى ابن المعتز يناشده أن يجعل منه نديما ومغنيا ، فعتب عليه لأنه هجر دكانه الذى اعتاد أن يجتمع فيه بأصحابه كلما قصد الى سامرا (٢) .

وهناك غير هؤلاء ممن يعيشون متطفلين على قصور الملوك ، ومن المهرجين والأفاقين الذين يتواطؤون عــلى المنـاداة بحياة لا ترتبط بعمل الا عمل الاثم ، ولا تبتز الا كل حرمة تحت أى شعار زائف براق .

---

(١) الديوان ١٨٠ (ط . بيروت) وتاريخ بغـــداد ١٠ : ٩٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ٤٦١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦

(٢) الأوراق ١٤٣ وسنرى قصـــيدة فيها صفحات ساخرة يطالعنا بها ابن المعتز على نوع الحيـــاة التى كان يتعشقها ويحن اليها برغم ما فيها من خسة وسوء .

لقد استبدلوا بقيم الشرف بديهة حاضرة ونكتة ماجنة ، وبالتدبير الرشيد حلاوة الكلام وتهوّر الشباب وسعة الحيلة بحيث لا تتشابه أساليبهم ولا مسالكهم ، على الرغم من أنهم جميعا ناعمون ، تزين أصابعهم الخواتم وشعورهم مرجلة وملابسهم أنيقة .

يقدمون على الفسق بوجوه طلقة ، وبلا ادعاء للاحتشام ، وبذلاقتهم يقنعون أى عيّاب بطبيعة ما يفعلون .. بل بضرورته !

وقد كانت لهم جاذبية آسرة ، فاستطاعوا أن يسيطروا على الخاصة تماما ويسوقونهم الى هذا المصير الذى أطيح فيه بأغلبهم. وكان القرن الثالث الهجرى هو قرنهم بحق ، ويعتبر ابن المعتز أشدّهم جاذبية وأكثرهم تمكنا من فنون العبث مع اختلاف المستوى ومحافظة منه على الخير ومظهره .

واذا كانت حياتهم لم تدم طويلا ، فان حياة ابن المعتز كانت أقلهم دواما .

كانوا يبحثون عن أى شىء .. فى السياسة .. فى الدين .. فى الأدب ، وبحث هو عن شىء صرع فى سبيله ، الا أنه كان هو الطريق الذى قدر له !

الفصل الخامس

ترفّع الأمراء

لم يحاول ابن المعتز أن ينكر فى كل كتبه وكل رسائله أنه كان انسانا مغامرا ، بل على العكس يبدو كما لو كان فخورا بهذه الصفة ، ولا نستطيع مهما نحاول أن نتصور بَعْدُ أنه ضيّع فى مغامراته ترفّع الأمراء ، كلا .. فهو الأبى حتى وهو يمدح تحت وطأة الحاجة ، حتى وهو يقصد لسليمان بن وهب وزير المعتمد ، والى أن نيف على الثلاثين .

انه يقول لهذا وذاك أهون ما يقال أو أقرب ما يخطر على البال ، دون أن يتعمق على المعنى الطريف . وهو اذا قصد غيرهما — وسيقصد فى المستقبل — يحرص على ألا يتورط فى ذكر الأسماء ، وعلى ألا يغلو الغلو الذى يحيد به عن جادة الصدق . ولعل الذين يحاولون أن يقارنوه بشاعر عصره — البحترى — يظلمونه ولا يسلمون بأن غايته الوحيدة لم تكن الا قضاء حاجته بأيسر سبيل ، ودون أى خسارة فى رصيد كبره .

وذلك جوهر الفنان عنده !

وهو فى انتاجه الغزير حريص دائما على ارتداء أنيق الثياب ، كلما اضطر الى الاعتراف بالعوز . وربما اذا لم تواته الظروف

قنع بالقليل ودعا الى الزهد — وهذه نغمة ستقوى عنده فى كهولته المبكرة — وقام بالعمل وحده دون قهرمانه أو دون مواليه .

يروى أبو الفرج أن عبد الله بن موسى الكاتب — صديقه — دخل عليه وفى داره طبقات من الصناع وهو يعينهم على بناء داره وتبييضها ، فقال له :

— ما هذه الغرامة الحادثة ؟

فأجاب :

— ذلك السيل الذى جاء مذ ليال أحدث فى دارى ما أحوج الى الغرامة والكلفة :

ألا من لنفس وأحزانها ودار تداعى بحيطانها
أطل نهارى فى شمسها شقيا معنى ببنيانها
أسودّ وجهى بتبييضها وأهدم كيسى بعمرانها

وهو يمضى على هذا دائما ، فان اضطر الى أن يفتخر أو الى ايجاد تبرير فلسفى لترفعه صدر عن حقائق تاريخية دقيقة ، فهو فضلا عن أنه صاحب العرش الشرعى فان رهطه الأدنين قاتلوا بنى أمية وغلبوهم [1] وهم صانعو الحضارة والنبى منهم [2] ،

---

(١) يقول :

قتلنا أمية فى دارها ونحن أحق بأسلابها

كما يقول :

جزينا الأمويين ودناهم كما دانوا
وذاقوا ثمر البغى وخناهم كما خانوا

(٢) يقول فى هذا المعنى :

أليس محمد منا فحسبى به فخرا وما فيه فريد
به طلعت نجوم الحق سعدا وبينت الشرائع والحدود

فليس لأحد أن يساميهم . ومن هنا كان لابد أن يعلن خصومته للطالبيين الذين يظنون أن رهطه سلبوهم الخلافة ، وهى خصومة صريحة تستند فيما تستند الى أن أبا طالب وآله — باستثناء على — لا يقاسون بالعباس وأبنائه .

انى من القــــوم الذين بهم فخرت قريش عــلى بنى كعب
صـــبر اذا ما الدهر عضهم وأكفهم خضر لدى الجــدب
ولهم وراثة كل مـــــكرمة وبهم تعلّق دعــوة الكرب

ان الرجل فى نظر ابن المعتز ليس عليه من واجب أخلاقى فى هذه الحياة الدنيا الا أن يرتفع الى عليين . واذا تورّط فى نقيصة فلا بأس من تبريرها ، والا فهى ضرورة . اللهم الا اذا كان لابد من كتمانها ، وفى هذه الحال تكون سرا يمنع عن الجميع :

فاكتم السر حبيبا وعـــدوا فهو من هــذا وهذاك يشيع

ومع الصبر وكتمان السر يحسن الحلم ، وكل هــذه من سمات الترفع . وهكذا لا تكون الحيــاة مجرد مغامرة طائشة لا جدوى وراءها ، وانما تكون تمرسا صادقا على بلائها . ولو قد تتبعنا ابن المعتز وناقشناه فيما صدر عنه رأيناه لا يغضب قط ، لأن الغضب بدايته العصيان ، والعصيان يقتضى أن يعدل عن التقية — سلوكه العام — وهو نفسه يقول : الغضب يبــدأ بالعصيان ، يعظم ذنبه ويقبح صورته ويعمل بذمه [١] .

---

(١) الأوراق ٢٩٥

وقد عرضت له المرة بعد المرة فرص التمرد والثورة ، الا أنه كان يرفضها ، ولديه دائما أسباب قوية للرفض بما بينه وبين سالبيه حقه . فهم فى الحقيقة ليسوا مدفوعين الى التستر عليه والى مده بما يميزه عن غيره من أمراء العباسيين ، أما وأنهم يميزونه فمعنى هذا أنهم يسترضونه ، وفى هذا الكفاية .

هو ليس كالمغامرين البائسين المضطرين الى اراقة ماء وجههم أو الى اعلان تمردهم ، وأما شقيقه الذى يصغره فقد لقن منه هذه الفلسفة ، بل لعله ظل يصدر عنها حتى آخر نفس له فى الحياة .

ان هذا الفنان العاشق للحرية المغامر المترفع لا يريد المال الا ليومه ، ومن ثم ينبغى ألا يشغل نفسه بطلب الضمان لدوام الحال . بل انه حين يجد كل شىء متاحا طرحه جانبا وكأنه يرفض أن يقف فوق المكان المطمئن أو أن ينتهى عند النقطة التى يقال له فيها : هنا يجب أن تستريح !

وكأنما كان شعاره : الرحلة دائما والقليل يكفى ، أما الشىء الذى يتخم النفس فلا ضرورة له ، وان يكن لا ضير على الاطلاق من أن يفيض على صحبه بما يملك :

وأوثر صاحبىَّ بفضل زادى وأحيى النفس بالوشل القليل

وهو من هنا أو فى آخر الأمر وفى حدود الصبر والحلم والترفع وكتمان السر وقلة المال يقبل أن يكون أسير ما يأتى ، أو عبدا للصدفة ، لأنها روح المغامرة واثارة الفنان الحقيقية ومجال

لظهور مبدأ التعارض المتكافىء الذى يحقق كل شىء يقع بين طرفى الخير والشر :

تعالوا فسقوا أتقسا قبل موتها
ليأتى ما يأتى وهن رواء
نبادر أيام السرور فانها
سراع وأيام الهموم بطاء

فان لم يكن كذلك فصيده الأكبر فى أعماق الغيب ، يسرقه فى ليلة أو على قبلة أو فى معاقرة هانئة :

يا ليلة سرقتها من دهرى
ما كنت الا غرة فى عمرى
أما وريق بارد فى ثغر
شيبا بطعم عسل ومر
ما الموت الا الهجر أو كالهجر

وهكذا ، يجعل فلسفته أو يضعها وهو بعد فى الحلقة الثالثة ، دون أن يحاول قط أن يتحصن من الكوارث ، ودون أن يعلن أنه شقى بما يأتيه :

فيا نفس ان الرزق نحوك قاصد
فلا تتعبى حسبى من الرزق اتعابا

الفصل السادس

الأمير الرجيم

يمكن أن نقول بعد ذلك ان القاعدة التى اتخذها ابن المعتز أساسا للحياة الاجتماعية هى : عش ودع غيرك يعيش !

وليس من شك فى أن هذا قد يبدو لأول وهلة موقفا سلبيا ، غير أنه فى حقيقته ضرورة لسلوك التقية من ناحية ولمبدأ اللذة من ناحية أخرى . ولم يعن هذا قط أنه لم يشغل نفسه بقضـايا عصره ، وانما يعنى أن هذه القضايا كانت بالنسبة له جزءا من بناء قائم ولا تحتاج الا الى تأكيدها .

وقد كان كتابه « الفصول القصار » الذى وضعه فى وقت مبكر من حياته — ربما قبل سنة ٢٧٤ — ينم عن هذا الاتجاه . فالملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى ، ولا تلتبس بالسلطان فى وقت اضطراب الأمور عليه فان البحر لا يكاد يسلم صاحبه فى حال سكونه ، فكيف عند اختلاف رياحه واضطراب أمواجه ؟ والدنيا تهين من أكرمت وتأكل من أطعمت ، والفرصة سريعة الفوت بطيئة العود ، والتواضع سلم الشرف ، وغضب الجاهل فى قوله ، ومن جرى فى عنان أمله عثر بأجله .

ويبدو من هذه الأقوال ونحوها مشاركته الايجابية ، وان يكن يحرص دائما على أن يجعلها من قبيل النصح حتى كأنه حكيم . ولعله أن يكون قد تأثر ابن المقفع فى أدبيه الصغير والكبير ، ولعله أن يكون قد تعمق تجارب الحياة فى هذه السن المبكرة فرصد تجاربها ليذيعها بين الناس كى تنفق فى سوق الحكمة عندهم .

لسنا ندرى ، وانما كان على كل حال يفسح الطريق للناس حتى يمروا بشرط أن يسمعوا لصوته ، ولهم أن يفعلوا ما يريدون .

ان القانون الأخلاقى الذى يقرره لم يكن له قوة التنفيذ ، ولم يحاول هو أن يلتزم به واقع الأمر . فكأنه قوال لا فعال ، وكأنه لا يريد الا أن يتقمص لقمان حتى اذا قضى الله سلخه عنه ليعيش الساعة التى هو فيها . وان أكبر جريمة يقترفها التهاون فى الاستمتاع بهذه الساعة كائنة ما كانت ، والا فالويل له .

يا من يفندنى فى اللهو والطرب
دع ما تراه وخذ رأيى فحسبك بى

ويبدو من ارتباط اللهو بالفرصة المتاحة عنده معنى حياته كلها ، على الأقل فى هذه المرحلة التى تنتهى بأولى ثلاثيناته . وهو معنى شهوانى أساسه الأول المرأة ، وتتأخر الخمر الى مرحلة ثانية من حياته .

ان هذا الشاب الوسيم الأسمر القوى البنية الأنيق ، قطع الطريق بين سامرا وبغداد مئات المرات من أجل المرأة . وهو قد

يحارب وقد يخرج للقنص ، غير أن صورة المرأة لم تكن تبارح خياله قط . وانه ليصل به الأمر فى بعض الأحيان حد الخروج عن المألوف ، وهذا النميرى صديقه يحكى أنه عكف ذات يوم على جارية قبيحة للغاية فقال له :

— أيها الأمير ، سألتك بالله أتتعشق هذه التى ما رأيت قط أقبح منها ؟

فقال عبد الله وهو يضحك :

قلبى وثـــاب الى ذا وذا   ليس يرى شـــيئا فيأباه
يهيم بالحسن كمـــا ينبغى   ويرحم القبـــح فيهواه [١]

ولكن أعجب ما فى علاقاته بالمرأة أن نسمعه يؤكد أن « القلب لا يجمع ثنتين » مع أنه يرفض ذلك حتى ليقول :

وما العيش الا لمســــــتهتر   تظل عـــــواذله فى شغب
يهيم الى كل ما يشـــــتهى   وان رده العــذل لم ينجذب

ولندعه مثلا يلمح جارية أو يشهد فى الطريق مركبا لاحدى المحصنات داخل قبتها ذات الستر المسدلة ، انه يتجه نحوها بغريزة تتقد حتى لتنتفض أعراقه ويفقد عقله ، وهو على أى حال لا يخجل من ذلك ، بل يصرح به فى وقاحة نادرة :

جعلت عقــلى لشهوتى عبدا   وصار غيى عند الهوى رشدا

فاذا أخفق فى الوصول ، وعجز عن اطفاء هــذه النار التى اجتاحت حشاه ، صاح :

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٤

يا هلالا يدور فى فلك النـــا ورد [1] رفقا بأعين النظـــارة
قف لنا فى الطريق ان لم تزرنا وقفة فى الطريق نصف الزيارة

ولذا نراه طوال حكم المعتمد أسير جوع عارم ، ونهب طمع لا يشفيه الا البذل دون ما ارتباط عاطفى حقيقى . وكأنها المغامرة وحدها ولا شىء الا المغامرة ، على أن تتنوع بتنوع النساء ، وعلى ألا يكون ثمة أمر الا اللذة :

فان أردت وصـــــالا فاقبلى صلتى
منى ، والا فهجـــران بهجـران

ومتى قضى وطره التفت الى أخرى فى ظمأ وعرامة ، وكأن هذه لم تملأ خواء نفسه وأنشأ يقول :

ألا من لقلب فى الهوى غــير منته
وفى الغىّ مطواع وفى الرشد مكره
أشـــــاوره فى توبة فيقول : لا
فان قلت تأتى غية قال : أين هى [2]

مثل هذا الأمير الرجيم الذى يبيح للحب أن يشيع بين الناس ما كان نزوة عارضة ، لابد أن يفقد حيويته فى وقت مبكر ولابد أن يصل سريعا الى النقطة التى تصبح فيها المغامرات النسائية عبئا يريد أن يتخلص منه اما بالخمر والموسيقى ، واما بالرحـــلة والحرب ، واما بالتأليف والكتابة .

---

(١) هذه رواية الأوراق ٢٢٩ والناورد فارسية معناها جولان الخيل والقتال ، وفى الديوان الماورد !
(٢) هذه رواية الأوراق ٢٠٦ وفى البيت الأول اقواء .

أما متى حدث ذلك فلا نعرف تماما ، ولكننا نقرأ أنه شاخ فى الثلاثين وابيض شعره قبل هذه السن فخضبه [1] ، ودب اليه الهم والسأم طوال أيام المعتضد مع أنه كان يشاركه رحلاته وكانت ثقيلة مخيفة كشخصيته .

---

(1) من أشعاره عندما أدركه الشيب قوله :

ومشى الشيب قبل عقد الثلا ثين فلما انتهى اليها أغذا

وقد ألح على ستره حتى أنه ليقول لواحدة من صاحباته :

يا هند ما شاب الفتى وانما شاب الشعر

الفصل السابع

ولكنه أحب

فى الأخبــار أن النميرى تحدث للنــاس عن علاقة ابن المعتز بنشر أو شر أو شرير أو شريرة ، فاعتبره خائنا وجفاه . ونشر هذه هى التى تحدث عن حب الأمير لها جعفر بن قدامة ، وذكر أنه كان بداره معه فى أحد أيام الربيع ، وبينما هما جالســان خرجت هى عليهما من صدر البستان واضعة غلالة معصفرة وتقول:

— يا سيدى تلعب معى جنابى ؟

فقال على البديهة غير متوقف ولا متفكر :

فديت من مــرّ يمشى فى معصفرة
عشية فســقانى ، ثم حيــانى
وقال : تلعب جنّــابى ؟ فقلت له
من جاد بالوصل لم يلعب بهجران

ودعا بهزار فغنت فى قوله هذا من الرمل المطلق على ما يقرر أبو الفرج [1] والظاهر أنه على رغم هوايته بالنساء تقوى منه

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٠ والجنــابى والجنــاباء لعبة للصبيان يتجانب الغــلامان فيها فيعتصم كل واحد من الآخر ، وفى الأصل « وفى يديها جنابى باكورة باقلا » وقد وردت فى معاهد التنصيص (ص ١٩٤ ط . بولاق سنة ١٢٧٤) جنابى من باكورة باقلاء .

فحولته الشابة كان يولى هذه التى خاصم من أجلها النميرى حبا صادقا . وكأنما كانت الطبيعة التى عهدناها لاتسلمه الى أية امرأة ، تأبى الا أن تربطه بهذه حتى لتسمو به الى نوع من التعلق أو العشق يبدو عجيبا فى حياته ، وليس أعجب من أن يقول وقد رآها ذات يوم تعبة تضع يدها على عينيها فى هبة غبار :

رأيتــــه يتمشى متعبا ضـــجرا
كمثل غصن نقا فى الروض أملود
ليت الغبــار الذى يؤذيه لى كحل
وليتنى جاره فى زحمة العيـــــد

وكان من عــادة المبرد أن يزور جاره — جار الأمير — اسماعيل بن اسحاق القاضى ، فيعرج عليه ويذاكره الأشـعار وتشبيهاتها بصفة خاصة وما هو بسبيله فى الكتاب الذى أتمه باسم « فصول التماثيل فى تباشير السرور » [1] . وقد دخل عليه ذات مرة فرآه مكتئبا مهموما يشكو هجر نشر أو شر وسوء ظنها فيه وعدم ردها على كتاب بعث به اليها ، وأنشد :

حدثينى يا هم ســـؤلى ونفسى
من دهانى فى الحب أو من وشى بى

(١) المقصود بالتماثيل التشبيهات ، وبتباشير السرور ما يتصل بالخمر من أسباب ، ويرى عبد العزيز سيد الأهل فى كتابه عبد الله ابن المعتز (ص ٢٥ ط . بيروت سنة ١٩٥١) أن المبرد هو الذى وجه ابن المعتز للتشبيه .

لا ومن قدر الشــــقاء على العـ
شاق ما خنت ســـاعة فى حسابى

ليت أن الرســـول كان يؤدى
لحظ عينى كما يؤدى كتــــابى

فأرى شر كل يوم ويشـــــفى
سقم نفسى وحسرتى واكتئـــابى

ولم يستطع المبرد ازاء هذا الا أن يقول :

— والله أيها الأمير لا يراك المرء وأنت فى طلب المثل السائر والشعر المرصوف حتى يقول هذا حكيم أمته ، فالام تدافع عن هذا بهين أنت لا تخلص منه أبدا ؟

قال ابن المعتز :

— لقد استوحشت منها حتى لا أرانى قادرا على شىء ، ولعن الله الشعر ما دام مفرقا بينى وبينها .

فتساءل الشيخ قائلا :

— وكيف أيها الأمير ؟

أجاب :

— انها أبيات قلتها ، فزعم الزاعمون أنى لا آنس بها الا بما تحمله ، وهل أنا الذى يسمح بما يجب كتمانه ؟ هو شيطان الشعر وأين منه المهرب ؟

من معينى على الســـهر وعلى الهم والذكـــر
وابلائى من شــــادن كبر الحب اذ كبـــر
قام كالغصن فى النقـــا يمزج الشمس بالقمر

شـــــــــاطرى مقطب فاسق الفعــل والنظر
قد سقانى المــدام والـ ليــل بالصبح مؤتزر

ولم يكن المبرد يجهل طبيعة هذا الشاعر ، ولا كان غافلا عن الشر الذى يتورط فيه أينما كان وفى أية ساعة . وتكفى هبة ريح من جانب امرأة لاثاره غرائزه والهاب أحشائه ، ولكنه دهش عندما رآه يقيم على عشق واحدة بعينها فهل بدأ يتغير ؟ أتراه أصبح فى حاجة فعلية الى الحب ؟ انه لا يدرى ، ولهذا قال كالمتسائل :

— انى والله لأعجب لك ، ولكن لما كانت الأشياء تجلب الى أسواقها بحسب نفاقها فأظنك هديت الى ما ترجو نفاقه على هذه التى أبكتك .

وسكت يتطلع الى غراس البستان وطرقاته المفروشة بالحصباء الملونة ، بينما عبق الزهور يضوع من كل مكان ومن ثوبه هو بصفة خاصة . ولأول مرة يلحظ أنه فى قميص المنادمة وعلى رأسه كلوتة خفيفة بنفسجية [1] ، فعاد يقول :

— ولكن الحزين مع ذلك لا يلهو أيها الأمير

قال ابن المعتز فى أسى :

— اننى هنا وفى مكانى هذا من أمس ، وقد حجبت الزوار حتى أقوم على حزنى المقيم .

---

(١) الكلوتة بتضعيف اللام فارســية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضرب بالحرير أو القطن .

ولكن عينى الشيخ لم يفتهما صينية الذهب وفوقها الجوز واللوز ، ومن قريب كأس فارغة وزق مفتوح .

— وهل تستعين على حزنك المقيم بمثل هذا ؟

وتبين ابن المعتز النكرة لما يسمع منه ، فخشى أن يحرجه بمزيد مما يكرهه ويستنكره ، فقال باقتضاب :

— أيها الشيخ الجليل .. لقد كانت هنا خزامى وهذا طعامها وشرابها النبيذ ، ولكنى ودعتها قبل أن يتقدم الليل ، لقد كنت أريد أن أفرغ لطيف شر البديع .

ما رأينـــــــا بشرير   قط فى النـاس شبيها

وهنا قام المبرد وهو يقول :

— انى لأستعفيك من هذا كله فهو ديدنك ، وأنا عجوز لا أقدر الا على أن أراسـلك بما يجـرى الأمر فيه على علمك وفضلك ومع ذلك فانى ذاكر قولك فى شر هذه :

وقلت تعـــــالى يا شريرة نمتزج
كمثل امتزاج الماء والخمر نصفين

الفصل الثامن

المهجور

كانت دار ابن المعتز فى هذه الليلة قد أضيئت بالشموع الملونة ، وتسللت الأنوار من النوافذ على مغارس الحديقة . وفى الجانب الأيسر منها كان الفناء الواسع قد فرشت أرضه بالبسط الفاخرة ، وألقيت الوسائد والنمارق حول سماط مستدير . وفى الصدر سرير من الأبنوس مموه بالذهب ، وملتصق بحائط زخرف بالنقوش البديعة .

وثمة باب من الأبواب مفتوح دلف منه ابن المعتز وعليه القباء الأسود والقلنسوة الطويلة ، ثم عاد وقد غير هندامه وجلس الى المائدة فاذا عليها الأباريق الفضة والبللور ، وتراوحت الأقداح على مختلف أشكالها بين أطباق الفاكهة والجوز والبندق ومزاهر الأزهار .

كان الجالسون ، هذه الفئة الضائعة المغامرة التى لا يعنيها الا أن تملأ بطونها وعيونها ، وقد حيوا الأمير أجمل تحية فراح يتقبل تحيتهم بوجوم ، حتى اذا صفق خرج قهرمانه متعجلا فقال باقتضاب :

لقد تحسنت حال أبى أحمد الموفق بوضع رجله فى الثلج وزاره اليوم أمير المؤمنين ، فالينا بالمغنيات .. أهناك من الجوارى الجديدات شىء ؟

وسرت همهمة استحسان بين الحضور وكانوا يعرفون مكانة الموفق فى نفس أميرهم ، فمضوا يعلنون عن غبطتهم باشارات مختلفة ، بينما أجاب القهرمان بخشوع :

— لا يا مولاى ولكن عندنا خزامى وبنت الكراعة وهزار .

قال :

— أما خزامى فمنذ فارقتنا شريرة وهى تدعى النسك ، ففيم وجودها وهؤلاء لا يسكرهم الشراب وحده ؟

وتضاحك فى ملل ، فضحك الجالسون . واندفع جحظة قائما على قدميه وهو يدفع بوجهه القبيح ناحية الأمير ويقول :

— أتذكر سكر الشراب جعلنا الله فداك وتسكت عن الطعام ؟

وكان جحظة هو الوحيد الذى يجرؤ على أن يتكلم عن مثل هذا ، مستشفعا بما وضع من كتب فى صنوف الأكل ، وربما ذكره فى أماليه التى لم يشك أحد فى خطرها . فقد كان جحظة مهما تختلف الآراء فى تهتكه وخسوف دينه عالما جليلا ، فضلا عن مهارته فى الضرب على الطنبور ، فلما سمع الأمير منه ذلك قال برفق :

— يا خنياكر [1] .. أيش تقول فى قطائف تأتيك ؟

فتلوى كالأفعوان وهدر :

— اذا كانت بجوز أتخمتنى واذا كانت بلوز أبشمتنى !

فضحك الحضور متماجنين ، وقال ابن المعتز :

— اذن ففى دارك من صنوف السكباج ما يريحنا من عواء بطنك وصراخ وجهك .

قال جحظة :

— والله ان بيتى لأفرغ من فؤاد أم موسى وأنا أفلس من طنبور بلا وتر !

وعاد المكان يضج بالضحك ، فقال هو مستطردا :

— ولو كان هـذا بالأمس لقمت من هنا فجعلتك تتفضل ببسط العذر لعبدك ان شاء الله .

قال عبد الله وقد سرى عنه بعض الشىء :

— اذن ما رأيك فى طباهجة بلبود ؟

أجاب مبادرا :

— فان حلّيتها بمعتقة اليهود طاب أمامها السجود .

وهنا انبرى أبو الحسن الأموى وقد جاء رسـولا من قبل النميرى يطلب صفح الأمير عنه ، وقال :

— لقد صرفنا جحظة أيها الأمير عما كنا نذكر به خزامى ، فهلا حدثتنا حديثها أيها الأمير !

---

(١) ذكر ياقوت فى معجم الأدباء ١ : ٢٩٤ أنه لا يعرف معناها وقيل انها فارسية بمعنى المغنى سماه بها الخليفة المعتمد .

أحس ابن المعتز كأنه بوغت ، فأطرق بعض الشيء مفكرا ، وعندما رفع رأسه كان يقول :

— وما جدواه يا أبا الحسن ! فأنا اذا كنت لا أعتمد العنت فانني لا أقصد قصد من اذا عورض بشيء أذاعه ، غير أنني أرغب الى الناظر أن يتأمل فيم تجفونا وقد عبت عليها بشعر لى أن تترك النبيذ ؟

وهنا تدخل نطاحة أحمد بن اسماعيل فسأل :

— وهل أجابت ؟

فقال :

— ببيتى شعر أو ثلاثة !

فأنشد نطاحة على البديهة وقد كان شاعرا رقيقا :

خـــير الكلام قليل على كثير دليـــــل
والعى معنى قصــــير يحويه لفظ طويــــل
وفى الكلام عيـــون وفيه قال وقيـــــل
وللبليغ فصــــول وللعيى فضــــول

واضطرب المكان بين معجب ومنكر ، وان كان الشعور العام أن ينشدهم ابن المعتز ما قالته خزامى . وعندما طولب بذلك قال :

— وهل يقبل نطاحة من بعد شعره شعرا ؟

قال نطاحة :

— أنا لا أخاف يا سيدى !

قال ابن المعتز :

— فليكن ولنتأمل بعين الانصاف لا الانحراف قولها فالله راحم كل من يقهر هواه ، اسمعها تقول :

أتانى قريض يا أميرى محبر
حكى لى نظم الدر فصل بالشذر
أأتكرت يابن الأكرمين انابتى
وقد أفصحت ألسن الدهر بالزجر
وآذتنى شرخ الشباب ببينة
فياليت شعرى بعد ذلك ما عذرى

انها تتحدث عن المشيب سامحها الله ولا ترانا !

وقبل أن يستطرد أقبلت جارية كأنها الغزال ، عليها قميص يشف عن أثوابها جميعا وفوقه قرطق مفروج ، وقد أشرق وجهها وجعلت شعرها طرة أسبلتها على جبينها ، وتعصبت بعصابة نقش عليها بالذهب بيت من أبيات الشعر . وكانت هذه الجارية تحمل مروحة عريضة من ريش النعام ، تقبض عليها بكف فوقه الدمالج توسوس ، وراحت تقول :

— عفو مولاى لخزامى جارية الضبط فقد جاءتك فان شئت حكيت حكاية تلك الأبيات أو اكتفيت بحمل المروحة مع سائر الوصائف !

وكان نفر من الجوارى قد دخل ، وهن لا يختلفن كثيرا عن خزامى ، وتطل من وجوههن عيون دعج تقوست حواجبها فى سحر آسر . ولقد ملأن الفناء حياة فارتفعت الصيحات ، ولكن صوتا رقيقا انبعث من الناحية البعيدة لجارية يبدو من طلعتها

وهندامها أنها رومية . عليها دراعة مصبوغة بلون الورد ؛ وتهدلت خصل شعرها من تحت تاج تبرق لآلئه ، وأخذت تقول :

— وهل نسى مولاى بنت كراعة ؟ أتراه ما عاد يذكر ما بعث به الىّ فى يوم من خوالى الأيام وقد غاب عنه صوتى دهرا ؟

ليت شعرى بمن تشاغلت بعـدى
وهو لا شـــك جاهل مغـــرور
هكذا كنت مثـــله فى سرور
وغـــدا فى الهموم مثلى يصـير

ليس هناك أحد يا أميرى ، ولكنها الحرفة وصنعة اللحن ، فان شـئت غنيتـك هذين البيتين بما لم تغنه جارية قط حتى ولا عريب المأمونية ، ولخزامى أن تقدر ما تراه ان لم تشأ أنت أن تنظر !

وحبذ المتسامرون فكرتها ، ولكن الأمير ظل واجما ، كان ثمة شريط من الأمس يعبر خاطره ، فهذه الحمراء وهذه البيضاء وهذه السمراء ، وهذه وهذه وهذه .. كلهن فى عنفوان الصبا ولكنه عاد يتجاهلهن ، فأى نعمة من طيبات الحياة يجحدها بعد ؟ أيخبرهن ، أم ترى تولت هذا الأمر خزامى وجاءت لتمكر به ؟ منذ متى ؟

انه لا يذكر . فقد يكون من العام الماضى ، وقد يكون منذ أيام . فالداهية أكبر من أن تحتمل ، وهو لا يستطيع أن يتصور أنه وهو فى قمة نجاحه — نجاح فحولته بطبيعة الحال — ينزل القدر عليه بضربته القاصمة . لم ينزل بهامرة واحدة حتى لكأنما

هذا عطف لا يعترف به ، وانما نزل شيئا شيئا وفى تقسيط للعذاب مع مخايلة بامكان الشفاء .

ولا يزال الى هذه الساعة يتعذب ، ولا يزال يطمع فى البرء أو فى العنفوان حتى لا يقال عنه غدا أو اليوم : انه .. انه لم يعد يقدر على امرأه !

ومتى يأتيه العقم الكامل ؟

— دعونا من الغناء اليوم .. فالأمير مريض وقد سمعته الساعة يقول قد اشتمل ديوانى على مائة ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالا منى .

وكان صادقا فيما يقول ؛ فان عمه الموفق يعانى داء الفيل بعد أن ظن أنه النقرس ، وقد اشتد عليه فى رحلته الى واسط حتى أفزعه الى بغداد . وفى يوم الاثنين الماضى دخل داره ، ولم يبرح فراشه قط . وعلى الرغم من أن كثيرين من الحضور كانوا يكرهون الموفق لحزمه وشدته فانهم آثروا السكوت . وقد انسحبت الجوارى كأنما شعرن بأنه لا مكان لهن فى هذا الجو ، ولم يبق الا الخصيان ينتظرون ما يؤمرون به ، وان هى الا لحظات حتى قال ابن المعتز :

— من بالباب من الشعراء ؟

قال القهرمان :

— أبو عبادة وابن بسام و ..

فقاطعه ابن المعتز :

— أبعد البحترى شاعر أيها المأفون .. علينا به !

ولم يقدر للشاعر أن يدخل ، اذ دوى فى الفناء فجأة صوت نذير فى صورة فارس جاء من قبل أبى العباس أحمد بن الموفق يقول :

— لقد مات أبو أحمد .. رحمه الله !

وكان اليوم هو الأربعاء لثمان بقين من صفر سنة ٢٧٨ من الهجرة [١] ، وفى اليـــوم التالى جلس للناس ابن المعتز مـــع أبى العباس لتقبل العزاء .

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٦ ، ١٥٨

الفصل التاسع

حيرة

انتهى ابن المعتز بعد ذلك الى الاقتناع بأن ما يحسن عمله انما هو الكتابة ومحاسبة أبى الصقر اسماعيل بن بلبل قهرمان الموفق وصهره ثم وزير المعتمد بعد موته [1] . وشرع يخطط بالقلم على الكاغد دون أن يسجل شيئا واضحا ، اذ شغله أمر جديد هو أن أمير المؤمنين لم يعد يوليه أى اهتمام ؛ فقد أغلق قصره الحسنى عليه وعلى جواريه ولهوه وكأنما خشى أن يشاركه هذا الأمير الرجيم فيفشى سره .

لكن ماذا يكون ابن بلبل ؟

(١) تروى الروايات أن الموفق مكنه من بيوت المال فأسرف فيها ، وظلم الناس مطالبا اياهم بخراج سنة مبهمة ، ولما رفع نسبه الى بنى شيبان وذكرهم ابن المعتز فى مجالسه تكلم هو فى حقه عند الموفق ثم عمل على انقاص ماله والتضييق عليه . وكان قد اتخذ عيسى بن الفاسى كاتبه برغم وجود على بن محمد بن الفرات وأخيه أحمد على رأس المتقدمين من كتاب العصر — راجع ابن الأبار فى أعتاب الكتاب ١٧٠ ، ١٨٠ (ط . مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦١) .

وماذا يكون كل ما يكتب وهو لا يجد الفرصة للانطلاق من شبح الخوف الذى يتهدده ؟

خوف غامض ، مدمر ، يدفعه دائما الى أن يتجاوز بنظره الساعة الراهنة الى المستقبل الذى تتعلق به حياته !

لقد شاخ مبكرا ، وعليه أن يقدر ويوازن ويدبر . وليس ينفع والحال تلك أن يركن الى الهزيمة وهى تصل صليلا لا ينقطع حوله . هذا الصليل يكبل ساقيه حتى ليجعله أسيرا عاجزا وهو الذى عاش أعوامه السابقة طليق القدم ، طليق القلب ، طليق الضمير . يمضى كالنحلة متنقــلا بين النساء يجتنى لذتهن فى أية أرض وفى أى وقت ، مرتفعا الى عليين حينا وهابطا الى الدرك الأسفل حينا آخر .

ألا ما أكثر اللحظات التى يتمنى فيها كل انسان أن يكون ابن المعتز أكثر مما يتمنى أن يكون الخليفة نفســه أو وزيره أو ابن جرير الطبرى عالم عصره ! على أننا مهما هفونا له ونحن نقلب صفحاته حتى تلك اللحظة من حياته ثم حسدناه — وقديما كان فى الناس الحسد — فاننا لا نكاد نصل الى موت الموفق أو الى ما بعد موته بقليل حتى نحس نحوه بالرثاء .

ومن حسن الحــظ أنه يشفينا بسرعة من هذا الرثاء وكأنه لا يستحقه ، أو كأنه يرفضه ولا يريده ، فلقد وجد مخرجا ولو الى حين . اذ هرع الى عمه الآخر أبى عيسى بن المتوكل ، ووافق محضره هواه لما كان يدور فى مجالسه من نغم وعــلم وأدب

وشراب . ومن ناحية أخرى أنشأ يجرب الطريق غير السوى للرجل الكامل .

كان عنيدا حيث لا يجدى العناد ، ولو اعترف بالقصور وسلم به لتغير كل شيء . ولسنا ندرى كيف لم يعرف أن تهتكه الطويل الذى أقيم على حواسه الشابة العارمة ، كان يجب أن ينتهى بوهن هذه الحواس فتكف شعلة الحياة عن الاتقاذ أو تكاد ؟ أجل كيف غاب عنه أن الخط البيانى لرجل مثله يهبط دائما كلما تقدمت به الأيام ؟

لقد أصبح واحدا من الذين بددوا امكانيات المرء الذى توصله الى الخمسين ولا نقول الستين ، وأمامه أبو الصقر بن بلبل — يا للعجب — أكبر منه سنا ولكنه يمشى بقسط . يأكل كثيرا ويفعل كل ما يكبح نفسه ليدخر على الدوام حيويته !

وحتى حينما تبرد دماء مثل هذا الرجل بحكم السن ، فسوف يتسنى له أن ينهض الى عمل آخر يعوض فيه اتزانه كل ضمور يصيب غرائزه .

لقد كانت حياة ابن المعتز حفلا ثائرا ، لعله كان أشد حقول بغداد فى النيروز أو فى السعانين صخبا وتبذلا . ولكن هذا الحفل انتهى قبل الأوان ، تماما كما ينتهى الشهاب الساقط من قبة السماء .

وتتراءى لعيوننا الظلال السود وهى تتجمع أمامه فى تثاقل وتكاسل ، فيبدو ضائعا غريبا يحاول فى « الطرد » أن يجنى بعض ما كان يجنى مثله فى « القنص » الآخر الذى طالما عرف به . وحتى

فى هذا الميدان كانت انتصاراته هزيلة ضئيلة ، بل تكثر مرات الاخفاق التى يسجلها له تاريخه . ويضاعف ألمه ارتباط اسمه فجأة بغلام اسمه نشوان ، يروى الرواة أنه احتل فى قلبه مكانة شرير أو نشر . ثم يطالعنا هذا التاريخ فى الوقت نفسه بمتاعب تتعلق بطلبات العطاء مع ردود قاسية تأتيه من أبى الصقر وابن الفرات ، وتقل زياراته لقصور العظماء حتى لكأن الناس شاركوا المعتمد فى التنكر له .

وفجأة يضطر الى أن يتسلل هاربا من بغداد متواريا بالظلام الكثيف لسبب مجهول ، وان يكن ثمة من يزعم أنه اتصل بأحد ثوار الزنج مستشيرا فى علاجه فلهج به أتراك القصر . وفى سر من رأى وجد كارثة فى انتظاره ، اذ أن أخاه استولى على داره وبنى بها ، فأخرج منها مطاردا أو كالمطارد حتى قبل أن يلم بقبر أبيه ، وكان هذا قد تهدم فيما تهدم من عمران المدينة (١) وقضى فى البصرة أربعين يوما هائما بين بيت صديق ومساجدها التى كانت لا تزال عامرة بطلاب العلم والشعر والكلام . وما ان حل بواسط حتى سلمته سلطاتها كتابا بخلع جعفرا المفوض من ولاية العهد — وكان المعتمد مريضا — واحلال أبى العباس أحمد بن الموفق

---

(١) يروى ياقوت فى معجم البلدان ٥ : ١٧ ط . مصر سنة ١٩٠٦ أنه أنشد :

قد أقفرت سر من را ... وما لشىء دوام
فالنقص يحمل منها ... كأنها آجام
ماتت كما مات فيل ... تسل منه العظام

محله [1] . ولم يكن فى الكوفة بأحسن حالا عـلى الرغم من استشعاره الأمان بولاية صديقه أبى القاسم عبيد الله بن سليمان أبى وهب الوزارة بعد الايقاع بابن بلبل ، وكان قد تصرم من العام التالى نصفه عندما استدعى الى بغداد فلم يكد يصل اليها حتى قبض عليه الأتراك ، وسمع منهم أن الخليفة مات بداء بطنه [2] .

وبعد أن أخذ أبو القاسم البيعة بالخلافة لأبى العباس أحمد أطلقه معتذرا له ، وخلع عليه ، غير أنه لم يكد يدخل بيته حتى يرى فيه معالم الخراب بادية . فكل شىء محطم ، وماء دجلة قد تسرب الى أفنائه وهاجمت الأرضة دفاتره التى كان يعتز بها فأكلتها ، وهنا أنشأ يقول :

لم أبك ربعا مقفــراً ولا طلل
ولا شـــبابا حان منــه مرتحل
ولا حبيبا قطع الوصل ومل
لكن لعظم حادث بى قد نزل

---

(١) ورد فى اعتاب الكتاب ١٧٥ لما تقلد أبو العباس أحمد ولاية العهد يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين أقر أبا الصقر اسماعيل بن بلبل على ما كان عليه من الوزارة والتدبير الى يوم الاثنين بعد ، ثم قبض عليه وعلى أبنائه وحاشيته وانتهبت منازلهم ، وطلب ابن الفرات فاستتر . وبعث الى أبى القـــاسم عبيد الله بن سليمان يأمره بالبكور الى القصر ، وبكر من الغد اليه فخلع عليه ، وانصرف وبين يديه جميع القواد والغلمان .

(٢) كان ذلك كما يقول الطبرى ٨ : ١٦٤ لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩

كنت امرءا من الأنام معتزل
عليّ ستر دون دمى منسدل
على الذى يملك رزقى متكل
لا راجيـــا لعطفه من الدول
ولا أخاف آجـــلا على أمل

وراحت عيناه تبعثان بأدمع حارة ، وأصابعه الراعشـــة تقلب فى الأوراق المبعثرة . وعندما دق عليه الباب جاره ابن البصرى وكان فى صحبته جاره الآخر اسماعيل بن اسحاق القاضى ، تماسك وأقبل نحوهما يرحب بهما وهو يسألهما عن الأصحاب والرفاق . وأخبره القاضى أن المبرد وقد علم بأمر حبسه استصحب أبا بكر الصولى الشطرنجى الى القاسم وكلمه فى الأمر والانصاف .

ولم يطل بقاؤهما ، فقد أحسا أن الأمير المنكوب يحاول أن يخلو الى نفسه . ولما خرجا ، عاد الى ما كان فيه ، ممســكا بقلمه ليكتب :

شغلى اذا ما كان للناس شغل
دفتر فقه أو حديث أو غزل
لا عابنى ولا رأى منى زلل
وان مللت قربه منى اعتزل

وابتسم .. أترى كذلك كان أم كذلك يريد أن يكون ؟ انه لا ينكر أنه كان يلهو ، ولكن المؤكد أنه كان يقرأ كثيرا ، ويكتب كثيرا . أليس هذا الكتاب « فصول التماثيل » الذى رعت فيه الأرضة وتلفع بالماء والطين برهان جده ؟ والكتاب الآخر الذى

خصصه للسرقات وأضحى مزقا ، أليس دليلا آخـر على جـده المنكور ؟ والثالث والرابع ثم الكتب الأخـرى التى يقتنيهـا ، ألا تقدم الجانب الرزين الذى يكمل صورته الحقيقية ؟

وعادت عيناه تدمعان ، ولكنه ما لبث أن كفكف دموعه . فلقد تذكر نشوان فجأة ؛ فراح يكتب له وهو لا يدرى من يقوم بحمل رسالته ، وكان احساسه اذ ذاك احساس من عثر عـلى ضـالته ، بعـد طول بحث وتنقيب ، وسجل فيما سـجل قوله « .. انى لآسف على كل يوم فارغ منك وكل لحظة لا تؤنسها رؤيتك ، وسقيا لدهر كان موسوما بالاجتمـاع معك معمورا بلقائك ، جمع الله شمل سرورى بك وعمر بلقائى بالنظر اليك » .

ووقعـه ، ثم .. ثم أحس بغضـة ومهـانة ، الى هذا يكون انحداره ؟ وهل يتسنى له بَعْدُ أن يصور نفسه كما صورها قبل فارسا غزلا ظريفا خفيفا ؟ لقد انتهت الأيام التى كان يجعل فيها أية سيدة تصله ، وصار لزاما عليـه اليوم اما أن يهجره النسـاء واما أن يشترى رضاءهن بشعره ، وكلا الشيئين بغيض بغيض !

الفصل العاشر
أيام الخزى الأخيرة

تلك الأحداث الأخيرة لا نجد كلمة واحدة عنها فى كتابات ابن المعتز ، ولا يحدث أصحابه فيها الا من خلال أشعار لا ندرى متى كان يقولها ! ولكنه يحرص على أن يتوسل الى المعتضد ، وقد كان معجبا به ويخاف بأسه فى ذات الوقت ، وفى أول مناسبة هيأها له أبو القاسم الوزير ، تقدم بقصيدة يمدحه فيها ويتزلف اليه ، حتى ليقول [1] :

يا أمير المؤمنين المرجى قد أقر الله فيك العيونا
ودعينا نحو بيعة حق فسعينا نحوها مسرعينا
قر فى كفك خاتم ملك لك صاغته الخلافة حينا

ويمكن أن نسمى هذه الفترة من حياته بأيام التوجس

---

(١) يرى عبد العزيز سيد الأهل فى كتابه عبد الله بن المعتز ص ١١٣ أنه هنأه بقصيدته التى يقول فيها :

أما ترى ملك بنى هاشم عاد عزيزا بعد ما ذللا

ومطلعها فيما ورد فى ديوانه وفى أوراق الصولى :

يا راميا لم يخط لى مقتلا خذ من فؤادى سهمك الأولا

والقلق ، وفيها لا يقر نفسه بأنه صار مأجورا وقد انحط الى ما يناقض مستوى صدر أيامه .

ويقضي شهورا قارئا باحثا ، وقد ترهل بعض الشيء وزالت عنه أناقته . ثم هو يحاول أن يتصل بأصدقائه القدماء ، ويرد على مكاتبات البعيدين منهم ولا سيما على ابن مهدى الكسروى الذى ارتحل الى أصبهان . ومن ناحية أخرى عمل على أن يتقرب من أصدقاء المعتضد وبخاصة الصولى الشطرنجي ومؤنس الخادم وأحمد بن حمدون خال ابن بسام الشاعر الذى لم يسلم أحد من لسانه (١) .

وكانت بنت الكراعة هى المرأة الوحيدة التى دأبت على التردد عليه ويجفوها ، فى حين لم تسأل عنه شريرة الا بعد أن أرسل اليها يقول :

صدت شرير فلم تكلمنى كم ذا التجنى على المحب كم
تعاونت فى دمى محاسنها لكن خذوا سحر عينها بدمى
دعت خلاخيلها ذوائبها فجئن من رأسها الى القدم

ومن قبل التمس دارها التى أثثها لها ، وهيأ لها فيها كل أسباب الاستقرار ، وقد سجل زيارته لها فى بيتين رقيقين هما :

---

(١) يروى أن أباه ابتنى لنفسه دارا فقال يهجوه :

شدت دارا خلتها مكرمة سلط الله عليها الغرقا
وأرانيك صريعا وسطها وأرانيها صعيدا زلقا

هاتيـــك دار شرير لا يغـيرها
كرّ الخطوب وطول العهد والقدم
تحـرج الدهـــر لا يمحو معالمها
وان تغنى بها الارواح والـــديم

وكان هو يعلم عبث مثل هاتيك المحاولات سلفا ، ويرى أن تسقط السمع عنها لا يزيده الا عذابا ، وانما حسبه أن يرتاد حانات بغداد يرقب الشاربين ويشرب معهم كى يكتب فى المســاء ما يريد أن يكتب ، ولينسى ما يريد أن ينساه .

وأما نشوان فقد أعاد اليه بعض ما كان يرجوه ، واستطاع بصوته وغنائه أن يخفف من آلامه شيئا . ولما جدر جزع عليه جزعا شديدا ، وتحدث لصديقه جعفر بن قدامة بهواجسه ، فكان هذا يطمئنه عـلى سلامته . فلما عوفى — دون أن يؤثر الجدرى فى وجهه أثرا — لم تكد الدنيا تسع غبطته حتى أرسل لجعفر يقول له « قد عوفى نشوان بعدك وخرج أحسن مما كان » .

وقدم جعفر يشاركه سروره ، فأخبره بأنه تعهده بالعـلاج الدقيق ، وقال فى برئه بيتين تطوعت زرياب بالغناء فيهما رملا ظريفا :

لى قمر جدر لما اســـتوى فزاده حسنا فزادت همـــوم
أظنه غنّى لشمس الضـحى فنقطته طربا بالنجـــــوم

وقد راح ينشد شعره ذاك انشــادا حسنا ، وكان صـــوته لا يزال عميقا آسرا . فلما فرغ ، هتف جعفر صائحا وقد ملكه الاعجاب :

— أحسنت والله أيها الأمير !

ولكن ابن المعتز يهز رأسه بعنف ، ثم يقول :

— لو سمعته من زرياب لكنت أشد استحسانا له !

وأشار ، فخرجت زرياب فغنت فى الرمل أحسن غناء ، ثم راحا يشربان عليه عامة يومهما [1] .

ويمكن أن نقول ان هذا الأمير — على الرغم من انحداره — سيظل حتى نهاية سنواته اللاهى المتهتك وان اختلف اللهو والتهتك . لكنه فيما يظهر فقد فى أعماقه تلك الثقة الظافرة التى يستمدها المرء عادة من حرارة الشباب . ولأول مرة يحس بأنه أصبح هو الطالب وقد كان مطلوبا ، وبأنه يريد فعلا أن يوطد علاقاته بمن حوله .

فاذا استخلف مؤنس الخادم على شرطة بغداد محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يرسل له مستصوبا رأيه ومؤيدا اياه ، ويهنىء عبيد الله بشعره من ناحية أخرى . ويعمل على أن يستزيره محمد ، وحين يرى أنه لم يزره الا مرة واحدة يكتب اليه يقول :

قد جئتنا مرة ولم تعد ولم تزر بعدها ولم تعد

واذا قدم الحسين بن عبد الله بن الجصاص الجوهرى رسولا من خمارويه الى المعتضد ، يرحب به أيما ترحيب ويفتح له بيته حتى ليثير حوله القيل والقال ويلهج به ابن بسام فى مجالسه .

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨١

ولا تأتيه رسالة من الكسروى — وقد كان على علاقة طيبة ببدر خادم المعتضد — فيرسل له من شعره قائلا :

وما نازح بالصـــين أدنى محله
يقصر عنـــه كل ماش وطـــائر
محا اليأس منـــه كل ذكر فلم تكد
تصـــوره للقلب أيدى الخـــواطر
بأبعد عندى من أناس وان دنـــوا
وما البعد الا مثل طول التهاجــر
ويشغل عنى القصف والراح بعضهم
مباكرها أو ممســـــــيا كمباكر
اذا طار بين العـــود والناى طيره
فليس لاخـــــوان الصفاء بذاكر

أجل أصبح طالبا ، والطلعة التى كانت فتنة بغداد وسر من رأى صـــار شغلها الشاغل اليـــوم أن تكتب وتراســـل وتصافح من يرى فى قربهم نفعا ، الى أن سئمت عامة القلوب من مسلكه . ونعلم فى آخر الأمر أنه عاهد المعتضد على أن يكون يده عـــلى الأعداء ، كما أن هناك ما يدل على أن هذا الخليفة طلب اليه أن يكون أكثر اتزانا وصبرا وعملا على توطيد ملك بنى العباس .

(١) الأبيات فى معجم الأدباء ٥ : ٤٢٩

الباب الثانى

رجل العلم والسياسة

الفصل الأول

طبقات الشعراء

ابن المعتز الآن فى الثالثة والثلاثين ، والسنة ثمانون ومائتان وقد مات المخلوع جعفر بن المعتمد الذى لقب يوما بالمفوّض . فتصوّر أنه اقترب من عرش أبيه خطوة ، مع أنه كان للمعتضد ابن اسمه على أبو محمد وولد سنة أربع وستين ومائتين [1] .

وكأن أبا القاسم كان يعرف ما يدور بخلده ، فتحايل عليه بالصبر والحزم خشية أن تحدثه نفسه بشر لا يرضاه له لأنه يحبه . وقد استطاع حتى سنة ٢٨٨ — أى الى أن مات — أن يمسك بزمامه ويكبحه وينظم أموره على نحو مرض كما نظم أمور الدولة تماما . وبوجوده فى منصب الوزارة خرج ابن المعتز الى النور مرة أخرى ، وأمسى يذكرنا بعض الشىء بالأمير الرجيم . ومن ورائه الوزير الطيب يدافع عنه كثيرا ، ويضطر هو الى الاعتراف بفضله ويشيد به وبابنه القاسم — على غلظته — بشعر فخم .

---

(١) العقد الفريد ٥ : ١٢٦ (ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦)

ومن المؤكد أن ابن المعتز كان يشغل بغداد اذ ذاك بضرب جديد من الحياة ، ففى حين كان رجال البلاط — وهم بدر المعتضدى ونصر القشورى ومؤنس الخادم وخفيف السمرقندى وصالح الأمين وموسى بن بغا وسوسن التركى — يحصون عليه خطواته متوجسين وهو فى صحبة أمير المؤمنين غازيا حينا (١) أو منادما حينا آخر ، يكون هو خلسة مشغولا بالخمر والغناء وظاهرا بالتأليف والانشاء . وقد أشاع فى صحبه ، وأخبر أساتذته الذين كان معظمهم على قيد الحياة كالدمشقى والبلاذرى والمبرد وثعلب أنه يريد أن يخالفهم فى تعصبهم للقديم وفى أن يكون كالناس اهتماما بأشعار المحدثين وأخبارهم فيضع كتابا فى ذلك لم يسبقه الى مثله — على نحو ما — سوى ابن قتيبه المتوفى سنة ٢٧٦ باسم « الشعر والشعراء » (٢) .

---

(١) فى سنة ٢٨١ خرج معه الى ماردين ، وذكر فى شعره أنه اشترك فى أكثر من معركة ، ومما قاله فأعجب به النقاد :

وجررت الجيش أسحبه لعدو كان من شانى

ومثله قوله الذى يدل على تيه كبير :

أنا جيش اذا غدوت وحيدا ووحيد فى الجحفل الجرار

(٢) هذا هو الشائع وأما « طبقات فحول الشعراء » الذى وضعه ابن سلام قبله فمقصور على القديم تماما ككتابى أبى عبيدة معمر بن المثنى ودعبل فى الشعر والشعراء . ولكن الأخبار تؤكد أن أبا دعامة العبسى وضع كتابا تحدث فيه عن المحدثين على ما يروى ياقوت ، وكذلك فعل كل من احمد بن أبى طاهر الذى مات سنة ٢٨٠ ويحيى بن على آل المنجم ومحمد بن داود الجراح .

وفى الوقت نفسه كان يعيد نسخ كتابيه المشهورين « فصول التماثيل » الذى أكلته الأرضة وكتاب « البديع » الذى كان قد انتهى منه منذ خمس سنوات أو ست تقريبا ولم يقرأه لأحد .

وعندما سمع بالنبأ أبو بكر محمد بن يحيى الصولى خف اليه تاركا الشطرنج الذى برع فيه ، فوجده عاكفا على أوراقه وقد أعاد اصلاح داره ومكتبته ، ومد الستور المعصفرة على الأبواب والنوافذ وفرش الأرض بالبسط المزركشة . فلم يفته ذلك ، وقال بعد أن استقر فى مقعده :

— لعل الأمير اليوم فى خير حال هادىء البال .

فقال ابن المعتز مبادرا :

— الفضل لله تعالى وللامام ووزيره الهمام .

قال الصولى كالمتزلف عارضا للوزير وهو يعلم مكانته عنده :

— والله لقد شغل نفسه بأخلاق المملكة والنظر فى العلوفة والحطيطة من أرزاق الناس وقد وردوا فيما يعلم الله على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد .

فقال ابن المعتز :

— هذا عمله ، يعرف طساسيج السواد وأيها أجل ، وكم رستاقا فى كل طسوج ، وماذا فى بيت مال الخاصة وبيت مال العامة ، وهو بعد يستعين بابنى الفرات أبى العباس أحمد بن محمد وأبى الحسن على أخيه .

قال أبو بكر الصولى :

— والله لا أدرى ماذا أقول ؟ فهو وان يكن رجل سياسة ودهاء فانه بعيد العهد بالعمل ، ولعلك مخبره بوجوه الأمــوال وضمان السقى وعندك من علم ذاك ما يحتاج اليهما فيه فيقدر على الضبط ويمنع الأيدى من الظلم .

وأطرق ابن المعتز قليلا وقد توجس ، فهل لذلك أتى هــذا الرجل ؟ أفيريد أن يجتمع عليه ليفسد بينه وبين الامام ؟ لماذا ؟ أم هو حقا يعرف عنده وجها يقدر على أن يعين به ؟ ومع ذلك فلم يكن بالذى يريد أن يظهر مهتما بشيء من هذا ، ومن ثم قال له فى أناة كالمتسائل :

— وابنه القاسم .. ألا يشتغل له ؟ انه والله ما يجب اضاعة مثــله !

أجاب الصولى :

— بل استكتبه لبدر المعتضدى فمنع أهل سقى الفرات من مواطأة العمال والمهندسين على ظلمهم وكتمان ما عندهم . انه أكثر القوم تصحيحا للمال على ما تقرر من أوقاته مستقبلا به فى المياومة يومه وفى المشاهرة غده .

قال ابن المعتز :

— نعم الرجل يا أبا بكر ، وان يكن الحديث عنه فيما أرى هذه الساعة كالحديث عن أصحاب الدواوين ومشايخ العلماء وقضاة الحضرة لا يغنى فيما أنا فيه !

وكأنما هيأ الأمير للصولى ما يريد أو فوق ما يريد ، فانبرى صــائحا :

— وفيم أنت أعزك الله أيها الأمير ؟

أجاب ابن المعتز :

— كتاب فى طبقات الشعراء الذين مدحوا الخلفاء والوزراء والأمراء من بنى العباس ليكون مذكورا عند الناس [1] .

قال الصولى متسائلا :

— كلهم ؟

أجاب :

— سوى من تخطئنى اياه ذاكرتى ، وأما غيرهم فمذكورون ان شاء الله من سفل منهم ومن ارتفع منذ ابتدأت دولتنا والى اليوم ، حتى لأذكر من شعراء يومنا الشيرازى محمد بن عروس [2] .

وعاد الصولى يقول :

---

(١) فى ديوان أبى نواس رواية حمزة الأصفهانى صفحة ١٠ ط . اسكندر آصاف بالقاهرة سنة ١٨٩٨ فقرة صغيرة نقلها من هذا الكتاب وان يكن سماه « الاختيار من شعر المحدثين » ولم يفعل ذلك سواه . وللكتاب مختصر صنعه أبو البركات المبارك ابن أحمد الاربلى المتوفى سنة ٦٣٧ بدأه بقوله « هذه أوراق أتيت فيها بما اخترته من كتاب طبقات الشعراء لأبى العباس عبد الله بن المعتز » .

(٢) فى فوات الوفيات وتاريخ بغداد أنه مات سنة ٢٨٠ وهذا فى حد ذاته دليل على أن ابن المعتز شرع عام ٢٨٠ فى تأليف كتاب الطبقات ، مع أن بعض الباحثين على ما سجل الأستاذ عبد الستار أحمد فراج يرون غير ذلك . وجاء خبر هذا الشاعر قبل أخبار الجوارى الشواعر فى نهاية الكتاب (راجع صفحة ٤١٩ من الكتاب الذى طبعته فى سلسلة الذخائر دار المعارف) .

— والبحترى ؟

قال ابن المعتز :

— بدأت يا أبا بكر بابن هرمة وسأنتهى بالشيرازى وبينهما الطائيان ولعلك جئتنى لواحد منهما .

وفرك الصولى كفيه وقد داخله شيء من الاطمئنان ، ذلك أنه كان قد ترامى اليه أن الأمير يتحامل على أبى تمام وينكر فضله وهو — أى الصولى — من محبيه ويخشى لو أنه غمط حقه أو تعرض له بغير ما يحتشد له فى كتابه الذى يزمع اخراجه عنه قريبا . ولما سمع ما سمع لم يعد لديه أدنى شك فى حسن نية الأمير ، غير أنه لم يكن يرضيه أن يكشف عن دخيلته على ذلك النحو ومن ثم عاد الى دورانه من جديد مستمسكا بما يعرف عن علاقات الأمير بسائر شعراء عصره فقال :

— ولعلك ذاكر ابن بسام وابن الرومى ، فكلاهما شاعر مجيد .

وبوغت ابن المعتز ، غير أنه تماسك ثم قال بهدوء وترفع :

— لست أدرى بم تسفر عنه الأيام يا أبا بكر ؟ غير أنى أحس أن الأول متقطع الأنفاس مع فصاحته وكثيرا ما تبجح بشعر ينحله الثانى خشية وتقية ، ألا تذكر ؟ والثانى شعوبى لئيم هتك أبى ولعنه وهو ميت ، فماذا تريدنى أقول ، والنفس بالسوء أمارة وقؤول ؟ والله لمصعب الموسوس عندى أو جحشويه

أبرّ منهما وأخلق بالذكر ، وقد جمعت أخبارهما فى ورقاتى وسجلت شعرهما وفيه كما يجب أن تعلم جيد كثير [1] .

قال الصولى :

— ولو علم بنيتك أحمد بن حمدون خال ابن بسام وهو نديم الامام لنقض عليك وكاد لك ، وهذا ما أريد أن تنجو منه . ووالله لو كان فى هذه المسألة مجال للتخيير لكان الواجب الأخذ بالأفضل وترك الصغار مما لا يلحق بك ضررا ، وحتى اذا رد أمر الناس الى اعتماد أفعال السلف لقلت انظر ماذا كان عمك العباس أو علىّ الامام يفعل فى مثل موضعك فافعل مثله والصفح من شيم الكرام .

وهنا قال ابن المعتز وقد ساءه كلام الصولى بعض السوء :

— حسبك أبابكر فانى لو نظرت هذه النظرة لكنت فى غير هذا المقام ، وانما أنت ذكرت حاجة لا فصلها الله بالنجاح ولا يسر بابها لانفتاح !

قال الصولى :

— الأمر لك أيها الأمير وما جئت والله لهذا وكان خيرا منه لو تذاكرنا الشعر والأدب الا اذا رأيت أن أبرح الآن لأتركك الى كتابك الجديد .

---

(١) ورد ذكر مصعب فى صفحة ٣٨٦ من الكتاب المطبوع وفيه نفى عن ابن بسام بعض أبيات يرى أن مصعبا قائلها ، وأما جحشويه فذكر فى صفحة ٣٨٨ وذكر أنه كان من ألوط الناس مع أنه ينسب نفسه الى البغاء .

ونهض ابن المعتز يأمر بالشراب ، ثم عاد حتى اقترب من الصولى واضعا يده على كتفه وهو يقول :

— سأظفرك اليوم أبا بكر بما يمكن أن تضيفه الى أوراقك . فلقد جاءنى أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فاحتبسته ، فأقام عندى فجرى ذكر أبى تمام فلم يوفه حقه . وكان فى المجلس — اكتب يا رجل — رجل من الكتاب نعمانى ما رأيت أحــدا أحفظ لشعر الطائى منه فقال له « يا أبا العباس ضع فى نفسك من شئت من الشعراء ثم انظر ، أيحسن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام لأبى المغيث موسى بن ابراهيم الرافقى يعتذر اليه :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعــدى
ومحت كما محت وشــائع من برد

وأنجدتم من بعـــد اتهام داركم
فيادمع أنجدنى عــلى ساكنى نجد

ثم مر فيها حتى بلغ الى قوله فى الاعتذار :

أتانى مــع الركبان ظن ظننتـــه
لففت له رأسى حيـــاء من المجد

لقد نكب الغدر الوفــاء بساحتى
اذن ، وسرحت الذم فى مسرح الحمد

جحدت اذن كم من يد لك شاكلت
يد القرب أعدت مستهاما على البعد

ومن زمن ألبســـــــتنيه كأنه
اذا ذكرت أيامـــه زمن الورد

وكيف وما أخللت بعــدك بالحجى
وأنت فلم تخلل بمكرمة بعـــدى
أسربل هجــر القول من لو هجوته
اذن لهجـــانى عنه معروفه عندى
كريم متى أمدحــه أمدحه والورى
معى ، ومتى ما لمته لمتــه وحــدى
فان يك جرم عنــه أو تك هفــوة
على خطأ منى فعذرى على عمـــد

فقال أبو العباس محمد بن يزيد : ما سمعت أحسن من هذا قط ، ما يهضم هذا الرجل حقه الا أحد رجلين ؛ اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتبجر شعره ولم يسمعه » .

وتوقف الأمير قليلا ناظرا فى صفحة أبى بكر بين يديه ، ثم استطرد قائلا :

— وما أدرى هل يموت وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله ، مقر بفضل أبى تمام واحسانه . أما قوله « أسربل هجر القول .. » فهو منقول من شعر حسن لا يفضله شعر [1] .

قال الصولى :

— الحق أنه كان يتصرف فيما يأخذ ، فهل ذكرت ذلك فى أوراقك أعزك الله .

قال ابن المعتز وقد أخرج من بين الكاغد صفحة نشرها وراح ينظر فيها :

(١) راجع أخبار أبى تمام للصولى ٢٠٢ وما بعدها .

— لو كنت استقصيت كل أخباره لما أوفيت على النهاية ، بل لو استقصيت ذكر أوائل قصائده الجياد التى هى عيــون شعره لشغلنا قطعة ضخمة من كتابنا وان لم نذكر منها الا مصراعا ، لأن الرجل كثير الشعر جدا يقال ان له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة . وأكثر ما له جيد والردىء الذى له انما هو شىء يستغلق لفظه فقط ، فأما أن يكون فى شعره شىء يخلو من المعانى اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا . وقد أنصف البحترى لما سئل عنه وعن نفسه فقال « جيده خير من جيدى وردئى خير من ردئه » (١) لا تكتب هذا يا أبا بكر ، فعندى خير منه ان شئت جئتنى فى يوم آخر فحدثتك به !

وانه ليقول ذلك ، اذا جعفر بن قدامة يدخــل عليــه وهــو مقطب ويهمس فى أذنه بشىء ثم ينفلت ، فيهب بغتة وقد اتسعت حدقتاه وانقلبت سحنته . ثم يغادر داره شاقا طريقه مسرعا فوق الشوارع المتربة التى تقطعها البراذين والجمال والحمير والناس ، وبين البيوت المتراصة ذات القباب المرفوعة فوق العمد الدقيقة والزجاج الملون على دائر الأبواب والقمريات . ومن خلفه الصولى يحاول ألا يلحق به لأن البريق الذى رآه ينبعث من عينيه كان يخيفه الى حد بعيد .

فماذا حدث ؟

وبم أخبره هذا الصديق التعس ؟

---

(١) النص منقول بتمامه من طبقات الشعراء ٢٨٦ .

الفصل الثانى

امجامع فى الغناء

لقد تقدم ابن البقال المغنى يطلب شريرة .. ملهمته وحبيبته والانسان الذى يظل يهفو اليه برغم علته التى جرب فيها — ولا يزال يجرب — كل حيل الحكماء والمنجمين والسودان .

ان مجنون بنى عامر وقيس لبنى ومن قبلهما مضاض الجرهمى والمرقش الأكبر لتهون عاطفتهم — فى نظره — اذا قورنوا به فيما اعتراه . وهذا بالضبط هو موضوع المأساة الأبدية فى حياة كل أديب لا يحتكم الى المنطق كى لا يضحى بأهم ما يربطه بالحياة . حتى اذا انغمس فى غير ما يريد ، صار همه أن يخلع عليه شحوبه وأساه وفجيعته .

أترى كتب عليه أن يشقى بهذا الضرب العنيف من الحرمان ؟

هو يريدها ، وهى من غير شك تريده . ولكن ما أشبهه بالحمل يريد أن يصرع السبع بضربة واحدة من حافره !

ولئن كان من الظلم أن يعلقها به بلا جدوى — وهى فى ذلك تختلف عن بنت الكراعة التى تريد أن تملكه برغم كل شىء — فمن الظلم أيضا أن تتركه هى الى واحد كابن البقال .. الفنان

البائس الذى لا يملك ربع ما يملكه هو من صنعة وبراعة وحذق !
لقد اجتمع معه عند عمه أبى عيسى بن المتوكل وناقشه ، كما ناقشه عمه العجوز الفنان ، ولم يثبت لهما . بل ان عمه استطاع أن يجمع له صنعة لا تقل عن ثلاثمائة صوت منها الجيد الصنعة ومنها المتوسط ، ولم يؤثر عنه هو نصف هذا العدد .

فكيف أدار رأسها وأسرها ؟

أم هى الحظوظ شاءت أن يكون ابن البقال غريمه ، وهو الذى كان غريم كل رجل ؟

ان هذا الأمير الذى شاء أن يطوى آلام قلبه يتحداه غر ليكشف عنها ، وقد كان بوده أن يعيش الى النهاية مع علته تحرمه كل شىء الا الذكرى واجترار لحظات الشهوة الماضية .

وكما ذهب الى دارها عاد وقد أدرك شيئا جديدا . ان الشاعر والرجل ضدان !

الشاعر يملكه الخيال ويملك الخيال ، والرجل يعرف الطريق الصحيح الى الهدف ، وكان ابن البقال فى هذه الفترة بالذات قد اقترب من الهدف . وهكذا تتسع الهوة بينه وبين شريره ، وبينه وبين النساء بعامة ، ثم هكذا يمكن لأى انسان أن يتفوق عليه .

ومن يدرى فلعل فى غد من يبزه فيما يجيد من فنون . ولعل أن يكون ابن بسام واحدا من هؤلاء . ولعل النميرى الذى لعب دورا فى هذه الكارثة — شاء أم لم يشأ — يقول فى يوم قادم :

— لقد نصحناه ولكنه شاء أن يبتلع الحياة .

مفارقة عجيبة !

السوقة والطفيليون ينجحون ويصلون ، وهو ومن فى مثل حالته عاجزون الا عن الكلمة ، وعلى هذه أيضا تتصارع القوى .

ولكن ..

ولكنه يستطيع أن يبهر شريرة وصاحبها قبل أن يعقدا عقدهما . وقد شرع من توّه فى استخراج أوراقه وجلس يكتب تاركا طبقات الشعراء جانبا الى حين . وكان من يراه فى جلسته والقلم بين يديه والكاغد أمامه ليحس تلك المرارة التى تدفعه الى التدقيق والاحاطة بقوانين الموسيقى وتاريخ الألحان .

كان يكتب عن اللحن فينسبه الى صاحبه ، وكان يقدم فكرته هو مازجا بين الأنغام والأصوات فى براعة وحذق . واعتاد بين الحين والحين أن يرجع الى كتاب صديقه الشاعر المفضل بن سلمة « العدد والملاهى » والى رسائل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكتابات لقوم من بنى حمدون أقرباء ابن بسام .

ولقد كانت لديه صورة من كتاب بعث به الى ابن حمدون نفسه فرجع اليه ، ودعم ما به من رأى يقرر فى جرأة أن من المستحسن أن يغيّر الانسان بعض النغم القديم ويعدل به الى ما يحسن فى حلقه ومذهبه . ثم أضاف أن أى صوت يغنى بلحنين يجب أن يسقط أحدهما ، وفى الغالب يشهر الدون . ألم يلحن كل من اسحاق بن ابراهيم الموصلى والخليفة الواثق قول الاعرابى :

لقد بخلت حتى لو انى سـألتها
قذى العين من سافى التراب لضنت

فشاع لحن الواثق علـى قصوره ، ولم يردد لحن اسحاق الا العجائز أو من كثرت روايته ؟

ولم ينس هيئة السماع وأقسامه ، بل حرص على أن يبسط كل ما أثار دهشة أصحابه من تاريخ ووصف للمجالس وارشادات الى أدوات الطرب ولمحات عن عريب المأمونية والموصليين وأولاد الخلفاء المغنين ومن لهم صنعة فى الأصوات .

كل ذلك وهو يبكى ويشرب ، ويلعن ابن البقال ويتوسل الى الضائع من شبابه . ثم يحدث فى ذلك الوقت — والمصائب لا تأتى فرادى — أن يغضب عليه نشوان فى أثناء امتحان صوته فيولى نافرا ، وعبثا حاول هو أن يترضاه . وتطول الفرقة حتى يأتى جعفر بن قدامة ، فلا يكاد يسأله عن كتابه حتى يقول :

— أى كتاب تعنى والأمر على ما ترى من سوء ؟ أفأظل مطلوبا من الدهر دائما فى حاجة الى مال أو الى أمان أو الى ساعة رضى من نشوان ؟

بأبى أنت قـد تمـا ... ديت فى الهـجر والغضب
واصطبارى عـلى صـدو ... دك يومـا من العجب
ليس لى ان فقـدت وجـ ... ـهك فى العيش من أرب
رحم الله من أعـا ... ن عـلى الصلح واحتسب

فقال جعفر بن قدامة :

— ومن هو يا أميرى فأعين على صلحه وأحتسب ؟

أجاب ابن المعتز :

— نشوان !

فلم يكن الا قليل حتى هب الى الغلام ، ولم يزل يداريه ويرفق به حتى ترضاه . فكم فرح الأمير ، وكم غنى وهو حسن الصوت جدا ، وكم راح يقرأ مما كتب حتى أقبلت هزار فغنت فى ذلك الشعر رملا عجيبا (١) .

وفى مختتم يومهم ينفض المجلس ، ولكن قبل أن يطوى الطريق ابن قدامة سأل :

— ولكن ما اسم الكتاب الذى أمتعتنا ببعض ما فيه أيها الأمـــير ؟

قال ابن المعتز :

— الجامع فى الغناء .

ودخل الى حجرته وهو يرفع صوته بلحن هزار ، وانه ليعيد رسائله الى صندوقها يعثر برقعة من عبيد الله بن عبد الله وكان قد بعث بها اليه عقب قراءته رسالته لابن حمدون وفيها يقول :

« قرأت أيدك الله الرسالة الفاضلة البارعة الموفقة . فأنا والله أقرؤها الى آخرها ثم أعود الى أولها مبتهجا ، وأتأمل وأدعو مبتهلا وعين الله التى لا تنام عليك وعلى نعمه عندك ، فانها علم الله النعمة المعدومة المثل ، ولقد تمثلت وأنا أكرر نظرى فيها قول القائل فى سيدنا وابن سيدنا عبد الله بن العباس :

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨١ ، ٢٨٢

كفى وشفى ما فى النفوس ولم يدع
لذى اربة فى القول جدا ولا هزلا

ولا والله ما رأيت جدا فى هزل ، ولا هزلا فى جد يشبه هذا الكلام فى بلاغته وفصاحته وبيانه وانارة برهانه وجزالة ألفاظه . ولقد خيل الىّ ان لسان جدّك العباس عليه السلام ينقسم على أجزائه ، فلك أعزك الله نصفها والنصف الآخر مقسوم بين أبى جعفر المنصور والمأمون رحمة الله عليهما . ولو أن هذه الرسالة جبهت الابراهيمين — ابراهيم بن المهدى وابراهيم الموصلى — وابنه اسحاق وهم مجتمعون لبهت منهم الناظر وأخرس الناطق ، ولأقروا لك بالفضل فى السبق وظهور حجة الصدق ، ثم كان قولك لهم فرقا بين الحق والباطل والخطأ والصواب . ووالله ما تأخذ فى فن من الفنون الا برزت فيه تبريز الجواد الرائع ، المغبّر فى وجه كل حصان تابع . عضد الله الشرف ببقائك ، وأحيا الأدب بحياتك ، وجمل الدنيا وأهلها بطول عمرك » [1] .

(1) الأغانى ١٠ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

الفصل الثالث

مزاحم جديد

وطلبه الامام على غير انتظار وفى وقت غير مناسب — فقد كان الشهر رمضان — فأعد له قصيدة وقصد الى قصر الحسنى على بغلته المطهمة ، فاذا جمهور الجند فى الميدان الصغير الذى فيه دار الأزج والأربعينى والمقاصير والسجون . وجلس المعتضد بوجهه الأسمر ولحيته الطويلة جلسة الأمان ومن حوله الأمراء وأبو القاسم وبدر وابنا الفرات والقضاة والقواد . ورأى من خلفه ابنه أبا محمد على ، أسمر مثله ولكنه ربعة عريض اللحية أسودها .

وحالما دخل أغلقت أبواب البستان فى الصحن وسعى القواد والغلمان جيئة وذهوبا ، فى حين جلس كتاب العطاء — ويعرف هو فيهم ابنى الجراح — أسفل لا يظهرون للخليفة اذا مد عينيه . وانحنى للامام وقبل أطراف أصابعه ثم قال بصوته العميق :

— السمع والطاعة لمولانا الامام .

فشد المعتضد قامته النحيلة ، وقال :

— خذ مكانك يا أبا العباس مع أمراء بيتنا ، فقد مَنَّ الله علينا بابن ثان سميته أبا الفضل جعفرا [1] ونريد أن نحتفل به ، واليوم والى أن نفطر نشترك فيما يخفف حرّ العطش وعضة الجـوع .

ولم يدر ابن المعتز كيف ذهب الى حيث أعِدّ مقعـده ، فقد شغله المولود ذلك المزاحم الجديد . كذلك لم يدر بماذا أجاب عن سؤالات الأمراء ، الا أنه كان يشير لهم أن يشهدوا العرض حتى كأنه يريد ألا يشاركه أحد فى أفكاره . وكان القائد قد تقدم ومعه جريدة بأسماء أصحابه وحساب أرزاقهم ، فأخذها عامل منه وصعد بها الى المعتضد فأخذها منه وسلمها الى وزيره فرفع صوته مناديا صاحب أول اسم فيها .

وانبرى على التو شاب لم يحاول ابن المعتز أن يتفرس فيه ، فتوسط الميدان على برجاسة [2] ، ثم تتابع الرجال . وكانت العادة أن يمتحنوا فيما امتحن فيه الشاب الأول « فان كان الواحد منهم يرمى رميا جيدا وهو متمكن من نفسه ومستقر فى سرجه ومصيب أو مقارب فى رميه علّم — أى الخليفة — على اسمه (جـ) وهى علامة الجيد ، ومن كان دون ذلك عَلّم على اسمه (طـ) وهى علامة المتوسط ، ومن كان متخلفا لا يحسن أن يركب فرسـه

(١) هو المقتدر الذى ولى العرش سنة ٢٩٥ وكان ولد لثمانٍ بقين من شهر رمضان سنة ٢٨٢ على ما يروى ابن عبد ربه (العقد الفريد ٥ : ١٢٧) .

(٢) فى الأصل البرجاص وهو نوع من السرج المحشوة توضع على ظهور الدواب المقرونة المقودة بأرسنتها .

أو يرمى هدفه عَلَّم على اسمه (د) وهى علامة الدون ، ثم يحمل بعض العرض والامتحان الى كتاب الجيش ليتأملوا حليته ويقابلوا بها ما عندهم من صفته لئلا يكون دخيلا أو بديلا ، فاذا تكامل عرض أصحاب القائد رُفعت جريدته التى فيها العلامات بخط المعتضد بالله الى عبيد الله بن سليمان ليدفعها من وقتها الى الكاتب ، ويميز ما فيها من أرباب العلامات ويفرد لكل صنف منهم جريدة » [1] .

كان ابن المعتز يعلم ذلك ، ويعلم أن المتوسطين سيضمون الى بدر ليكونوا فى شحنة [2] طريق خراسان والأنبار وراذان ودقوقا وخاينجار حيث يكونون عسكر الخدمة . وأما الدون فيأمر الوزير بأن يبعثوا الى أعمال الخراج ، للاستحثاث على حمل الأموال . والممتازون لهم الصدارة ، وقد يستخلصون لمواكب الخليفة أو ملازمة داره والدخول أوقات جلوسه والمقام بين يديه من أول النهار الى آخره .

شيء ممل حقا ..

ولكن هل يرضى المعتضد بأن يكون مصير ولديه كمصيره هو ومصير أخيه ؟

لا شأن لأمير المؤمنين بأصحاب الحقوق ، لأنه برغم ما يظهره من سطوة وبأس ضعيف أمام رجال البلاط . هل يقاومهم ؟ هؤلاء

(١) راجع هذا بالتفصيل فى « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » للصابى صفحة ١٣ ط . بيروت سنة ١٩٠٤

(٢) المقصود قوات الأمن فى الجهة .

بيض الوجوه أصحاب الأقبية البنفسجية وقلانس الخز ، ومنهم من ضيّع أباه وهو فى ريعان الشباب . ألم يقتله صالح بن وصيف التركى بعد حكم لم يستمر أكثر من أربع سنين وستة أشهر وخمسة عشر يوما [1] .

انه يحفظ التاريخ جيدا ، ولعل المعتضد يحفظه أيضا لأنه شيء ينبغى ألا ينسى .

وتغيّر المنظر ..

هذا هو الجيش الذى يرهب به الامام أعداءه ، وفيهم أصحاب النوبة من الرجالة ومن برسمهم من البوابين ، والمماليك الناصرية والبغائية والمرتزقة بزى الشرط . ثم أهل السجون — وفيهم البرىء — يقاتلون عراة كما هم الآن يمرون ، وفى أوساطهم التبابين والمآزر [2] وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ وورقا من الخوص قد قيرت وحشيت بالرمل .

يا لأبهة الخلافة !

على كل عشرة جنود عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . وهكذا ، وكل له درجته — وقد جعل الله الناس درجات — ليعرف الواحد ماذا يقول وكيف يتحرك ومتى تفتح الأبواب أو توصد فى

(١) العقدة الفريدة ٥ : ١٢٤

(٢) التبابين جمع تبان وهى سراويل صغيرة تستر العورة فقط ، والمآزر جمع مئزر وهو الملحفة .

وجهه . ويوم تطبق الوحدة عليه سيبكى ما كان له ، الا اياه فلن يجد ما يبكى عليه ، الا اذا كان القلب فى طاقته أن يحمل الذكرى الحزينة حتى ساعة البكاء .

والموكب يتتابع وكل مخلوق فيه — حتى الحمير — له رزقه المضمون وعلوفته وان اختلف الشهر طولا وقصرا . فهو أحيانا تسعون يوما ، وأحيانا مائة وعشرون ، ولا يكون ثلاثين يوما الا عند سبعة عشر صنفا من المرسومين بخدمة القصر والرسائل الخاصة والقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين والمنجمين والأنصار والشيعة [1] .

حتى الشيعة يطمئنون الى رزقهم .. هؤلاء الذين يخشاهم المعتضد ويتظاهر بحبهم ، انه هو لا يكرههم ولكنه يكره طمعهم فى عرش أبيه .. يعنى عرش عمه وأولاد عمه !

وبلغ ضجره مبلغه فراح — التماسا للتسلية — يدير فى ذهنه الأبيات التى أعدها للمعتضد . أتراه يضيف بيتا أو بيتين يهنئه فيهما بالمولود أو بالمزاحم الجديد ؟ وماذا يقول وليس فى ذهنه أى شىء يقال فى هذه المناسبة الا اذا كان يقصد به أن يسوء ؟ ولكن ما ينبغى هو أن لا يجعل لاعتبارات الخلافة بصدد ولاية العهد أن تثيره هذه الاثارة ، وبذلك يعيش كما يعيش هؤلاء الذين يمرون أمامه . ويرضى عنه رجال البلاط وخصيان القصر ، وترضى عنه جوارى الخليفة بحيث يضمن له المال والعقار .

---

(١) راجع تحفة الأمراء ١٥

واذا نحن أردنا أن نلخص وجهة نظره التى كونها قبل أن يقوم للافطار على مائدة المعتضد لاخترنا من كلامه ما قاله : الأمانى تعمى الأبصار والبصائر ، والحظ يأتى من لا يأتيه ، وربما طاب وعاء حشوه المتالف ، وأشقى الناس جسم تعب ونفس خائفة ودين يتثلم . ولئن كان البحر كثير الماء ، انه لبعيد المهوى . ومن شارك السلطان فى عز الدنيا قاربه فى ذل الآخرة ، كما أن أقرب الأشياء الى النار أسرعها احتراقا [1] .

---

(١) الأوراق ٢٨٧

الفصل الرابع

صريع الكأس

أصبحت الخمر ملاذه ، وعرف ذلك فيه الناس قاطبة . بل بدا كما لو كان مسوقا وراء شيطانها لا تعنيه مجريات الأمور ؛ فاشتداد شوكة القرامطة [1] ومنع الناس عما كانوا يعملون فى النيروز الفارسى [2] وزواج المعتضد بقطر الندى ابنة خمارويه وما ترتب عليه من نزولها بدار صاعد بن مخلد ثم نقلها الى الحسنى بعد اتخاذ اجراءات مشددة [3] وموت كل من البحترى

(١) فى تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٩ أن بدء ظهورهم كان بالكوفة سنة ٢٧٨

(٢) تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٠ وكان الناس فى هذا العيد يزينون دورهم ويصبون الماء ويرفعون النيران ، ولقد اضطر ابن المعتز فيما بعد أن ينشد فى سماجة هذا الاحتفال أشعارا منها :

اشرب غداة النيروز صافية … أيامها فى السرور ساعات
قد ظهر الجن فى النهار لنا … منهم صفوف ودستبندات
تميل فى رقصهم قدودهم … كما تثنت فى الريح سروات
وركب القبح فوق جسمهم … وفى سماجاتهم سماحات

(٣) أغلقت أبواب الدروب المؤدية الى دار صاعد على دجلة ، ومنع الناس من أن يفتحوا نوافذهم المطلة على تلك الدروب ، وكانت قطر الندى قد أحدرت مساء فى حراقة خاصة تحت حراسة دقيقة . أما صاعد المذكور ، فقد وزر للمعتمد قبل أبى الصقر اسماعيل بن بلبل .

وابن الرومى [1] فى الوقت الذى أبيح للناس فيه أن يهجوا معاوية وآله ثم أمروا بالكف حتى لا يتطاول العلوية .. نقول كل أولئك لم يكن ليصرفه عن الكأس والابريق ولا عن جمع صحبة الأشرار لمنادمته فى اباحة وفى هزء بأوضاع الجماعة .

بيد أن الجدير بالعجب فى هذا أنه كان يحرص على اتمام كتابيه الجامع والطبقات ، وكذلك راح يشغل نفسه باعادة تدبيج فصول التماثيل وتأليف غيره ، وكان ثمة أكثر من شيء فى هذه تربطه بأزمته المتشعبة .

ان ابن المعتز لا يريد أن يفرغ لأحزان حبه برغم ما اعتاد أن يلهج به كأن يقول :

قد جاءنا العيـــد يا معذبتى   لا تجعليه همـــــا وأحزانا
قومى فضحى بالهجر فيه لنا   وصـــيريه يا شر قـــــربانا

ولا يريد أيضا أن يعرف الاحساس المزعج بالمسئولية —وكان قد أعلن رضاءه بعطاء يومى قدره ثلاثة وثلاثون دينارا— وكذلك لم يشأ أن يحمل عبء التفكير فيما يفكر فيه عامة الناس كلا ..

انه يرفض أن يعيش الليالى المؤرقة التى لا يزور النوم فيها عينيه ، حتى اذا طلع النهار انقضت ساعاته فى سأم وملل .
لقد قرر أن يكون صانع مصيره ، ومن ثم كان ما خلفه

---

(١) كلاهما مات سنة ٢٨٣ وقيل ان البحترى قضى عام ٢٨٤

—وهو ديوان شعر واثنا عشر كتابا وكومة كبيرة من النثر الأنيق— يحوى ما يشف عن ارادة حديدية ، مع سخرية تحمل طابع الرجل الذى قدر له أن يفلسف الحرمان .

ان الذى جعل من ابن المعتز أديبا مشهورا ليس هو — على ما يعتقد الناس — الوصف الذى برع فيه فهو له مدح وهجاء ورثاء وعتاب رائع [1] ، وليس هو صوغ الألحان فمن قبله ومن بعده كبار من أصحاب الصنعة ، وليس هو ترسله وبلاغته وعرضه للبديع فقد سبقه ابن المقفع والجاحظ وفى عهده كتب ابن الفرات وابن الجراح والصولى .

ليس هذا ما جعل من ابن المعتز أديبا مشهورا — وكان الأدب اذ ذاك حرفة يتكسب بها — وانما الذى جعله كذلك هو ارادته . ولقد كان من الممكن أن يشغل بأى شىء آخر فى ظروفه تلك وظروف القصر الذى يتصل به عادة وكله أتراك لا يفهمون ما يقول ، الا أنه رفض وشفع رفضه بتثقيف عنيف كان من آثاره غلبة روح العالم عليه واستمداده العلم الاغريقى عن طريق أرسطو .

ثم ماذا تقول فى نظمة التاريخ ؟

---

(١) أفرد الصولى فى أوراقه بابا لمعاتبات الشاعر ، وفى صفحة ١١٣ من الكتاب نفسه يسجل رأى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وفيه يقول « هو أشعر قريش لأنه ليس فيهم من له مثل فنونه ، لأنه قال فى الخمر والطرد والغزل والمديح والهجاء والمذكر والمؤنث والمعاتبات والزهد والأوصاف والمراثى ، فأحسن فى جميعها . وهو حسن التشبيه ، مليح الألفاظ ، واسع الفكر » .

واذا أخذ بشربه الخمر نظم فى ذم الصبوح ، وهو الذى كتب « فصول التماثيل » يعرض فيه للتشبيهات التى أتت بها العرب فى الراح وما يتعلق بها .

ثم اذا عوتت بشأن أبى تمام كتب فيه رسالة قوامها النقد النزيه ، وقدم كتابه فى البديع مبوبا أبوابا لم يتعب فى التماس الشواهد لها .

ولا نذكر كتاب الطبقات ، لأنه جهد شاركه فيه غيره !

ولو قد أضفنا الى هذا المضايقات التى جابهته — وهى عادة معوق أكيد — وعكوفه على المرأة أولا ثم الخمر ثانية ، أمكن أن نرى كيف لعبت ارادته فيما شاء أن يكون . وأمكن أن تقول ان هذه الارادة ذاتها كانت المصنع التى جعلت من حياته القصيرة عملا فنيا علميا عجيبا . ولا نزعم فى هذه الحالة أنه كان يصور نفسه ، فتصوير النفس عنده — فيما يبدو — ليس الا مرآة ساذجة ، وانما كان يصور انطباعات هذه النفس وترديها فى شتى الحاجات وتصديها لمختلف التيارات .

وهنا تكمن عظمته ...

هو لم يقتصر على الوصف الواقعى ولا على الوصف الفنى ، ولكنه اهتم بالحالة كما يريد أن يراها غيره !

ان ما كان على أكبر الأدباء أن يجهدوا قرائحهم فى تصويره بدقة ، لم يكن عليه الا أن يخضعه لارادته وذوقه ليحقق منه

غايته [1] . وليختلف القوم بعد ذلك فى تفسيره وتقييمه ، أفلم يجدوا فيه حشدا من المواقف المثيرة ؟

ولقد يقال انه كان فاترا أحيانا ، ثم قد يقال انه تورط من أجل ذلك فى شيء من السخف ، فهل يمنع هذا وذاك من أن يتبوأ فى عصره مركز الصداره ؟

الحقيقة أن ابن المعتز كان مهيأ لهذا الصراع ولهذا التصدع ، وان تكن اللغة التى كتب بها تبدو متماسكة متآزرة التأليف . ومن هنا كان علينا أن نراه فى أشد حالات ضيقه جالسا الى وراقه أو الى أوراقه تماما كما يجلس الى ساقيه أو الى كئوسه ، منصرفا عن كل شيء ، جامعا بين الفكرة السامية والشهوة الدنية !

انه يبدو دائما جريئا مشوقا ..

ويأمر به المعتضد فلا يرعوى الا ريثما تخمد الفورة ثم يعود الى ما كان فيه ، ويطلب بيوت الخمر مؤثرا — فى هذه المرة — تلك الدساكر البعيدة المفعمة بالقصف والريبة والمبثوثة فى سواد بغداد . يرتادها فى غبش المساء أو قد يطرقها مع الخلعاء ليلا ،

(١) الى نحو هذا فطن الدكتور محمد نجيب البهبيتى ففى كتابه « تاريخ الشعر العربى » صفحة ٥١٠ ط • دار الكتب سنة ١٩٥٠ يقول : لا يكاد ينتهى عهـــد أبى تمام والبحترى حتى يكون هيكل الشعر العربى الضخم قد تم بناؤه واستكمل صورته وأداته ... حتى اذا جاءه ابن المعتز وجده تاما ثابتـــا قد شادته أجيال من العبقريات تمتد آجالها فى كبد الزمن وتغيب فى قلب الأبد العميق ، فلم يجد ما يزيده عليــــه الا بعض الحلى الأنيقة » وفى صفحة ٥١٧ من الكتاب نفسه يقول « فاذا جئنا الى عصر ابن المعتز وقعنا على التأثيرات الفردية وعلى نتاج العبقرية الخاصة » .

كما كان أبو نواس يطرق الأديرة والحوانيت المغلقة :

لو شــــئت زرنا عروس حانوت
بطيزناباذ أو قـــــــرى هيت
وشــــادن أقطع المـــــــلاحة فى
وجه من العاشـــــقين منحوت
يمج ابريقه المـــدام كما انقـــ
ـض شـــــــهاب فى اثر عفريت

ولقد تكون الليلة حالكة لا يطلع لها نجم ، وقد تكون ذات بدر كامل ، فهو لا يعنيه الا النسيان والتماس الراحة ، ومن ثم لا يحق للمفندين أن يأخذوه بشيء :

يا من يفندنى فى اللهـــو والطرب
دع ما تراه وخذ رأيى فحسبك بى
وقد يباكرنى الســـاقى فأشربها
راحا تريح من الأحـزان والكرب

وربما التقى بمن يلفته ويأسره .. كاعب حلوة أو عروس مزينة أو قائلة : متى يفنى هواه ؟ ليقول : اذا فنى الملاح ! وربما أنشد حتى لنحس فيه قلبا طليقا لا تثقله الهموم ، غير أن هـــذا كان لا يدوم ، فضلا عن اقترانه بلوعة الذكريات :

من معينى عـــلى السهر وعـــلى الهمّ والذّكـــر
وابلائى من شـــــادن كبـــر الحب اذ كبـــر
قام كالغصن فى النقـــا يمزج الشمس بالقمـــر
شــــــاطرنى مقطب فاســق الفعـــل والنظر

قد سقانى المـــــدام واللـ ـــــــيل بالصبح مؤتزر
والثريا كنـــــور غصـ ن عـلى الغـــرب قد نثر

عندئذ فقط وقد ألحت على صريع الكأس شهوته الجديدة دون سأم ولا ضجر ، ونأى عن عذابات الهوى ، وعما يلقاه من اهمال شريرة له .. يحس بالراحة وبالانتصار معا ، أفلم يختلس ذلك المتاع كله من زمان حاول اصلاحه فأصلح :

خل الزمان اذا تقاعس أو جمـح
واشك الهموم الى المدامة والقدح
واضــــمم فؤادك ان شربت ثلاثة
واحذر عليه أن يطير من الفــرح
هــذا دواء للهمـــــوم مجرّب
فاقبل مشورة ناصح لك ان نصح
ودع الزمان فكم رفيق حــــازم
قد رام اصلاح الزمان فما صــلح
ومكلل بالآس بعــــــــد وطية
نظمت مخانقه الخواصر من بلــح
قد بات ينطق عـــوده فى كفــه
غردا كقمرى الحمـــام اذا صدح
واذا أبى الا اقتراح غنــــــائه
جاوزته وطلبت مـــــالم أقترح
واذا تمـــادى فى السرور قطعتها
بالضم والتقبيـــــل حتى يصطلح

الفصل الخامس

حديث الأدب

دخل عليه يمن مولاه وقهرمانه واستأذن لابن الجصاص أن يدخل ، وكان هذا قد قدم بقطر الندى من مصر ، ولما أراد الرجوع محملا بهدايا المعتضد لخمارويه بلغه نبأ مصرعه فاتخذ بغداد مقاما وفتح داره فى المخزم — ولم تكن تبعد عن دار آل سليمان ابن وهب — لعلية القوم . وآثر ابن المعتز بحبه ، كما جمع حوله جماعة من الأصدقاء اختلفت مشاربهم — للعجب — عما يأخذ به نفسه من جمع للجواهر ونقد لها .

وعلى رأس هؤلاء أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح كاتب الوزير أبى القاسم عبيد الله وزوج ابنته ، وقد قلده ديوان المشرق بعد الزواج ثم ديوان الأشراف .

وكذلك أبو أحمد العباسى بن الحسن المتقلد لديوان زمام الخراج والضياع السلطانية منذ أعوام . وكان واحدا ممن اعتاد ابن المعتز أن يطلب منه عطاءه — قبل أن ينتظم بثلاثة وثلاثين دينارا أيام المعتضد — فيرفض ويأمر بعماله فيصفعون وكلاء الأمير.

واذا كان ابن المعتز قد تعوّد منه ذلك ، فانه لم يكن ليطيق أن يرى هامته الكظة وعينيه الكابيتين اللتين لا تنمان عن شيء واضح.

ثم ابن حمــدان .. القائد الذى يقضى كل وقته فى الميـــدان متعقبا القرامطة ، وكان يلازمه دائما وصيف بن صوار تكين .

وأخيرا أبو المثنى وأبو عمر القاضيان ، وكان ابن المعتز قد وطد علاقته بهما منذ شيع معهما جثمان جاره القاضى أبى اسحاق اسماعيل وكان توفى عام ٢٨٢

خليط عجيب متناقض حمل ابن الجصاص صورته وهو يدخل على ابن المعتز . غير أنه تلقاه بترحاب كبير ، وكان قــد صرف لساعته بنت الكراعة — كالمطرودة — ليكتب فى شريرة وابن البقال ما اعتاد أن يكتبه من سباب ، ثم ليكتب لصديقه الكسروى قصيدته التى يقول فيها :

يا باخـــلا بكتابه ورســـــوله
أأردت تجعل فى الفـــراق فراقا
ان العهــــود تموت ان لم تحيها
والنـأى يحدث للفتى أخـــلاقا

ولم يكن الا قليل حتى راح الصديقان يخوضان فى حديث عادى لم يكن يهتم به ابن المعتز كثيرا . ولكنه تنقل معه من حكاية لعن معاوية ، الى لعن الطالبيين كخصوم له ، الى السخرية بالمنجمين الذين تنبأوا بفيضانات مدمرة فانقــطعت الأمطار حتى استسقى الناس مرات ، وهكذا ...

والرجل كالبله يسأل ويستفسر — فلم يكن فى الحقيقة يعرف

أكثر من الاتجار بالجوهر — ويحكى حكاية غريبة يزعم فيها أنه اشتهى لكثرة ماله أن يخسر، حتى لقد اشترى تمرا من الكوفة ليبيعه فى البصرة بلد البلح ، فلم يحمل نخيل البصرة سنتها ثمرة واحدة ، وازاء هذا باع فيها وتضاعف ربحه !

وكان من الممكن أن يطول الأمر على هذا النحو لولا أن دخل يمن ثانية يستأذن للصولى وهارون بن المنجم وابن حمدون نديم المقتدر وجحظة أو خنياكر، واتسع المجلس وأديرت أكواب الشراب وكان ابن المعتز يعلم أن لكل واحد من هؤلاء هوى ، وتأيد هـذا عندما بدأ ابن المنجم فأعلن أنه يريد أن ينسخ من « كتاب البديع » نسخة فلما أبدى ابن المعتز موافقته قال له ابن المنجم :

— فهل لك أيها الأمير فى أن تصفح عن أخى يحيى ؟

فتدخل ابن الجصاص قائلا :

— والنميرى ...

وصاح ابن حمدون :

— ولماذا تنسون ابن بسام ؟

قال ابن المعتز برفق :

— لعمرى مـاذا يكون الصفح وفى النفس ما فيها أيهـا الاخـوان ، أما النمـيرى فويلى منه وويله منى ، وابن بسام لا يحفظ لسانه وأمره لغده ، فى حين أشقانى أبو أحمـد يحيى بما أشقانى ابن الرومى . وفى الوقت نفسه يرمينى بالتصحيف والتحريف ، ويهجونى بقصيدته :

أبعد البين صـبر أو هجود أبى ذاك التفـكر والشهود

فأهجوه حتى أوجعه بقولى :

أتسمو للفخار وأنت قرد وما بالمجد يفتخر القرود
فخرت بفارس سفها وجهلا كأنك من مرازبها تليد

ثم يوجعنى باعتزاله وما يدير فى مجلسه من طعن على دين الله وعلى آل محمد !

وبهت ابن المنجم ، فآثر أن يسكت حتى لا تمتد ثورة الأمير اليه فيسحب موافقته على أن ينسخ البديع . وهنا تقدم جحظة بجرأته المعروفة ولطفه معا ، فقال :

— وأما أنا فليس لى الا أن أسأل طباهجة الأمير .

وتبسم ابن المعتز ثم قال :

— والله ما أهون الطلب يا خنياكر الحبيب ، ولكن لعل عندى من القطائف ما لا تحب .

وكان ابن المعتز يعرف ضيق جحظة بالقطائف فشاء مداعبته ، ولكن هذا صاح على غير ما توقع أحد :

— فليكن ، ولتتخمنى بجوزها ان كانت بجوز أو فلتبشمنى بلوزها ان أمرت بها بلوز !

وضج الحضور بالضحك ، وصفق ابن المعتز ، وهنا قال الصولى بعد أن ظل ساكتا طوال الوقت :

— الحمد لله أهل النعمة أن تكون له يا خنياكر ، فان تركتنا سهل الله لك طريقها وجعل كل ما تقع عليه عينك طباهجة . ولكننا فى غير هذا المقام يا رجل ، نريد أن نوفى حق الكبار فى الكلام ونعطيهم موضعهم من الرتبة .

قال ابن المنجم :

— من هم يا أبا بكر ؟

أجاب ابن المعتز عن الصولى :

— يريد أبا تمام فهو شغله الشاغل .

قال الصولى :

— والبحترى أعزك الله أيها الأمير !

فقال ابن المعتز :

— الحق أنى لم أجعل له فى طبقاتى الا ورقة .. لا علم عندى بسبب ذلك ، ولكننى رأيت من سرورى أن أثبت لـه نادرة رواها لى علان بن محمد .

صاح الجميع حتى جحظة :

— وما تكون ؟

أجاب ابن المعتز وقد أخرج كتاب الطبقات ونظر فيه (١) :

— هجا البحترى أبا الفضل بن الحسن بن سهل ، فتركه أياما وأظهر قلة المبالاة والاهمال لهجائه ، ولم يظهر الموجدة بذلك . وحضره يوما فقال له « يا أبا عبادة ، تبيعنى غلامك نسيما ؟ » فقال « كيف أبيعك من لو فارقته ساعة فارقتنى روحى ؟ » فقال : « أعطيك به رغيبة » فقال «وكم تعطينى؟» قال « أعطيك ألف دينار » قال « لا أفعل » قال « أعطيك ألفى دينار » فقال له « أحضر المال » فباعه ، وتسلمه أبو الفضل . فما مرّ

(١) راجع طبقات الشعراء له ٣٩٤

للبحترى يوم حتى قامت قيامته وندم ، فواصل غدوه برواحه الى باب الفضل يسأله الاقالة وهو يأبى عليه ، فلما عيل صبره كتب اليـه :

أبا الفضـل فى تسع وتسعين نعجة
غنى لك عن ظبى بساحتنا فـرد
أتأخذه منى وقد أخـذ الهوى
فؤادى له فيما أسر وما أبـدى
وتغدو عليه صـبوتى وصبابتى
ولم يعده وجدى ولم يأله جهدى
وقلت : اسل عنه والمنيـة دونه
وكيف سـلوّ ابن المفرغ عن برد

وابن المفرغ شاعر كان له غلام اسمه برد فباعه وندم ، وله فيه أشعار كثيرة ، فقال أبو الفضل « أبيعكه بجميع ما تملك » فقال له « أفعل » فباعه بجميع ملكه ، وأشهد عليه ، ورد الغلام اليه . فلما كان من الغد رد عليه الكتاب وأقاله من جميع ذلك ، وحمل اليه صله وقال له « اياك أن تهجو الأحرار فان لهم مكائد يضل فيها هجوك ومدحك » .

وهنا التفت الأمير الى ابن المنجم ومضى مستطردا :

— قل ليحيى قولة ابن سهل اياك أن تهجو الأحرار فان لهم مكائد يضل فيها هجوك ومدحك !

وضحك فضحك أصحابه ، ولكنه كان قد أخذته حماسة العالم فقال وهو ينقل بصره الى الصولى :

— يا أبا بكر ، لقد وعدت بأن أحدثك عن شاعرك ، وهأنذا أعطيك شيئا عنه وعن أبى عبادة معا . فقد جاءنى أستاذنا المبرد يوما فأفضنا فى ذكر أبى تمام [1] وسألته عنه وعن البحترى فقال « لأبى تمـام استخراجات لطيفة ومعان طريفة لا يقول مثلها البحترى وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع ، وشعر البحترى أحسن استواء . وأبو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذى كان أعجب الى الأصمعى . وما أشبه أبا تمام الا بغائص يخرج الدر والمخشلبة » [2] ثم قال « والله ان لأبى تمام والبحترى من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجد فيه مثله » .

وسكت الأمير ، فقال الصولى :

— ألا ترى أيها الأمير أن قول المبرد « ما أشـبه أبا تمام الا بغائص » انما أخذه من قول الأصمعى فى النابغة الجعدى » تجد فى شعره مطرفا بآلاف وكساء بواف » [3] .

قال ابن المعتز :

— كلنا عالة على المقدمين من أهل العلم ننظر اليهم وننتجعهم طارئين اليهم حتى وان كان قصدنا أن نبين سقطهم ، أفلا ترى الى ابن المدبر وهو يريد أن يحط من قدر الطائى انما يرفعه حتى ليتساوى فى ذلك بصعودا الذى لا يسلك معه مسلكه ؟

---

(١) أخبار أبى تمام ٩٦ ، ٩٧

(٢) المخشلبة : خرز أبيض يشبه اللؤلؤ ولكنه زهيد الثمن .

(٣) المطرف : رداء من خز ذو أعلام ، الوافى : درهم وأربعـة دوانق ، يريد أن فى شعره تفـاوتا فبعضه جيد رفيع وبعضه الآخر ردىء ساقط .

قال الصولى متسائلا :

— وكيف كان ذلك ؟

قال ابن المعتز :

— حدثنى صعودا عن الطائى قال « خرجت يوما الى سر من رأى حين ولى الواثق ، فلقينى أعرابى وقد قربت منها . فأردت أن أسأله عن شيء من أخبار الناس بها ، فخاطبته فاذا أفصح الناس وأفطنهم ، فقلت : ممن الرجل ؟ قال : من بنى عامر ! قلت : كيف علمك بأمير المؤمنين ؟ قال : قتل أرضا عالمها ! قلت : فما تقول فيه ؟ قال : وثق بالله فكفاه ، أشجى العاصية وقمع العارية ، وعدل فى الرعية ، وأرعف كل ذى قلم خيانته [1] ! قلت : فما تقول فى أحمد بن دؤاد [2] ؟ قال : هضبة لا ترام وجندلة لا تضام ، تشحذ له المدى وتحبل له الأشراك ، وتبغى له الغوائل ، حتى اذا قيل كأن قد ، وثب وثبة الذئب وختل ختل الضب ! قلت : فما تقول فى محمد بن عبد الملك ؟ قال : وسع الدانى شره وقتل البعيد ضره ، له كل يوم صريع لا يُرى فيه أثر ناب ولا ندب مخلب ! قلت : فما تقول فى عمرو بن فرج الكاتب ؟ قال : ضخم

---

(١) الخبر فى « أخبار أبى تمام » صفحة ٨٩ وما بعدها ، وفى هذه العبارة غموض واضح ، وهى فى مروج الذهب ٧ : ١٤٧ ط . باريس سنة ١٨٦١ ورغب عن كل ذى جناية .

(٢) أحد الفصحاء من المعتزلة ، شغب على الامام حنبل وأفتى بقتله ، وكان مقدما عند المأمون والمعتصم ونشب بينه وبين ابن الزيات شر عظيم ، مات سنة ٢٤٠ بالبصرة .

لهم [1] مستعذب للذم ! قلت : فما تقول فى الفضل بن مروان ؟ واستعذبت خطابه ، قال : ذاك رجل نشر بعد ما قبر ، فعليه حياة الأحياء وخفتة الموتى ! قلت : فما تقول فى أبى الوزير ؟ قال : كبش الزنادقة الذى تعرف ، ألا ترى أن الخليفة اذا أهمله سنح ورتع ، فاذا هزه أمطر فأمرع ؟ قلت : فابن الخصيب ؟ قال : أكل أكلة نهم فذرق ذرقة بشم ! قلت : فما تقول فى ابراهيم أخيه ؟ قال : أموات غير أحيــاء وما يشعرون أيان يبعثون [2] . قلت : فما تقول فى أحمد بن اسرائيل ؟ قال : لله دره ، أى قلقل [3] ! غرس فى منابت الكرم حتى اذا اهتز لهم حصدوه ! قلت : فما تقول فى ابراهيم بن رياح ؟ قال : أوبقه [4] كرمه وأسلمه حسبه ، وله معروف لا يسلمه ورب لا يخذله وخليفة لا يظلمه ! قلت : فما تقول فى نجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره ، أى طالب وتر ومدرك ثأر ! يتلهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة جلسة تزيل نعما وتحل نقما ! قلت : يا أعرابى ، أين منزلك ؟ قال : اللهم غفرا ، اذا اشتمل الظلام فحيثما أدركنى الرقاد رقدت ! قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : لا أخلق وجهى بمسألتهم أو ما سمعت قول هذا الفتى الطائى الذى قد ملأ الدنيا شعره :

وما أبالى وخــــير القول أصدقه
حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

---

(١) اللهم : الجواد العظيم الـكفاية (٢) من ســورة النحل ٢١
(٣) القلقل : المعوان سريع التقلقل أى التحرك .
(٤) أوبقه : أوثقه .

قلت : فأنا الطائى قائل هذا الشعر ! فدنا مبادرا فعانقنى وقال : لله أبوك ! ألست الذى يقول :

ما جود كفّك ان جادت وان بخلت

من مـــاء وجهى اذا أخلفته عوض

قلت : نعم ! قال : أنت والله أشعر أهل الزمان . فرجعت بالأعرابى معى الى ابن أبى دؤاد وحدثته بحديثه ، فأدخله الى الواثق ، فسأله عن خبره معى فأخبره به ، فأمر له بمال وأحسن اليه ، ووهب له أحمد بن أبى دؤاد ، فكان يقول لى : قد عظّم الله بركتك علىّ » [1] .

وسكت ابن المعتز ، فقام ابن الجصاص معانقا الأمير واستأذن فى الانصراف ، فى حين مُدّ السماط ووضعت عليه من صنوف الأطعمة ما جعل لعاب جحظة يسيل ، غير أنه أهاب بفلول عزمه أن تعينه على الجوع الذى يفرى أحشاءه ، وود لو أن القـــوم أخذوا الأمور مأخذه ولكن ظنه خاب عندما انبرى الصولى يقول متسائلا :

— وحكاية ابن المدبر ؟

قال ابن المعتز :

— لقد حدثته بحديث حدثنيه أبو عمرو بن أبى الحسن الطوسى بعد أن رأيته يستجيد شعر أبى تمام ولا يوفيه مع ذلك حقه ، فجعلت هـــذا الحـــديث مثلا له ، قال « وجه بى أبى

---

(١) أخبار أبى تمام ٩٣

الى ابن الأعرابى لأقرأ عليه أشعارا وكنت معجبا بشعر أبى تمام، فقرأت عليه من أشعار هذيل ، ، ثم قرأت أرجوزة أبى تمام على أنها لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عذلتـــــه فى عـــــذله فظن أنى جاهل من جهـــله

حتى أتممتها ، فقال : أكتب لى هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت : أحسنة هى ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ! قلت : انها لأبى تمام ! فقال : خرّق خرّق ! » [1] .

وأطرق ابن المعتز قليلا ، فظن جحظة أن كل شيء قد أذن للطعام ولكن شقاءه بلغ أقصاه عندما راح يستطرد فى هدوء :

— هذا الفعل من العلماء مفرط القبح لأنه يجب ألا يدفع احسان محسن عــدوا كان أو صديقا ، وأن تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع . فانه روى عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب صلوات الله عليه أنه قال « الحكمة ضالة المؤمن فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك » .

قال ابن المنجم :

— الحق أن الرجل كان علما وجمعت له مع البحترى فى كتابى « اختيار شعر المحدثين » وسأروى له فى « اختيار الشعراء الكبير » جيد أشعاره .

قال ابن المعتز :

— من عاب مثل هذه الأشعار التى ترتاح لها القلوب وتجذل

---

(١) أخبار أبى تمام ١٧٦

بها النفوس وتصغى اليها الأسماع وتشحذ بها الأذهان ، فانما غض من نفسه وطعن على معرفته واختياره ، اكتب يا أبا بكر ، وقد روى عن عبد الله بن العباس رحمه الله أنه قال « الهوى اله معبود » واحتج بقول الله عز وجل « أفرأيت من اتخذ الهـه هـواه » .

وهنا صاح جحظة وقد طفح كيله :

— وما رأيكم فيمن استبدل بذلك الطعام ؟

وأشار الى السماط ثم انقض عليه انقضاض الصقر ، وتبعه الأمير فابن حمدان ، ثم ابن المنجم والصولى ، وانقطع بذلك حديث الأدب .

الفصل السادس

غضبة الامام

راح يقرأ قصيدة الكسروى اليه .. قافيّة يردّ بها على قافيته [1] ويعلنه فيها أنه لا يزال على عهده ولم يتبدل بعد النأى أخلاقا ! ودمعت عيناه ، لأنه تذكر فى هذه اللحظة شريرة وارتحالها الى حيث يطيب لقاؤها بابن البقال . ولقد كان يرجو أن يرسل لها بآخر ما كتب ، وقد صفت نفسه ولم يعد فيها مكان لغل ولا لحقد ، وانما حب خالص مبرأ من الهوى :

فكيف بها لا الدار منها قريبة
ولا أنت عنها آخر الدهر صابر
أين لى فقد بانت لها غربة النوى
أأنت على شىء سوى الهم قادر
نعم أن يزول القلب عن مستقره
خفوقا وتنهل الدموع البوادر
وأحيا حياة بعد شر مريضة
لها عاذل فى حب شر وعاذر

---

(١) أثبتها ياقوت فى معجم الأدباء ٥ : ٤٣٠

ألا يا بنى العباس هـذا أخوكم
قتيـل ، فهل منكم له اليوم ثائر

نعم هو صادق ، فالدنيا حظوظ . وحظه أن يكون فى الجانب الخاسر !

وهو يريد أن يكتب للكسروى بذلك ، ويعتب عليه . ثم يسأله فيم غيبته هذه الطويلة عنه ، والأمر العظيم يحيق به بحيث لا يجد من أحد عونا ؟

أبا حسن أنت ابن مهـدى فارس
فرفقا بنا لست ابن مهدى هاشـم
وأنت أخ فى يوم لهـو ولـذة
ولست أخا عنـد الأمور العظائم

سيبنى بها ابن البقـال ، وسيتحدث الجميع عن سعادتهما وشقائه هـو . وسيكون على الحفنة اللعينـة من الموالى أن تشاركهما الفرح ، وتنظر اليه فى رثاء أو شماتة !

أجل .. والكسروى بعيد عنه ، ونشوان هجـره أيضا . ولا شىء الا الكتابة وزيارة الحانات والديارات ومنازل الأصحاب والبساتين ، ثم الطرد مع جماعة يوشك أن يمل صحبتهم لأنهم :

أمسوا جـوى فى القلب يقـتله وأحزانا وشـجوا

وفجأة يبعث الوزير اليه بابنـه القاسم يحذره من غضبة الامام ، ويقفه على رأيه فى تماجنه ذلك الذى شوّه صورته . وقد انتهى اللقاء بشىء واحد هو ضرورة أن يمتثل لرغبة الخليفة ، وليكن عزوف عن المواخير ومجالس الكأس واللهو والطرب ..

ونهانى الامـــام عن سفه الكأ س فردت عـــلى السقاة المدام
عفتها مكرها ، ولذات عيش قام بينى وبينهن الامـــــام

ولكن بقى للخمر — مع ذلك — سلطانها عليه ، ولعله راح يشربها سرا . ومن المؤكد أنه نشر فى هـــذه الفترة « فصـــول التماثيـــل » وراح ينشـــد فى كل مكان أرجوزة لطيفة فى ذم الصبوح .

أما « فصول التماثيل » [1] فرحلة ذهنية وراء الراح للراحة ، وعرض لجملة آداب الشراب وشرائط المنادمة عند ذوى الرئاسة ومن دونهم ، وبيان لأعرف الأمم — ويعنى الروم — مذهبا فى استعمالها ، وحاجة الناس كافة اليها . وعرف بأسمائها وصفاتها [2] وآنيتها [3] وسقاتها [4] وطريقة صنعها . والأهم من ذلك كله

---

(١) طبع الكتاب بالقاهرة عام ١٩٢٥ محيى الدين الكردى ، وفى فهرست ابن النديم أن لحمزة الأصفهانى كتابا بالاسم نفسه . وهـــذا مما دعا فريقا من الباحثين كالدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى الى الشـــك فى نسبته لابن المعتز ، ولكننا نجد فيه أدلة كثيرة تثبت أنه صاحبه . وان كنا نميل أنه بتكوينه الحالى بعيد بعض البعد عن صورته الأولى ، لأن يد التحريف امتدت اليه على مدى الأيام .

(٢) سميت الخمر لأنها خمرت فى انائها ، والشمول لأنها تشتمل على العقل ، والقرقف لأن شاربها يصاب برعدة منها ، والعقار لأنها تعاقر الدن ، والقهوة لأنها تقهى عن الطعام أى تصد عنه ، والراح لأنها تريح من الغم .

(٣) الدنان والأباريق والجامات والكيزان والكاسات والأقداح والقنانى والأرطال .

(٤) اشترط فيهم حســن الوجـــوه واعتدال القامة وسهولة الخلق وجمال الزى وسرعة تلبية الطلب .

ذكر التشبيهات الرائعة التى وردت عند العرب فى الخمريات .

وقد رأى أن يشرح للناس كيف يصنع النبيذ ، وماذا يضاف اليه ليعجل بالسكر أو يبطىء به أو يحدّ منه . كما رأى أن يصف لهم حركة السكر فى الأجسام وصنيعه بها وزيغ أبصارها واختلاف الطعوم فى أفواهها . وفى ذلك كله كان يسأل ويتطوع بالاجابة ، وفى اجابته يعلن استحسانه أو استقباحه ، ويحرص على ازجاء النصح وسوق الحكمة وتقديم نوادر الظرفاء وأقوالهم .

وأما الأرجوزة (١) فقد قدّم فيها صديقا له ينكر عليه شرب الخمر فى المساء وقال له « ألا تشرب فى ضياء الفجر والأسحار حيث ترى البستان كيف نوّر ونشر المنثور زهرا أصفر » ..

وضحك الورد الى الشقائق واعتنق القطر اعتناق وامق
فى روضة كحلل العروس وحزم كهامة الطاووس
وياسمين فى ذرى الأغصان منتظم كقطع العقيان

.. ..

قل لى فهذا حسن بالليل ويلى مما يشتهى وعولى

ولقد قال له ابن المعتز بعد أن أكثر من الأوصاف « قد جنبتك الخلاف ، فان شئت فبت عندنا حتى يسفر الصباح » ولكن الصديق أبى الا أن يوعد بالبكور ، وأتى فعلا ولكن بعد أن يئس ابن المعتز وصحبه من حضوره فأخذوا فى شربهم ولهوهم . اذ ذاك بدا خجلان بارد التبسم ، وافتتح القول بعى وحصر :

---

(١) هى من المزدوج وقد أثبتها الصولى فى الأوراق كاملة (راجع صفحة ٢٥١ وما بعدها)

وقال يا قوم اســمعوا كلامى   لا تسرعوا ظلما الى مــلامى

وجاء بقصة كذّابة ثم قال « يا قوم اشربوا » فقالوا « أتيتنا ونحن قد سكرنا » فلم يزل من شأنه منفردا يشرب وحده والقوم بين نشوان ونعسان ، وكلهم واهن خامل . وهنا ينتهز ابن المعتز الفرصة ليدلى ببيانه ويعرض حججه ذامّا الصبوح ، وقد ظهـر للعيان سوء ما يخلفه .

ففى الشتاء ينطوى شرب الخمر فجرا على شر كبير لأنه يعرض المرء للبرد فى الوقت الذى يحتاج فيه الى الدفء ، والساقى يكون بدوره مكرها على الحركة حتى ليلعن المولى اذا دعاه . وان طـّرد البرد بالنار فقد يتطاير شررها ليحرق ثياب الشاربين ، وربما أصاب الجلود والعيون ، أو ربما ترك على البساط الأنيق نقطا سودا كجلد الفهدة .

ومن يدرى بعد ذلك ، فقد يدق عليهم الباب واحــد من أصحاب الفقه والاحتشام . وهنا تسرع الأيدى الى اخفـاء الكؤوس ، وتجبر النفوس على مجالسته .

فاذا كان الصيف فما يصطبح القوم — وقد انكسر الحــر وانهزم البق ، ولذ للعيون أن تنام بعد سهر مضن خوفا من عقرب أو حية أو فأرة — حتى يسل الصبح سيف اللهيب من جديد .

واذا الشراب يسخن ، ويسخن معه المزاج فيكثر الخــلاف والحجاج . وقد يستشعرون الجوع ، فاذا أكلوا أخذتهم سنة

من النوم ، أو عرقوا حتى يصير ريحانهم كالقت ، وربما لو عربدوا أساء بعضهم الى بعض ..

ومن أدام للشقاء هـــذا　　من فعــله والتذه التــذاذا
لم يلف الا دنس الأثــواب　　مهوســا مهوس الأصــحاب
يزداد ســهرا وضنى وسقما　　ولا تراه الدهــر الا فدمــا
هــذا كذا ومــا تركت أكثر　　فجربوا ما قلتـــه وفكـّروا

الفصل السابع

نفى وعفو

أيا سـيدى ان ابن مهدى فارس
فداء ومن يهوى لمهـدى هاشم
بلوت أخا فى كل أمـر تحبه
ولم تبـله عند الأمور العظائم
وانك لو نبهتـه لملمة
لأنساك صـولات الأسود الضراغم

وأين هو الآن ؟ أين الكسروى .. لقد أتاه نعيه مع الرسول الذى حمل اليه القصيدة ، ولم ينكر ابن المعتز فى يوم من الأيام أنه كان مثله انسانا مغامرا وألوفا . ولهذا أحبه ، وكان يرى فيه الرجل العنيد الباحث عن فرصته والمناضل من أجل أن يبقى حتى ولو ارتحل الى الصين .

وقد أحب مثله يوما وخانه حبيبه ، فلم يقل أكثر من « ويل هذا القلب الذى وضع أنفى فى الرغام » ثم قام من كبوته أشد ضراوة واقداما . ولعله فى هذه فقط يخالف صاحبه الأمير ، لأن هذا كان لا يزال يطمع فى أن يعيد شريرة الى دفئه العقيم برغم كل ما يصل اليه من أنباء سيئة .

وبكى ..

وعندما قام يمشى فى جوانب بستانه كانت قامته الهرقلية تهتز ، ورآه يمن من بعيد يمزق مخمل سترته بأصابع متشنجة غير أنه لم يجرؤ على الاقتراب منه ، ولاحظ سائر الخدم أنه أمال كتفيه ، وأحنى عوده وترك شفتيه الطريتين تتدليان .

انه حتى هذه اللحظة لم يشرب الكأس حتى الثمالة ، لأن صديقه جعفر بن قدامة عندما دخل عليه ليحمل نبأ زواج شريرة خاف هـول الموقف فآثر السكوت . وانزوى فى مكان قصىّ بالشرفة ، يرجو أن يلمحه الأمير ، ولكن حدث فجأة أن ارتفع صوت من وراء سور البستان ، واذ ذاك استدار الأمير وقد اتسعت حدقتاه ، وكان الصوت يقول :

— بشراك يا أمير .. لقد زفت الحبيبة الى ابن البقال !

واضطربت الدار ، فى حين ظل ابن المعتز جامدا يمد رقبته الى أمام وكأنه لا يصدق ، وعندما وقعت عيناه على صديقه صاح :

— ويلى من النميرى .. انه صوته ، هل تنكر ؟ ولكن .. ولكن لعله يكذب !

وعدل جعفر عما اعتزمه أولا مؤثرا أن ينتهى كل شىء بسرعة ، فقال :

— بل هو صادق ، وقد جئت لأقول لك ذلك ثم لأضيف أنهما ارتحلا عن بغداد الى الأبد !

صـاح :

— واغوثاه .. واغوثاه ! ولكن لئن فجعت بفقدها لقد أمنت الفتنة بها !

ودخل مطأطىء الهامة فجلس ساعة صامتا ، ولما رفع وجهه نادى بالطعام فأكل مصدود النفس ، ثم قام فأحضر الكاغد وطلب الى صديقه أن يكتب قائلا :

— لابد أن أصطنع الحكمة يا حبيبى . فالحكمة شجرة تنبت فى القلب وتثمر من اللسان ، ومن الحكمة أن أقول ما أريد أن أقول ، فاكتبه بارك الله فيك :

صاح ماذا ترى من الرأى قل لى
أطرق الدهر ثم جاء بصل
زوّجوا ويحهم شريرة بالبقـ
ال يا حسنها ويا قبح بعل
سبح الناس اذ رأوا درة المسـ
لك مع البيض عند صاحب بقل
وعزيز علىّ من ذاك ما ها
ن عليهم وليت أنّى ومن لى
ان تكونى على الرضا أو على السخـ
ط فلا بالرفا ولا بالتملى
ان عندى رأيا نصحتك فيه
فاحذرى أن تخالفى رأى مثلى
وخذى الرأى من نصيح بشكر
ليس بعلا زوجت لكن ببغل

فاركبيه طوعا وكـــــرها الينــا
واربطيه يا شر فى غـــــــــير ظل
وأطيـــــــــلى قرونه كيفما شئـ
ـت فما ان يحس منها بثقـــــل

ولما انتهى من املائه أمسك بالصحيفة يعيد قراءتها وقد أخذت عيناه تنتقدان ، ثم همس بعد أن انتهى :

— الآن استرحت فالى العمل .. انشر هذه فى الناس وقل انها شغلتنى عن رثاء الكسروى ، ولكنى لن أقعد ها هنا ، ألا ترى أن مكانى مع الامام فى آمد ؟

وكان يشير بذلك الى خروج المعتضد بالله سنة خمس وثمانين ومائتين الى أحمد بن عيسى بن الشيخ صاحب البلد لحربه . وفعلا أعد من ساعته سلاحه وارتحل يريد اللحاق بالجيش الغازى ، ولكنه لم يصل الا بعد أن افتتح الخليفة آمد بالأمان (١) .

وليلة رحـلة الجيش الى قنسرين نمى الى الخليفة أن ابن المعتز عاقر الخمر شيئا ، فاصطنع كل صرامة أبيه فى القسوة عليه وتعنيفه . ثم طلب منه فراقه ، ونصحه بأن يترك بغداد . وهكذا توالت عليه المصائب ، وأصبح ذات يوم منفيا عن الأهل والأصحاب .

ولكن أين قصد ؟

فكر أول الأمر فى سر من رأى ، ولكن الوزير نصحه بتركها

---

(١) راجع تاريخ أبى الفداء ٢ : ٦١

حتى لا يظن الخليفة أنه يتحداه بقصر أبيه ناحية قصر الصوامع . وكان هذا الى جانب قطع عطائه وانصراف اخوانه عنه أهم الأسباب التى أشعرته بالوحشة والغربة ، وأنشد مرة :

مرّ عيش عليّ قد كان لذّا ودهتنى الأيام فيه وحذّا
وانثنى عنى الشباب وغودرت فريدا من الأحبة فذا
بضمير لا لهو فيه وقلب وقذته قوارع الدهر وقذا

ولم يكن ينقطع فى الوقت نفسه من مراسلة الخليفة مستعطفا ، ومن انشاد الشعر فيه ، حتى ليقول :

قد طال عهدى بالامام وأخلفت
أسباب ود كاد يدرس ذكره
ظلت تحاربنى العوائق دونه
وتمدّ لى أمدا طويلا صبره

كما قال فى قصيدة أخرى :

لعمرى لئن أمسى الامام ببلدة
وأنت بأخرى شائق القلب نازع
لقد رمت ما يدنيك منه وانما
أتى قدر والله معط ومانع
وانى كالعطشان طال به الصدى
اليك ولكن ما الذى أنا صانع
أيذهب عمرى والعوائق دونه
على ما أرى انى الى الله راجع

وما أنا فى الدنيـــا بشىء أنــاله

سوى أن أرى وجه الخليفة ، قانع

وأخيرا سمح له المعتضد بأن يعود الى بيته بالصراة ، فكان فرحه بالعودة طاغيا ؛ وأنشد هائيته التى يقول فى مطلعها :

دعانى الامـــام الى قربه

فأهــــلا بذاك وســهلا به

يقصّر جهدى عن شـــكره

ولست أقصر عن مدحــــه

وعوّقنى الدهر عن قـــربه

زمــانا فقد ثاب من ذنبـــه

الفصل الثامن

الطالبيّون

كان الثمن الذى طلبه المعتضد من ابن المعتز نظير العفو عنه ، أن يقف الى جانبه فى الرد على الطالبيين بنى عمه الذين استشرى شرهم مع القرامطة ، وكان هذا هو آخر ما اعتاد أن يمنعه عن الاشتغال بالسياسة . حقا كان يفتخر أحيانا فيتعرض لبعض الأوضاع العامة ، غير أن هذا كان لا ينم عن أكثر من أنه لا يفتأ يسبح فى أحلام الملك .

ولقد كان هو فى الحقيقة — ككل بنى العباس — يحرص على أن يظل الملك فيهم ، بغض النظر عن تسلط الأتراك فى ذلك عليهم . ولما كان الطالبيون من أقوى المنافسين لهم فقد رأى ابن المعتز — بتفويض من الامام — أن يناقشهم ويوجعهم . واشباعا لنزعة العالم الفنان فيه شرع فى عمل أرجوزة يسجل فيها تاريخ أسرته ، جاعلا المعتضد محورها . ومن هنا نجد أن موقفه السياسى كان معقدا ، ويبلغ تعقده الغاية اذا جوبهنا بجانب من شعره السياسى يخالطه العتاب العنيف والشكوى الممضة .

ومع ذلك فقد نرى ثمة قصائد يخرج بها عن الغاية التى دفعه

اليها الامام ، وهى التى نقد فيها الأوضاع وحمل علــى الأتراك بشجاعة غريبة ، حتى ليقول فى بعض الولاة منهم :

أفما ترى بلـــــدا أقمت به أعـــلى مساكن أهله خص
وولاته نبط زنادقـــــة ملأى البطــون وأهله خمص
ولهم مسالح يسلحون بهـــا لا يتقى ســـطواتها اللص
غلبت خيـــانتهم أمانتهم وطغى على تقواهم الحــرص
ويرون رخص السعر أغبط فى الـ ـبلوى وليس بدرهم رخص

وفى الجانب الآخر يناقش العلويين مناقشة منطقية ، حتى ليسألهم مقارنا بين أبى طالب وأبى الفضل العباس جده الأعلى :

أأبو طالب كمثل أبى الفضـ ـل أما منــكم بهـــذا عليم
سائلوا مالكا ورضوان عن ذا أين هــذا ؟ وأين ذاك مقيم
فدعوا الملك نحن بالملك أولى قد أقرّت لنا بهذا الخصــوم
وعزيز عــلىّ أن يصـــبغ الأر ض دم منــكم عــلىّ كريم

ولقد آلم هذا فريقا من أصحابه على رأسهم المبرد الذى سأله الرفق بآل على ، قبل أن يموت [1] حتى لا يستغل القرامطة موقفه ضده ، وكان هؤلاء قد امتد سلطانهم الى البحرين . كذلك كان من أكثر العاتبين عليه جاره أبو الحسين محمد بن الحسن العلوى ، وحاول هو أن يشرح موقفه له زاعما أن أعداءه يناقضونه الشعر . فقد تمرّ له أبيات يتأوّل فيها شيئا ، فيتناول هؤلاء الأعداء غير ذلك وشعره يحتمل المعنيين .

(١) كان ذلك سنة ٢٨٦ للهجرة .

ويؤكد الصولى [1] أنه وجد عنده أشعارا يتكذب فيها على العباس وعلى أفاضل ولده وعلى الخلفاء — فهو اذن مستهتر لا يعنيه أحد — وروى أنه كان يقول « من عذيرى من الناس ، تأتينى مثل هذه الأشعار فأجيب بتعريض عن مائة كلمة قد صرح بها كلمة ، فأنسب الى ما أنسب اليه » .

ولكن يروى [2] أن جاره المذكور اعتاد أن يؤكد أن ابن المعتز قبل أن يموت كان يحلف لئن ملك من هذا الأمر شيئا ليجعلن البطنين بطنا واحدا ، وليزوجن هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء وقال « لا أدع طالبيا يتزوج بغير عباسية ، ولا عباسيا بغير طالبية حتى يصيروا شيئا واحدا . وأجرى على كل رجل منهم عشرة دنانير فى الشهر ، وعلى كل امرأة خمسة دنانير ، وأجعل لهم من الدنيا ناحية تفى بذلك » .

فهل بدأ يفكر فى الملك تفكيرا جديا ايجابيا ؟

نحن لا نعثر فى انتاجه ولا فى أخباره على أكثر من هذه العبارة التى يحتمل أن تكون موضوعة أو مدسوسة ، الا أننا نعثر على نقد لاذع للطالبيين ، بل نرى منه تطاولا عليهم ، فيهجوهم قائلا :

عذلت بنى عمى وطاب بهم عذلى
لعلهم يوما يفيقون من جهل

---

(١) راجع الأوراق ١٠٨

(٢) الأوراق ١٠٩

معافين الا من عقـــول مريضة
وكم من صحيح الجسم خلو من العقل

ويخلع عليهم كل ما يستشعر من حقد كان يكتمه ، حتى ليعلن أن أبناء عمه لا يستحقون أن يوصلوا ما كانت فيهم ضغينة ، وهذه الضغينة تظهر على رغمهم مهما يبلغ كتمانهم لها :

فسبحان ربى ما لقـــوم أرى لهم
كوامن أضغان عقاربها تسرى
اذا ما اجتمعنا فى الندىّ تضاءلوا
كما خفيت مرضى الكواكب فى الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى
وأعوان دهرى ان تظلمت من دهرى

وفى خمس بقين من شوال سنة سبع وثمانين ومائتين ، ورد الخبر بأن محمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان قتل [1] فاشتدت الحملة سعارا ؛ وانطلق يقول منددا بالطالبيين على أساس أنهم ليسوا من العصبة :

ولما أبى الله أن يملكوا ... نهضنا اليها وقمنا بها
لكم رحم يا بنى بنته ... ولكن بنو العم أولى بها
وأقسم أنكم تعلمون ... بأنّا لها خير أربابها

فلما عوتب على ما أشاع عنه القرامطة من هجو لعلى ردّده

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ٢٠٤ وكان يطمع فى امتلاك خراسان لما بلغه من أسر الصفار على أيدى السامانيين ، فقتلوه وأسروا ابنه زيدا .

بعض أهله ، أقسم أنه لا يكنّ لابن عم رسول الله الا كل محبة وتقدير ، وأنشد فى تيه كبير :

قل لقريش دعى الاسراف واقتصدى
ان عليا وعباســـــا يدى ويدى
ان تسخطوهم تروا أســـيافنا معهم
انا واياهم روحـــــان فى جسد

كما قال من أبيات :

زعمــت بأنى يـــا مبغض مبغض
عليا فما فخرى اذن فى المحــــافل
أآكل من لحمى وأشرب من دمى
كذبت لحاك الله يا شر واغـــــل
على وعباس يدان كلاهمـــــــا
يمين سواء فى العلى والفضـــائل
فهذا أبو هــذا وهــذاكم ابن ذا
فهل بين هذين اتساع لداخــــل

ومع كل ذلك ، فقد تطور اللجاج . واستحال هذا الخصام على الأيام خصاما شخصيا دمر الكثير مما كان ينبغى أن يظــل مقاما ، وأتى على بعض ما عرف عن الأمير من ترفّع واباء .

الفصل التاسع

الأرجوزة التاريخية

فى عام ٢٨٨ فقد أكبر سند طالما حامى عنه ، ووقف فى صفه أمام الدسائس والمكائد[١] .. فقد أبا القاسم الوزير الذى استطاع بتقربه الى بدر مولى المعتضد وصديق مؤنس الخادم أن يهيىء له رغدا من العيش لم يكن ليتاح له مع وجود أمثال ابن الفرات وخفيف السمرقندى وأبو أحمد العباس بن الحسن .

وقد حزن المعتضد عليه وقال لابنه « عند الله أحتسب أبا القاسم واياه أسأل أن يغفر له » ثم أمره بأن يتقلد الوزارة بدلا منه ويجرى الأمور على ما كان الوزير الراحل يجريها عليه وقال « ثق بمالك عندى فان الثقة بذلك توفى على المصيبة وان عظمت »[٢] .

ويبدو أن ابن المعتز اطمأن الى الوزير الجديد مثلما اطمأن

---

(١) من أوقع شعره الذى قاله فى ذلك :

رب ليل نمته وابن وهب ساهر يطرد عنى الخطوبا

وفيه قال ميميته المشهورة التى مطلعها :

ألا حى ربعا بالمطيرة أعجما فلو كلمت أرضا أذن لتكلما

(٢) اعتاب الكتاب ١٨٣

الى أبيه ، وقد أسرع اليه يدفعه ما بينهما من ودّ بقصيدة يتمدحه فيها ، ويذكر فطنته وقدرته وأباه فيقول عارضا لقلمه :

قـــلم ما أراه أم فلك يجـ ـرى بما شاء قاســم ويسير
خاشــع فى يديه يلثم قرطـا سا كما قبـل البساط شكور
ولطيف المعنى جليــل نحيف وكبير الأفعــال وهو صــغير
كم منايا وكم عطايا وكم حتـ ـف وعيش تضم تلك السطور
نقشت بالدجى نهــارا فما أد رى أخــط فيهن أم تصــوير
هكذا من أبوه مثــل عبيد الله ينمى الى العــلا ويصير

ويبدو أيضا أن قاسما هذا برغم قسوته وحبه لسفك الدماء لم يكن عنيفا مع الأمير ، بل كان يحنو عليه ، ويوليه عنايته ، ويوفر له ما يحتاج اليه من مال لأنه قال :

وقد حكت الأمطار نائل قاسم ويا ربما شحت وليس له شح

ومن أشهر ما مدحه به قصيدته التى يقول فيها :

يا ثالث الوزراء كم من حلقة للكرب والأحزان قد فرجتها[1]

ولسنا ندرى كم كان ابن المعتز صادقا مع نفسه فى هذا كله فالأمر الذى لا شك فيه أن هذا التصرف لم يكن يتفق وتخلق الأمراء . أجل ، هوّن الأتراك من شأن كل أمير بتملكهم زمام الحكم من صاحب الحكم ، الا أن صنيع ابن المعتز كان فوق التصوّر المألوف . وهو على أى حال قد أفاد شيئا واحدا — على الأقل — بموقفه هذا ، أفاد الوصول الى حضرة المعتضد فى أى

---

(١) أما الاثنان الآخران فهما أبوه وجده سليمان بن وهب .

وقت . وترتب على هذا تقديمه واكرامه حتى لقد تعوّد فى نهاية أيام هذا الخليفة أن يركب ومعه الحجاب والغلمان .

ومن الناحية الفنية تمكن فى جوّ من الأمان والثقة أن يكتب أرجوزته التى مثلت شطرا مهما من نشاطه فى ميادين السياسة ، والتى أرخ فيها — فى المحل الأول — لأعمال المعتضد وانجازاته الهائلة [1] . ولقد مات المعتضد قبل أن تتم ، وقبل أن يموت استسلم للمرض فى سهولة عجيبة وهو الذى كان يضرب الضربة فيصرع الأسد كما يقال . الا أن ابن المعتز لم يحاول أن يتقاعس أو يتوانى فيها على الرغم من أن ثمة قوما أنشأوا يرجفون

---

(١) هناك ذكر متأن للمعتمد ، وكان من رأى ابن المعتز أنه شارك المعتضد فى استرداد بنى العباس لسلطانهم . واذا كانت الأرجوزة تنسب الى المعتضد ، فلأنه هو الذى أوحى بنظمها كما يذكر الصولى . وقد لحظ الدكتور طه حسين فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » صفحة ٢٨٧ ط . الصاوى سنة ١٩٣٦ اضطرابا ارجعه الى أن الشاعر كان ينظم ثم يضيف الى ما نظم اضافات مختلفة . ونذكر نحن أن من أسباب هذا الاضطراب أيضا اطلاق لقب « أبى العباس » على كل من المعتمد والمعتضد ، ويحتمل أن يكون المعتمد ــ على هذا الأساس ــ هو المقصود بأول لقب ، والدليل على ذلك ذكره للفتن التى كثرت فى عهده ومحاربته للزنج مستعينا بأخيه الموفق ، ثم يخلص الى هجاء أبى الصقر اسماعيل بن بلبل . هذا والأرجوزة أربعمائة بيت ونيف يتضمنها ديوانه ، ولكنها لأهميتها التاريخية طبعت وحدها بمصر عام ١٩١٣ وعنى بها جماعة من المستشرقين على رأسهم لوث ولانج .

بضرورة تحويل الخلافة اليه . وكان ولى العهد فى هذه الأيام خارج بغداد ، وقيل كان يغزو القرامطة فقال فيه ابن المعتز :

قـل للقـرامط أبشروا بمخنث رخـو رباطـه

قالوا الأمـير .. نعم أمير طبل عسكره ضراطه

وخصيان القصر ونساؤه يتحركون ، ومن ورائهم نصر وبدر ومؤنس خفيف وابن صوارتكين . كل له مطمعه ، وكل يريد الفرصة التى تمكنه من عصر ضرع الخزانة ولو لوقت قصير .

بدأها باسم الله وحمده ، ثم بذكر نبيه أحمد ذى الشفاعة الذى مضى وأبقى لبنى العباس ملكا ثابت الأساس ، ثم ينتهى من هؤلاء الى الخليفة قائلا :

هذا كتاب سـيرة الامـام مهـذبا من جوهـر الكلام

أعنى أبا العباس خـير الخلق للملك ، قـولُ عالم للحـق

وقد حرص على أن يبرز فيها أربعة أشـياء : أولها ربط الحديث عن المعتضد بنهاية ابن بلبل كبداية لعهد جديد ، وكان المعتضد يكرهه كراهية الشاعر له ، وقد دعته هذه الكراهية الى التعريض به تعريضا ساخرا مريرا ، وثانيها خص العسكر من الترك وغيرهم من المرتزقة بالذم لطغيانهم واعتدائهم على الناس ، وتخريبهم الكرخ والتل والجوسق والقطائع « حتى غدت من فعلهم بلاقع » . ولما كان يكره آل طولون فقد شملهم بسبابه مع الرافضـة والقرامطة والزنج والصـفارية والأكراد والخارجية بالنواحى والأطرف .

وأما الشيء الثالث فعن الكوفة ، وهو قد خصها بالذم لتلونها

وغيها وكثرة أديانها وتعدد زعمائها المارقين منذ بختنصر ، يقول :

واستمع الآن حديث الكوفه مدينـــة بغيهـــا معروفه
كثيرة الأديان والأئمـــــه وهمها تشتيت أمـــر الأمـــه
مصـــنوعة بكفـــر بختنصر وكفر نمرود امـــام الكفـــر
وعشش الشر بهـــا وفرخـــا ثم بنى بأرضـــها ورســـخا
وغرق العـــالم من تنورها جـــزاء شر كان من شرورها

وأما الشيء الرابع فهو مدح المعتضد بما شيّد ونجد ، وذكر خصاله وحسن سياسته وقوة تدبيره ورفقه بالرعية ، وتغييره موعد النيروز الفارسي — وكنا رأينا الأمير لا يعبأ به في وقته — وتأخيره الخراج حتى يسهل على الناس جمع المال ، واستعانته بالقاسم العظيم والقضاة العدول . وكان من رأيه أن تلك الأعمال كلها — ولا سيما ما يتصل منها بالعمارة — انما هي وسيلة لاعلاء شأن الاسلام :

وبالزبيـــدات ولن ننســـاها قـــرة عـــين كل من رآها
أبنيـــة فيها جنـــان الخلـــد لكل ذي زهـــد وغـــير زهد
كانت عـــلى ســـاكنها دليـــلا جليلة قد وصـــفت جليـــلا
ومظهرات قـــوة الاســـلام عـــلى أعـــاديه من الأنـــام
تخـــبر عن عـــز وعن تمكين وحـــكمة مقـــرونة بالـــدين

وكذلك كان ، فظفر الأمير بما أحيا وأبقى ، وبدا كما لو كان أمن تقلب الزمان . ولكن الحقيقة أنه لم ينل الحظوة عند رجال البلاط ، بل أثارهم وأثار معهم فريقا من الحرم وطائفة الكتاب المنتفعة بسوء الوضع . لا يعنيها عذاب الجباية ، والتنكيل الذى

كانت توضع فيه أطسات الجمر على البطون ، وتغرس أطراف القصب فى الأظافر ، وتضرب الرءوس بالدبابيس .

قال أصحابه :

— لعهدنا بأبى العباس عبد الله بن المعتز قد قال المعتضدية وهو يحمل نفسه فى الأمر على أن ينفخ فى نار الفتنة ، ويحرك الغلمان الخاصة والحجرية وخلفاء الأستاذين !

الفصل العاشر

مجلس من المجالس

وعندما مرض الامام مرضة الموت ، جزع عليه ابن المعتز جزعا شديدا .

ان مكانته باعتباره المطالب الأول بالعرش محل خلاف وتساؤل ، ولكن من حوله كانوا يتفقون على أنه أخلص كل الاخلاص للخليفة البطل ، كان يحبه على الرغم من تصديه له أكثر من مرة ، والأشعار الكثيرة التى كتبها تحت شتى الظروف انما كانت لتأكيد احساسه هذا الصادق .

والحق الذى لا مرية فيه أن ابن المعتز — وفيه روح الفنان — لم يكن ليرضى مطلقا أن يعض اليد التى امتدت اليه بحسن الصنيع ، وقد استطاع بخلقه هذا أن يعيش شطرا من حياته مرموقا ، ولفظ آخر أنفاسه وهو غير راض تماما عن مؤامرته التى دفع اليها .

وأهم من ذلك كله ، أن ذلك الأمير الذى ما كان ليستحق مصيرا أسوأ مما استحقه — والمسئولون وحدهم هم الأتراك — قد استطاع ظله الحبيب أن يرفرف على الخلفاء ، فيوسعون له

فى أغلب الأحيان . ويوم رأى دم المعتضد يسيل أمامه اضطرب ، ثم عاد الى داره بالصراة وأنشد فى أصحابه :

يا دما سال من ذراع الامـام أنت أزكى من عنبر ومُدام
قد ظنناك اذ جـريت الى الط ـست دموعا من مقلتى مستهام
انما غـرّق الطبيب شـبا المب ـضع فى نفس مهجة الاسـلام

وبالرغم من أن المعتضد كان فى هذه الفترة — ربيع الأول من عام ٢٨٩ — قد أمر باقامة عدد من المطامير لأهل الجرائم ودار بباب الشماسية فترتب على هذا انتزاع عدة دور وحوانيت من الناس ، فان ابن المعتز الذى كان من عادته أن ينقـد فاسد الأوضاع رفض أن يعلق بشىء . بل أنشد قصيدة نبّه فيها الى ضرورة مساندة الامام ، ولم تخل من ولولة عليه :

طـار قلبى بجنـاح الوجيب جزعا من حـادثات الخطوب
وحـذارا أن يشـاك بسـوء أسـد الملك وسيف الحروب

ومضى شهر حتى أوفى ربيع الثانى من العـام نفسـه على الانصرام ، وقد تعوّد الناس أن يقصدوا دار الأمـير لتسقط الأخبار . ولم يكن ابن المعتز يفصح عن شىء كثير ، ألم يكن من عادته الكتمان ؟ وراح يتذاكر معهم كل شىء يبعدهم عن مشكلات القصر . وكان فى مجلسه اذ ذاك الصولى والحسين بن حمدان وابن حمدون وجحظة وأبو الحسن بن العلاف الضرير سـمير المعتضد وخفيف السمرقندى وغـيرهم . كلهم يأكل ، ويشرب النبيذ المطبوخ — فقد كان هذا مما لا يحرمه الامام — ويتناشد الأشعار الردىء منها وغير الردىء ، الرفيع والوضيع ، ويناقش

المتون الشعرية التى عرضها ابن المعتز فى رسالة يكتبها عن محاسن شعر أبى تمام ومساوئه .

وقرأ عليهم ابن المعتز — للتسلية والتلهية — شعرا لمتوّج ابن محمود بن مروان الأصغر بن أبى الجنوب بن مروان الأكبر ، وكان شعرا رديئا جدا فقال [1] :

— أشبه لكم شعر آل أبى حفصة وتناقصه حالا بعد حال ؟

صاحوا :

— ان شاء الأمير !

فقال :

— كأنه ماء سخن لقليل فى قدح ، ثم استغنى عنه فكان أيام شعر مروان الأكبر على حرارته ، ثم انتهى الى عبد الله بن السبط وقد برد قليلا ، ثم الى ادريس بن ادريس وقد زاد برده ، والى أبى الجنوب كذلك ، والى مروان الأصغر وقد اشتد برده ، والى أبى متوج وقد ثخن لبرده ، والى متوج هذا وقد جمد ، فلم يبق بعد الجمود شىء !

وارتفعت التعليقات ، واشتجرت الآراء وتفرعت . واذا الشعراء والكتاب يمرون على الخاطر ، وتروى آثارهم . وكان من رأى المتنادمين أن عهد الشعر العظيم قد انتهى ، بينما أصرّ الصولى على أن فى ابن المعتز خيرا كثيرا . ثم انبرى ابن حمدون

---

(١) الخبر بالكامل فى الأوراق ١١٦

— كعادته — فدافع عن ابن بسام دفاعا حارا ، وروى بالمناسبة حكاية طريفة (١) .

— كنت ألاعب أمير المؤمنين المعتضد الشطرنج ، فدخل الوزير القاسم بن عبد الله وهو ينشد من قول ابن بسام :

حيـاة هـذا كموت هـذا فلست تخلو من المصـائب (٢)

وجعل يكرر البيت وأمير المؤمنين مشغول باللعب ، ثم التفت اليه فجأة قائلا « يا أبا الحسن لِم لا تقطع لسان هذا الماجن وتدفع شره عنك ؟ » فانصرف القاسم فقلت « ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ القاسم بن عبيد الله لا يصطلى بناره ، وكأنى به وقد قطع لسان البسامى حنقا عليه وهو أحد النبلاء الشعراء فيكون ذلك سبّة على أمير المؤمنين » .

فأمر باحضار القاسم ، وسأله عما فعله فى ابن بسام فقال « قد تقدمت الى مؤنس باحضـاره لأقطع لسـانه » فقـال « يا أبا الحسن اننا أمرناك أن تقطع لسانه بالبر والصلة والتكرمة ليعدل عن هجائك الى مدحك » فقال « يا أمير المؤمنين لو عرفته حق المعرفة وعلمت ما قاله لاستخرت قطع رأسه » عرض بما قاله فى الامام ووزيره (٣) ، فتبسم المعتضد وقال « يا أبا الحسن ، انما

---

(١) راجع الخبر فى معجم الأدباء ٥ : ٣٢٢

(٢) لبيت من قصـيدة كان يهجو فيها أبا القاسم لما مات ابنه أبو محمد الحسين الذى رثاه ابن المعتز .

(٣) كان المعتضد قد أمر بانشاء بحيرة تكلفت ستين ألف دينار ، ليخلو فيها مع جواريه ولا سيما دريرة فقال ابن بسام :

ترك النـاس بحـيرة وتخـلى فى البحـيره
قاعـدا يضرب بالطـبل على بطن دريـره =

أمرناك بتخريب البحيرة لذلك ، فتقدم أنت باحضاره وأخرج ثلاثمائة دينار فان ذلك أولى وأحسن من غيره » .

وضحك ابن حمدون مليا ، ثم مضى مستطردا .

— لقد أحضره القاسم وخلع عليه مضطرا ، ثم ولاه بريد الصيمرة !

وقال جحظة :

— أترى أروى لكم ما يعجبنى فى هذا ؟ اننى أحفظ له بيتا قاله بالمناسبة :

يا من هجـــوناه فأغنـــانا ... أنت وحــق الله أهجـــانا

وتطرّق الحديث الى الهجاء وأثره ، فأجمعوا على أن الحطيئة اذا كان سيد الهجائين فى عصره فابن بسام لابد أن يكون كذلك فى هذا العصر ولا سيما بعد موت ابن الرومى . ثم قالوا ان أوجع هجاء بلا فحش انما يقدر عليه ابن المعتز ، أفلم يقل فى بدعة جارية ابن حمدون :

حــدثونا عن بدعــة فأتينــا ... وتغنت فظــن فى البيت بوق

واذا بشــوكة تقصف يبســا ... فوقهــا وجــه فأرة محــلوق

وفى مغنية أخرى أنشد :

غنـــاؤها يصلح للتـــوبه ... وريقهــــا من ربد الجــوبة

فبادروها بالشرب قد أمسكت ... من قبل أن تلحقهــا النــوبه

= وبلغت الأبيـات المعتضد فلم يظهر لأحد أنه سمعها ، وأمر بتخريب البحيرة ونقض ما حولها من أبنية ورياض .

وللنميرى قال وقد جاءته مغنية قصيرة — كان يهواها — على بغل قصير :

قد أتتنا عنك أخبار في اليوم العجيب
ورأينا نصف بغل فوقه نصف حبيب
أترى ابليس يرضى ببنيات الذنوب

ولبنى طولون :

يا بنى طولون ما فيكم لشر من مزيد
أنتم أسد الثريد ودكاكين العبيد

ولأحمد بن أبى العلاء صديقه الذى كان فى سر من رأى ثم ارتحل الى بغداد مغلقا الدكان الذى كان يجمع شملهم :

يا راكبا فوق بغل للأرض منها دوى
جرداء تذكر نوحا فى المهد وهو صبى
له اذا ما مشى لحظ اليها شهى
لم يبق للرحل منها الا خيال خفى
يعرف الرسم منها شسع عليها حفى

ثم انطلق أبو العلاف الضرير يروى ما عنده من نوادر ، وخص بالذكر نوادر أبى العيناء مع المتوكل ووزرائه . ولكن ابن حمدان أشار بيده فجأة وقال بعد طول صمت :

— والله لا أدرى فيم كلّ هذا ووراءنا ما لعله أكثر جدوى منه ، هلا سألنا ماذا يحدث لو فارقنا الامام ؟

قال ابن المعتز بحدة :

— ولكنه طيب معافى ان شاء الله !

فتدخل خفيف السمرقندى قائلا بلطف :

— ان الامام حفظه الله كان يحتمل علته لو أنه أخذ بنصح الطبيب فالتزم الحمية ، ولكنى أخبركم اليوم أنه أكل سمكا وزاد عليه زيتونا فساءت حاله ، ولما دعا بالطبيب اتهمه بالتقصير ورفسه .

قال ابن حمدون متذكرا بعض أيام خدمته عند أحمد ابن طولون :

— ألا ترون .. هكذا فعل ابن طولون وكان الموت نصيبه ووالله انى لأخشى على الامام هذه المرة .

قال الأمير :

— فليعف الله عن الامام وليمد الله فى عمره ، ولكنى كنت أرجو أن يعود أبو محمد على من الرقة ، اذن لاستوت الأمور على ما ينبغى أن يكون !

وأمسك المتنادمون فجأة ، وامتدت اليه العيون فلم يكن الا أكثرهم تجهما ، وكأنه كان يخشى عصف ريح الترك بعرش آبائه وأجداده . حقا وراء الخليفة وزيره القاسم وثمة بدر مولاه وكذلك فاتك وصالح الأمين حاجبه ويوسف بن يعقوب القاضى وابنه أبو عمر محمد وابنا الفرات خير من تحكم فى الدواوين وأمهر من كتبوا ، غير أن هؤلاء فى نظره لا يمنعون ما يشاء مؤنس وأصحابه .

الفصل الحادي عشر

المكتفي

كان هذا فى يوم الاثنين ، وفى ليلة الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الثانى أسلم المعتضد روحه لخالقه [1] ، وحضر الصلاة عليه وزيره والقضاة والأمـــراء . وكان قد أوصى بأن يدفن فى دار محمد بن عبد الله بن طاهر ، فحفر له فيها على عجل . ثم جلس القاسم فى الحسنى وأذن للناس فعزوه ، وبايعوا لأبى محمد على وهو فى الرقة . ولما وصله كتاب الوزير أخذ البيعة على من عنده أيضا بلقب المكتفى بالله ، وسار الى بغداد فأمر بهدم المطامير التى كان أبوه قد اتخذها لأهل الجرائم [2] .

وكان على ابن المعتز أن يوضح موقفه من الخليفة الجديد ، لا سيما بعدما أشيع أنه هجاه وهو أمير . وكان الترك قد أوقعوا به — كالعادة — فقبض عليه دون اذن الوزير ، وطلب صافى الحرمى الى المكتفى أن يقضى عليه هو وعبد الله بن المعتمد فأبى قائلا :

— هل بلغك أن أحدهما أحدث بيعة علينا ؟

---

(١) العقد الفريد ٥ : ١٢٦ وكانت سنه اذ ذاك خمسا وأربعين سنة وستة أشهر وأياما .

(٢) تاريخ الطبرى ٨ : ٢٠٧ ، ٢٠٨

أجاب صافى :

— لا !

قال الخليفة :

— فما أرى لهما فى ارجاف الناس ذنبا ، فلا تعرض لهما [1] .

ولما أفرج عنه ، أرسل بقصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويذكر جهود القاسم فى سبيلها ، ثم يستعطفه ويقول :

هنتــك أمـير المؤمنين خــلافة
أتتك على الطـير السعادة واليمن
ولمــا أقــرت فى يديك عنـــانها
نشرت على الدنيا جناحا من الأمن
لقــد زفها فى حليهــا رأى قاســم
الى ملك كالبــدر مقتبــل الســن
ألا مذكر بى عنــد خــير خليفــة
جزيل العطايا واســع الفضل والمن
مجالستى اياه فى حــــلم الكــرى
وجــائزتى تمسى الى خلفهــا عنى

ولما كان يعرف فيه لينه وحبه للدعة — برغم تظاهره بالحزم — فقد اختار أرق ما عنده حتى لكأنه كان يحس أنه يولع مثــله بالملاهى ، فضلا عن أنه أصغر منه سنا :

وحــلو الدلال مليح الغضب ... يشــوب مواعيــده بالكذب
قصـــــير الوفــاء لأصحابه ... فهــــم من تلونه فى تعب

(١) الصلة لعريب القرطبى ١٥ .

ويمضى على هذا النحو ذاكرا كل ما كان محظورا عليه فعله أيام المعتضد ، ومصرحا بأن العيش ليس الا لمستهتر « تظل عوازله فى شغب » الى أن يقول :

فيا حسنه بامام الهدى وخير الخلائف نفسا وأب
ورثت الخلافة عن والد فأحرزت ميراثه عن كثب (١)

وكان فى الوقت نفسه يرثى المعتضد ، وان يكن خصومه يرون أنه راح فى الحقيقة يتشفى فيه ، ألم يقل :

يا ساكن القبر فى غبراء مظلمة
بالطاهرية مقصى الدار منفردا
أين الجيوش التى قد كنت تسحبها
أين الكنوز التى أحصيتها عددا
أين السرير الذى قد كنت تملؤه
مهابة من رأته عينه ارتعدا

ولعل ابن المعتز عاود اللهو من جديد لأن شعره فى هذه المرحلة لا يدل على غير ذلك ، وآية هذا قصيدته التى مدح فيها المكتفى والتى يقول فى أولها :

ولا ورمان النهود فوق أغصان القدود

أو لعله ظن أن كل شيء الى صفاء ، ولكن ما حدث غيّر كل وجه الى غير ما توقع . لقد كان بدر المعتضدى يرجو أن يتولى الخلافة عبد الواحد بن أحمد الموفق ، ولكن القاسم خالفه ثم

(١) هناك من يرى كالأستاذ خفاجي أن القصيدة فى المعتضد ، ولكن هذا البيت ينفى ذلك لأن المعتضد لم يل أبوه الموفق الخلافة .

خافه فأمر به فقتل [1] ولما كان المكتفى بعيدا عن هذه الأحداث ولم يشأ القاسم اطلاعه عليه ، حـــدثت بينهما جفوة وعزم على صرفه . فراح هذا يتحايل على البقاء باذلا جهدا ضخما منه ، ولكن لم يلبث أن نزلت به العلة فشغل عن ابن المعتز .

ومما زاد الطين بلة أنه أشار على المكتفى فى آخـــر أيامه باستكتاب على بن عيسى بن الجراح أو العباس بن الحسن ، فقدم العباس للوزارة . وبذلك انتهى عهد الطمأنينة الذى رفرف طويلا على الأمير المنكود ، وبدأت فترة القلق التى راح يعانى فيها ضيق الدخل وقلة المورد . فقد كان العباس من أبخل رجال الدولة على ابن المعتز !

وهنا ، أو من هنا قرر ابن المعتز أن يعود الى أوراقه وكتبه ، ففيها الزاد للمستزيد .

(١) راجع الطبرى ٨ : ٢٠٩ واعتاب الكتاب ١٨٤ وما بعدها .

الفصل الثانى عشر

أستاذ وتلاميذ

انه الآن وبرغم كل شيء يعيش أكثر أيام شهرته ، وكان الصولى قد وقع على رسالته « فى محاسن شعر أبى تمام ومساويه » فأذاعها وأثار بها أكثر من مشكلة شغلته هو عن كثير مما يفكر فيه ويهتم له . والحقيقة أنه كان لرأيه الذى بسطه فى « كتاب البديع » أثر كبير فى تعقيد المناقشات وتعديد الآراء ، وكان أن لهج بشعره ولا سيما ذلك الذى يصدر عنه بالتشبيهات والأوصاف وصنوف البديع الأخرى[1] .

أجل ...

وقد عنّ لبعض صحبه أن يتساءل كيف له أن يبرز فيما يعجز عنه عادة الأمراء وسائر الملوك حتى وان كانوا من بنى هاشم ، ولئن كان قد أذيع أخيرا أنه أولى بتسود البيان فقد أبى من جانبه أن يرفض هـذه السيادة . ولعلها كانت تدغدغ آماله وتهدهد

(١) أثبت ذلك الأولون فقال صاحب العمدة مثلا ان ابن المعتز ينقاد بطبعـه الى التشبيه (١ : ١٩٤) وقال صـاحب معاهد التنصيص (٢ : ٤٠) انه أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات .

غروره ، وتعوضه عن مرات الاخفاق التى أصيب بها فى حياته السياسية .

أجل كانت رسالة ابن المعتز فى محاسن شعر أبى تمام ومساوئه مثارا لذلك ونحوه ، كما كانت محور الجلسة التى اجتمع فيها لفيف من صحبه لفتهم همه بالبديع . وكان قد صرح بأن مسلم بن الوليد هو أول من وسعه ، ولما جاء أبو تمام أفرط فيه وتجاوز المقدار حتى ان أحدا من بعده لم يفقه . وعندما قيل له ان يحيى ابن على بن المنجم يرى غير هذا ، ثار شيئا ثم قام الى صحيفة ورمى بها الى الصولى وهو يقول :

— ما لصاحب هذه أن يحكم ، انظر .. أترى فيها لفظة رائعة أو معنى مليحا ؟

فقال الصولى :

— الأمير أيّده الله أعلم بهذا منى ومن جميع الناس !

قال :

— ما فيها لفظة تمرّ فى طريق الاحسان الا قوله « والشعر صوب العقول » وقد سرق هذا اللفظ ثم أتبعه بما ليس بسرقة من لفظه الغث ، وانما أخذه من قول أبى تمام :

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت
حياضك منه فى العصور الذواهب

ولكنه صوب العقـول اذا انجلت
سـحائب منـــه أعقبت بسحائب

قال الصولى فى أناة والحضور صامتون :

— لقد جوّده أبو تمام وبينه وان كان المعنى أخذه ...
قال ابن المعتز مقاطعا :
— من أين أخذه ؟
أجاب :
— من قول أوس بن حجر :
أقول بما صبّت عليّ غمـــامتى
وجهـدى فى حبـل العشرة أحطب
فقال على الفور :
— أجل من هنا والله أخذه !
وجعل المنتدون يعجبون من فطنته بالشعر حتى تجرأ جعفر ابن قدامة فقال :
— مرحى بأمير بنى هاشم مرحى ، والله انهم لأرق الناس أفهاما وأدقهم أذهانا وأحسنهم طبعا ، ولكن يكفى الواحد منهم قدحه حتى يتأجج ناره !
فقال أبو سعيد الأسدى وكان واحدا من أساتذة الأمـير وقلما زاره :
— لتكن جلستنا على ما آخذنا به من الدرس فنجزى خيرا ، فانه لا يكون أفضل من أن تقول أحسن هذا وأجاد هذا وتخلف هـذا .
قال الصولى :
— اذن فليقل الأمير أيده الله من أين أخذ أشجع قوله :
وليس بأوسـعهم فى الغنى ولكن معـروفه أوسـع

فقال :

— من قول موسى شهوات لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

ولم يك أكثر الفتيــان مالا ولكن كان أرحبهــم ذراعــا

فقال محمد بن داود بن الجراح وكان حاضرا :

— انه والله لحافظ .

قال ابن المعتز :

— ولكن ثمة من يرمينى بالتحــريف ، أما تعلمــون أن أبا عمرو بن العلاء والأصمعى وأبا عبيدة وسائر علماء البصرة والكوفة قد حكى عنهم غلط وتصحيف ؟ كما يقال انما العالم من أحصى غلطه وزلله !

قال بعضهم :

— نعم ما من أحد الا وقد حفظ عليه شيء من ذلك .

فقال :

— أفترونى فى العلم فوق هؤلاء ؟ تحدثت يوما فذكرت يوم بُعاث فقلت : يوم بغاث وكنت قرأت ذلك فى كتاب على غلط ممن كتبه ، فسمع ذلك يحيى بن على فطار به فى الناس . ثم لم يرض بذلك حتى عمل رسالة يعذرنى زعم فيها ، ويذكر من صحّف وما سمع هذا غيره وغير اثنين كانا عندى ، وما كان ليسمع هذا أحد فيشهره علىّ وما أشاعه عنى غيره . ثم تحمد علىّ بأنه عمل رسالة يعذرنى فيها ، فنادى علىّ بها فى الناس ، وما هذا آخر فعلنا به واصطناعنا له ولأبيه وجده .

وكذا ذهب الحديث مذاهب ثم عاد ثانية الى البديع ، فلم يبق مسلك من مسالك شعرائه الا ضرب بهم فى شعب من شعابه وأراهم أحسن ما قيل فى بابه الى أن قال :

— اذا قلت « كأن » ولم آت بعدها بتشبيه ففض الله فاى ، وانى اذ أعدوه أسأل ما أحسن استعارة اشتمل عليها بيت واحد من الشعر ؟

فقال أستاذه الأسدى :

— قول لبيد .

وغـداة ريح قد كشفت وقرة اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

قال ابن المعتز :

— هذا حسن وغيره أحمد منه ، وقد أخذه من قول ثعلبة ابن صغير[1] :

فتذاكرا ثقلا رثيدا بعـد ما ألقت ذكاء يمينهـا فى كافـر

وقول ذى الرمة أعجب الىّ منه :

ألا طرقت مى هموما بذكرها وأيدى الثريا جنح فى المغارب

فقال ابن الجراح :

— بل قول لبيد :

ولقد حميت الخيـل تحمل شكتى
فرط ، وشاحى ان غـدوت لجامها

(١) شاعر من مازن ورد ذكره فى المفضليات وكان صحابيا ، وفى البيت يتحـدث عن الظليم والنعامة ، أما الرثيد فهو المنضود يريد بيضهما المنضود ، وأما الكافر فهو الليل المظلم .

قال ابن المعتز :

— ولكن ينزل عن قوله « وغداة ريح »

قال ابن الجراح :

— وهذا البيت :

ولو أننى استودعته الشمس لاهتدت

اليـه المنـايا عينها ورسـولها

قال ابن المعتز :

— هذا حسن وأحسن منه فى استعارة لفظة الاستيداع قول الحصين بن الحمام لأنه جمع الاستعارة والمقابلة فى قوله :

نطاردهم نستودع البيض هامهم

ويستودعونا السمهرى المقوما

فقال ابن العلاف :

— بل قول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى

وساق الثريا فى مـلاءته الفجـر

قال ابن المعتز :

— هذا لعمرى نهاية الخبرة ، وذو الرمة أبدع الناس استعارة وأبرعهم عبارة ، الا أن الصواب « حتى ذوى العود والثرى » لأن العود لا يذوى ما دام فى الثرى .

قال الصولى :

— بل قوله

ولما رأيت الليل والشمس حية
حياة الذى يقضى حشاشة نازع

فقال ابن المعتز :

— اقتدحت زندك يا أبا بكر فأورى ، هذا بارع جدا وقد سبقه الى هذه الاستعارة جرير حيث يقول :

تحيي الرواسم ربعها وتجده
بعد البلى فتميته الأمطار

وهذا بيت جمع الاستعارة والمطابقة ، لأنه جاء بالاحياء والاماتة والبلى والجدة ، ولكن ذا الرمة قد استوفى ذكر الاحياء والاماته فى موضع آخر فأحسن وهو قوله :

ونشوان من طول النعاس كأنه
بحبلين فى أنشوطة يترجح
اذا مات فوق الرحل أحييت روحه
بذكرك والعيس المراحيل جنح

ويبدو أن أبا سعيد الأسدى قد خاف أن ينتهى المجلس دون أن يلم بالرسالة عن أبى تمام ، فبادر الأمير بقوله :

— والله ما نحب أن نمضى بعد ذلك وأنت أنقد النقاد[1] حتى تزودنا مما فى رسالة المحاسن والمساوىء .

---

(1) استعمل ابن عبد ربه هذا التعبير فى العمدة (١ : ١٨١) وقد اعتمدنا فى هذا الفصل عليه فى مواضع مختلفة وكذلك على موشح المرزبانى ٣٠٧ وما بعدها ، وزهر الآداب ٤ : ١٢٣ وما بعدها ، وأخبار أبى تمام ١٨٤ ، ورسائل ابن المعتز بتحقيق خفاجى ١٦ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٨ (ط . الحلبى سنة ١٩٤٦)

قال :

— فليقرأها أبو بكر أو ليقرأ منها ما اتسعت له حالنا !

وبدأت القراءة فاذا أول الرسالة اعتذار رقيق ثم اقرار بأن بعض أهل الأدب اذا كانوا يقدمون أبا تمام على غيره فان بعضا آخر يؤخره على ما يدعو اليه اللجاج . فأما قولنا فيه فانه بلغ غايات الاساءة والاحسان فكأن شعره قوله :

ان كان وجهك لى تترى محاسنه
فان فعلك بى تترى مساويه

فمما أنكر عليه قوله فى قصيدة :

تكاد عطاياه يجن جنونها   اذا لم يعوذها بنغمة طالب

ولم يجن جنون عطاياه انتظارا للطلب ؟ يبتدىء بالجود ويستريح ، وفيها يقول :

يقود نواصيها جذيل مشارق
اذا آبه هم ، عذيق مغارب

على أنه كثير الأسفار فأراد بذلك قول القائل : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب !

وقوله فى قصيدته التى أولها :

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد
وعاد قتادا عندها كل مرقد

لعمرى لقد حررت يوم لقيته
لو ان القضاء وحده لم يبرد

فلم تخرج ها هنا المطابقة خروجا حسنا ، ولا تحسن فى كل شىء ، وقوله :

لو لم تدارك حسن المجد مذ زمن
بالجود واليـأس كان المجد قد خرقا

فقوله : حسن المجد ! من البديع المقيت ، وقال يصف المطايا :

ارقالها يعضـيدها ووسـيجها سـعدانها وذميلهـا تنومهـا

الارقال ضرب من السير ، وكذلك الوسيج والذميل ، واليعضيد نبت وكذلك السعدان والتنوم . يعنى أنه لا علف لها الا السير ، وقد سبق الى هذا المعنى وكسته الشعراء من الكلام أحسن من هذه الكسوة ... »

واستمرت القراءة متأنية ، والقوم وراء كل كلمة وفى صدر كل فكرة . ولم يكن يغيب عنهم اهتمام ابن المعتز بذلك الشاعر الذى احتل مكانة لم يستطع أن يزيحه عنها خصومه وتلاميذه على حدّ سواء . انه دائم الاشارة اليه كثير الرواية لشعره ، ولئن كان يراه متفردا بمذهب ويمزج فيه بين ألوان الصنعة القديمة والجديدة مع نزعة عقلية واتجاه رمزى قصصى فقد ينبغى ألا يظهر دونه قط . ولعل هذا سرّ عكوفه على تصويراته وتشبيهاته ، ثم لعله سرّ تعقب سقطات الطائى على النحو الذى كشفت عنه رسالته .

وبعد أن أحصى له من خسيس الكلام وأجرئه على الأسماع ما يعادل أخطاءه التى لم يسبق اليها وما لا يترفع به عن تعبيرات المهجنين واستعمالات المهجنين ...

كذلك بعد أن رصـد لبعض ابتداءاته المذمومـة نحو قوله

« خشنتِ عليه أختَ بنى خُشين » وبعض استعمالاته للغريب المصدود عنه ...

تقول بعد أن فعل ذلك قال « وللطائى سرقات كثيرة أحسن فى بعضها ، وأخطأ فى بعضها . ولما نظرت فى الكتاب الذى ألفه فى اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء ، وانما سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعض عدة يرجع اليها فى وقت حاجته ، ورجا أن يترك أكثر أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختيـــاره لهم ، فتعمى عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر فى سرقته حتى يزيد فى اضاءة المعنى ، أو يأتى بأجزل من الكلام الأول ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما تقدمه ولا يفتضح به ، وينظر الى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير اليه » .

وتوقف الصولى وكأنه ساءه ما يورده الأمير ، فأشار القوم أن يمضى دون أن يناقشوا أو يعترضوا . وراحوا يصبرون أنفسهم على ما يساق عن أبى تمام وهـــو يغوص على المعانى فيتكلف — كما تقول الرسالة — ويخرج عن القصد والاعتدال ، حتى اذا قال « وقد أسقطنا من معايب شعره شيئا كثيرا لم نثبته فى رسالتنا هذه وقصدنا من ذلك ما يبهر الحجة ويفلّ حد النصرة » انبرى جعفر بن قدامة يقول :

— فما تركت له أيها الأمير رحمك الله ؟

أجاب :

— ليقرأ أبو بكر ولكن رأيى أن الطائى كثير الشعر جدا وأكثر ما له جيد !

ثم أومأ الى الصولى فعاد هذا الى القراءة دون أن يتبين أحد تغيّر نبرة ابن المعتز الا فى حالات نادرة فكان يقول « ومن العجائب قوله » ويقول « ومن عجائبه أيضا قوله » ولا يمنعه ذلك من استهجانه والتنبيه على وجوه السرقة فيه .

« ومن العجائب قوله :

فدى له مقشعر حين تسأله خوف السؤال كأن فى خده وبر

وقوله :

ما زال يهذى بالمكارم والعلا حتى ظننا أنه محموم

وقال فى وصف الفرس :

امليسه امليده لو علقت فى صهوتيه العين لم تتعلق

فسرقه من أمرىء القيس حيث يقول : متى ما ترق العين فيه تسفل ! وبيت امرىء القيس أصح معنى لأنه أراد أن العين اذا صعدت فيه صوبت اشفاقا عليه من أن تصيبه ، خبرنى بذلك أبو سعيد . وأراد الطائى أن العين لا تتعلق به من انتقال لونه واملاسه ، فأفرط ولم يصنع شيئا » .

وقد انفرجت أسارير أبى سعيد الأسدى لذكره اسمه فى معرض التدليل ، ولكنه أخفى اغتباطه وانتهز فرصة توقف الصولى فقال :

— الامليد والأملد الناعم !

فقال ابن المعتز :

— ذكرتهما والله أبا سعيد !

وقام الرجل فقبل بين عينيه فكانت حركته ايذانا بانفضاض المجلس ، فطوى الصولى ما بقى من الصفحات وهو يسأل نفسه :

— اذا كان أبو العباس قد غمر كلاً منا من بحره ما غاض فيه معينة ، فلماذا لم يزودنا من بره لأبى تمام ما كان أحرى به وأخلق ؟

الفصل الثالث عشر

حديث ذوشبجون

كان الوزير يستصفى لنفسه من الرجال جماعة منهم أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح الذى ألف « الورقة » فى الشعراء المحدثين المغمورين — غالبا — وأبو الحسن على ابن عيسى بن الجراح الذى كان القاسم يحبه وآثر العباس ممالأته . وكذلك كان من جماعة هذا الوزير ابنا الفرات أبو العباس أحمد وأبو الحسن على ، ثم كاتب صغير طموح يسمى ابن مقلة ، وفاتك المعتضدى ، وغلام تركى اسمه يلبق ، وبشر الخادم الافشينى ، وسوسن الحاجب .

ومن المحزن أن هؤلاء — باستثناء أبى عبد الله محمد بن داود ابن الجراح — كانوا لا يميلون الى ابن المعتز . وكان أسوأ هؤلاء بعد الوزير أبا الحسن على بن محمد بن موسى بن الفرات ، وهو يكبر الأمير بست سنوات أو سبع . ولولا وجود ابن الجراح فى جماعة الوزير ، لكان أطيح بابن المعتز منذ بعيد .

اعتاد هذا الرجل الكاتب أن يحضر مجالس الأمير فيجتمع عنده بالدمشقى وابن جرير الطبرى واليزيدى النحوى وابن

دريد والأخفش الأصغر والصولى وهارون بن المنجم وابن ثوابه الكاتب وأبو القاسم جعفر بن قدامة . وكانت مجالس الأمير فى هذه الفترة تتجنب اللهو والقصف فتجنبها جحظة ومن لف لفه ، ولولا أن الصولى قد وضع فى الآونة تلك كتابه « أخبار أبى عمرو ابن العلاء » وأراد طرحه ومناقشته لمراجعة ما فيه لما كلف نفسه مشقة أن يتحمل تلك المحاضرات التى لا تجعل للطرب ولا للهو ولا للشطرنج سبيلا .

ولكن فى هذه المرة خرج المجلس عما ألف أن يصدر عنه ؛ اذ وقع بعد حادثة مصرع ثعلب [1] فى احتفالات بغداد برؤية رأس صاحب الشامة القرمطى يطاف بها .

كانت ليلة ذكريات عن أساتذة الأمير ...

لكن أىّ حديث !

فى أوائل أيام المعتضد — رحمه الله — مات البلاذرى بعد أن هجا على علمه وفضله كل انسان حتى صاعد بن مخلد وآل وهب ، ثم تبعه المبرد فثعلب ، وكان بين هذين ما يكون عادة بين المتنافسين المتعاصرين ، اشتهر ذلك حتى قيل :

كفى حزنا أنا جميعا ببلدة ويجمعنا فى أرضها شر مشهد

---

(١) كان ذلك سنة ٢٩١ ويحسن مراجعة تاريخ أبى الفداء ٢ : ٦٣ ، ٦٤ ومعجم الأدباء ٢ : ١٣٤ ويروى أن الخيل داسته فى الطريق وهو مستغرق فى قراءة رسالة . لقد ثقلت أذنيه شيخوخة ، فلم يسمع حوافر الخيل فدفعته الى هوة ، ولما نقل الى بيته بات كالمختلط يتأوه ثم مات .

نروح ونغـدو لا تزاور بيننا وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننـا فى بلدة والتقـاؤنا عسـير كلقيـا ثعلب والمبرد

وكان المبرد فى الواقع يحب الاجتماع بثعلب وثعلب يكره ذلك ، لأنه كان يخشى بيانه وسلطانه على النفوس . ولقد تنبأ بموت ثعلب — بعد نعى المبرد — ابن العلاف الضرير ، اذ قال :

ذهب المبرد وانقضـت أيامه وليلحقن مع المبـــرد ثعلب

واها لتلك الأيام الخوالى التى كان فى وسع المرء فيها أن يتزود من هذا وذاك ، ويسمع من العلم أطرافا ، ويعى من صنوف الحكمة ما تضل عنه أوهام حكماء العصر . أترى يقدر واحـد من هؤلاء المجتمعين على ما قدر عليه هؤلاء الثلاثة الذين رحلوا ؟

كان ثمة موت .. بلا ميلاد !

ولكن لا ، ففى البلد الفريد المتلىء .. الذى يعج بالثقافات والآراء من الشرق والغرب ، وتجتمع فيه أطراف بالمسجد الجامع وبالمكتبات وقصور الأمراء ، ويستقبل كل يوم فكرة طريفة ...

فى هذا البلد يجب أن يكون ميلاد !

وها هو ذا مجلس فيه ابن دريد الشاب الكهل الى جانب الدمشقى العجوز المسن . وابن المعتز والصولى ، أليسـا من الضرب الذى ينطق بالحق والحكمة ؟ وقد يلهو هذا أو ذاك ، ولكن ألم يله البلاذرى والمبرد ؟ لنستمع الى قول الأخـير فى مجلس أنس[1] .

(١) الأبيات فى معجم الأدباء ٧ : ١٤٠

حبـــذا ماء العناقيـ ـــد بريق الغانيـــات
بهمـــــا ينبت لحمى ودمى أى نبـــات
أيهـا الطالب أشـــهى من لذيذ الشـــهوات
كل بمـاء المزن تفـــا ح خـدود الفتيـــات

وصفق المتسامرون وقد نسوا أنهم فى مجلس أسى ، ولكن الحديث ذو شجون !

ولا بأس اذا عرض لسياسة الوزير العنيفة فقورن سـخطه بسخط البلاذرى ، وقد يعنّ لأحد أن يزعم أنه سوف يوسوس كما وسوس أستاذ الأمير . ثم لا بأس أيضا اذا أعيدت حكايات القرامطة ونوقش ابن المعتز فيما يحمله عليه هؤلاء ، وينبرى الصولى متسائلا فيتساءل غيره ، فتثار على هذا النحو قضية الطالبيين ، ولا يقول ابن المعتز أكثر مما اعتـاد أن يقول مبرئا نفسه من تهمه سبّ علىّ ثم ينشد :

رثيت الحجيج فقال العــدا ة سب عليـــا وبنت النبى
أآكل لحمى وأحســو دمى فيـــاقوم للعجـب الأعجب
على يظنون بى بغضـــــه فهلا ســوى الكفر ظنوه بى
اذن لا ســـقتنى غدا كفه من الحوض والمشرب الأعذب
بلى قرمطيين مَتُّــوا اليـــ ـه بالنسب الأفجـر الأكذب

ان الجميع الآن يتحدثون عن الهاشميين ، والكل يتنافس أى الرجال ينال حظوة فرض رأيه على غيره . وحتى بعد أن مـد السماط وجىء بالمرق من السكباج ايذانا بطعام شهى ، لم يجر أى تعديل فى خط سير المناقشة . ولما قدمت مطبوخات البقول

بدأوا يخوضون فى سيرة المعتمد ، ثم جرى ذكر المعتضد على أنواع الدراج والأسماك والمتبلات من اللحوم ، وكان من نصيب المكتفى السنبوسج المحشوة باللحم والدهن والزنجبيل .

ثم لم تمنع الحلوى من الفالوذج واللوزينج ولا النقل من أن يقرّ الجميع بأن المكتفى دون أبيه برغم انتصاراته المتعـددة على القرامطة . لقد وقع تحت تأثير وزيره العباس والحرم ومولاه فاتك، ولا يغنيه قط أن يكمل قصر التاج ويبنى مسجدا فى ساحة البلاط ثم يعمر خزينة العامة بما يزيد على أربعة آلاف ألف دينار !

ان شيئا يجب أن يقع .

يجب أن يعمل الراشدون فى هذه الأمة على أن يعلم الامام بأن الأطماع مستحكمة من جميع الجوانب والأموال تستخرج بكل سبيل ، حتى ليهون كل ما فعله أبو الصقر اسماعيل بن بلبل. وتوقف ابن الجراح — وقد كان هذا رأيه النهائى — ولعله ظن أن فى الحضور من لعله يشى به على نحو ما ، ثم استطرد ملتفتا الى ابن المعتز :

— لا فض فوك أبا العباس يا أمير اذ قلت « أفما ترى بلدا أقمت به » ولعل من يرويها ، ولكن المعتضدية هى المبرزة .. هلموا يا حفاظ !

وأنشدت الأرجوزة فسئل فى نهايتها عن العلة فى أنه جعلها من المزدوج ، أليست رجزا والرجز أحلاه وأفخمه ما يمضى كله مصرعا ؟

ويحس بالرضى اذ رأى الحديث يجاوز نقطة الخطر ، فيمسك

الخيط وينطلق محاولا أن يكشف لهم عن أنه فى المزدوج انما يبغى السهولة ارضاء للعامة مع الخاصة . وأما الرجز المصرع فهو للقلة التى يرضيها ما يفرضه الروى من احالة واغراب ، وهو يريد أن يروع كما روع ذو الرمة ، وهذا الدليل :

قد أغتدى والصبح ذو مشيب
بقارح مسوّم يعبوب
ذى أذن كخوصة العسيب
أو آسة أوفت على قضيب
يسبق شأو النظر الرحيب
أسرع من ماء الى تصويب
ومن نفوذ الفكر فى القلوب
وأجدل حكم بالتأديب
صب بكف كل مستجيب
أسرع من لحظة مستريب

وكان الأمر يحتاج الى دليل ثان والى ثالث والى رابع ، فمضت الروايات بالشاهد بعد الشاهد حتى أوغل الليل . وحان موعد انصراف الجماعة ليستولى على الأمير ذلك السأم الفظيع الذى درج على أن يصيبه فى الأيام الأخيرة . ولكن ها هو ذا يمن يهمس اليه بأن بنت الكراعة فى الناحية الأخرى من الدار تعد له مجلس غناء مع ظريفات بغداد ، فيبش شيئا ثم يقطب ولا يفعل أكثر من الاستمرار فى المناقشة .

الفصل الرابع عشر

رحلة خائبة

أصبح ابن المعتز فلبس سواده وقلنسوته وركب الى قصر الحسنى

لقد أقر على نفسه اقرارا خطيرا عندما أعلن أنه راحل عن بغداد الى سرّ من رأى ، وكان قد سوّى مشكلته مع أخيه اسماعيل وأعاد تجديد الدار بالمطيرة . وبما تبقى لديه من مال جدّد قبر أبيه ونسّق ما حوله وكأنه يريد أن يبدأ عهدا جديدا للبلد الذى أسرع اليه الخراب .

انه يذكر أنه كتب لأحد أصدقائه يوما يقول عن هذا البلد « الظاعن منها ممحوّ الأثر والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره ارجاف وسروره أحلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض وقرار الملك : تفيض بالجنود أقطارها عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد » .

ومع ذلك فهى فى نظره أفضل من بغداد الوسخة السماء ذات الماء الحميم — كما يقول — والشمس التى تحرق والتراب الذى يثور .

ان ادباره عنها وفيها أهلها الذئاب ذوو المال المكتوم ، الذين تنهضهم رأس يطاف به أو جثة تعلق ، وتقعدهم صهلة جواد فوقه فارس من الترك .. ادباره عنها دونه اقباله عليها ؛ فما عاد يعنيه أن يرتع بين مبانيها وقصورها ومصانعها ، وما عاد يرضيه أن يقع بصره على الأسوار فى كل مكان وعلى القباب المرفوعة فوق العمد الدقاق حتى لكأنها معلقة فى الهواء .

أجل ...

وجدرانها المزينة وسقوفها الملونة بفصوص الفسيفساء وتصاوير النبات والطير والحيوان .. كلها لا تذكره الا بالحرمان الذى عاد يلح عليه منذ استولى الوزير أبو أحمد العباس — هذا الجرجرائى الملعون — على السلطة ومن ورائه الحرس التركى ونساء القصر . وكان قد اختار للدواوين أصدقاءه ومقربيه وأوقع بين آل الفرات وآل الجراح ليتمكن من بسط يده الى كل شىء .

حقا عادت الى الدولة هيبتها وانكسر القرامطة أكثر من مرة ، وها هو ذا كبيرهم ذكرويه مقتول[1] ورأسه معلق فى ساحة قصر الخلد القديم منذ ثلاثة أيام ، غير أن الأمور لا تبشر الا بضيق كبير . والا فهل بعد أن يمدّ يده الى مال ابن الجصاص شىء أكثر مهانة .

---

(١) هاجم ذكرويه عام ٢٩٤ قوافل الحجاج ونهبها ، فأرسل المكتفى اليه وصيف بن صوار تكين صديق ابن المعتز فتمكن من أسره جريحا . ولم يعش ذكرويه بعد ذلك أكثر من ستة أيام (راجع تاريخ أبى الفداء ٢ : ٦٥)

هو من أجل ذلك يريد أن يطلب من الخليفة أن يسمح له بالرحيل الى البلد الذى أحبه ، ويترك مدينة الزندور التى بنتها الشياطين كما يقال [1] ، ويبعد عن مرأى الروميات والسنديات والتركيات والنوبيات اللائى يتناثرن فوق كل جسر ويقعدن فى كل دار وقد تزين بالديباج وعلقن فى أعناقهن قطع العقيق أو صلبان الذهب . ولعلهن يرقصن من « الدستبند الى الايلا » كما يعرف هو تماما ، وكما أثبت فى صنعة الغناء بكتابه الجامع .

فى كتابه « الفصول القصار » [2] أودع أمورا عن الدنيا وخباياها وضروب النعيم والشقاء بها ، ولكن الحياة أكبر من كل ذلك وأعقد .

ولهج فى كثير من شعره بالحكمة والموعظة ، وكشف عن تجربته . ولكن هيهات ، فما يحدث كل يوم يقصر عنه كل جهد !

ولذا ليس أمامه الا العزلة ، وما من شىء واحد من الأشياء التى كانت تغريه بقادر على أن يبقيه فى المدينة التى بنتها الشياطين وتسكنها الشياطين .

فلما وصل الى القصر توقف شيئا . انه مقام على شاطىء النهر

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٦٣

(٢) هو تدوين لخواطره ومشاهداته وآرائه فى السياسة والزهد والصفات . والكتاب ليس موجودا ، ولكن الاثبات القديمة أشارت اليه واقتبست منه (راجع على سبيل المثال زهر الآداب للحصرى ٢ : ٢٤٢ ، ٣ : ٩٢) . ويرى الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل أن هذا الكتاب بما فيه من عناية بروابط الناس وشئون الحياة يدل على طموح ابن المعتز الى الخلافة ورغبته فيها (راجع عبد الله بن المعتز صفحة ١٨٠ وما بعدها)

وله نوافذ ورواشن وشرفات يطل بعضها على المـــاء المنساب ، وبعضها الآخر على ساحة العرض . وثمة بهو أشبه بمصطبة عظيمة مرصوفة بالرخام الملون ، ويظللها سقف عليه نقوش صفر لامعة، والسقف قائم على أساطين رفيعة محلاّة بالذهب .

وكان ما بداخله أروع ، أين منه ما فى داره البغيضة ؟

واقترب من القاعة التى يجلس فيها الخليفة ، فرآه قاعــدا أو لعله نصف قائم على سرير مرصع بجواهر لا كجــواهر ابن الجصاص . كان السرير على سدة فى صدر القاعة منصوبة بين اسطوانتين رائعتين مجللتين بالوشى المنسوج بالذهب ، ومن خلف السدة وعلى الجانبين الغلمان الحجرية وفى يد كل منهم سيف مسلول ، وغير بعيد وقف مولاه سوسن .

أهى معركة ؟

وبدا الخليفة أسود الشعر وافر اللحية عريضها ، ولكن لونه باهت يضفى على وجهه مسحة كهولة مع أنه فى الثلاثين . وكان يبتسم ، فانحنى الأمير وقبّل ما بين يديه ، فقال المكتفى :

— مرحبا بالعم مرحبا !

قال ابن المعتز :

— نعم الله عند أمير المؤمنين أطال الله بقاءه .

أشار اليه المكتفى فقطع كلامه ، وقال هو :

— ما تأمر به يا عماه ؟

أجاب :

— أن أترك هذا البلد الى سامرا فان رأيت ...

قاطعه مرة ثانية قائلا :

— ولكننا نحتاج هنا الى جميل اسهامك فيما نصنع ، فكيف أعزّك الله تهجرنا يا عم » .

أجاب ابن المعتز :

— الأمر على ما تعلم قلة فى المورد وضيق فى الدخل حتى لم أعد قادرا على أن أفتح بيتى للضيف والعلماء .

تساءل الخليفة :

— فماذا يفعل وزيرنا أبو أحمد .

فأطرق الأمير ، وأراد سوسن الكلام ولكن المكتفى قال :

— سنرحل معا الىَ سامرا للتصيد فارسم يا سوسن بانفاذ من يصلح الطرق ويعد العلوفة والمير وكل ما تدعو اليه حاجة العسكر . وأما أنت يا عم فستكون معنا وسأكلم أبا أحمد أمامك ! ألا تدرى ماذا هنالك ؟ ان جماعة من الكتاب قد غلبوا على ضياعنا فى القاطول وعليهم من حقوق بيت المال ما نحتاج معه الى القبض عليهم وارتجاع ما حصل فى أيديهم .

وبهت ابن المعتز ، ثم وجد نفسه يسأل :

— من هؤلاء يا أمير المؤمنين ؟

قال :

— أبو الحسن بن الفرات فان أبى رحمه الله وثقه ووثق أخاه أبا العباس وعوّل عليهما فى حفظ الأموال فنالا منها .

وهنا قال سوسن :

— لقد راجعهما الوزير فصدقت أمانتهما يا مولاى ، وصحح

أبو الحسين أمس ثلاثين ألف دينار عند صاحب بيت المال وأخذ الوزير خطه بقبضها .

فضحك المكتفى وقال :

— فلتكن رحلة سرور !

ولم ينته اليوم حتى كان الموكب على الطريق ، كل فرد فيه سعيد سوى ابن المعتز . حتى الوزير كابى العينين كان يضحك ، وكان يسمع الى الغناء بقلب ابن العشرين ، وقيل انه قصف في فسطاطه بعد أن آوى الخليفة الى فراشه .

والهواء بارد وقلب ابن المعتز أكثر برودة ، ومن حوله محمد ابن داود بن الجراح وعلى بن عيسى ومحمد بن عبدون يؤكدون جريمة ابن الفرات وفساد صنيعه .

هكذا تدار الأمور ، والخليفة الضعيف لا يعرف شيئا . يخرج للقنص ، ولا يعنى الا بملاهيه ، ونسى كل شيء حتى قضية عمه . أجل نسيها ، لأنه لم يشر اليها قط مع أنه جمعه بالوزير على مائدته ، وكان على المائدة نفسها يحيى بن المنجم فخاض في خصومته معه !

عجبا ...

من ساعتها قرر ابن المعتز ألا يتكلم ، وعندما طلب اليه ابن الجصاص أن يوسط الى أبى أحمد فارس داية المكتفى — وكانت كلمتها مسموعة عند الخليفة ووزيره — رفض باصرار ، وقضى أيام الرحلة يشعر بالخيبة والمرارة . ولم ينقذه من الموت

سأما الا برم الناس بشدة البرد الذى يلاقونه والقشف الذى يقاسونه حتى أغروا جارية فغنت :

قالوا لنا ان فى القاطول مشتانا
ونحن نأمل صنع الله مولانا

والناس يأتمرون الرأى بينهم
والله فى كل يوم محدث شانا

ولما انتهت سأل المكتفى عن قائل الشعر ، فقيل :

— يحيى بن على المنجم !

فأثنى عليه وأمر بالرحيل الى بغداد ، فعاد ابن المعتز الى بيته كسيفا . وفى اليوم التالى علم أن المكتفى مريض ، وأن الدابة فارس اجتمعت مع جيجك أم الخليفة ، ثم استدعت مؤنسا والوزير وسوسن المولى . ولما خرج هؤلاء من عندها راح اسم أبى عبد الله محمد بن المعتمد واسم أبى الفضل جعفر بن المعتضد يدوران على الألسن ، ولم يذكر أحد أبا العباس عبد الله بن المعتز !

الفصل الخامس عشر

مسح الزمن

جلس ابن المعتز وقبالته هارون بن المنجم يقرأ عليه كتابه « البديع »[1] ويراجع معه ترجمة وضعها حنين بن اسحاق لكتاب أرسطو « الخطابة » وكان الأمير غير ملتفت تماما الى قراءته فقد

---

(١) كانت النسخة المنقولة عنه تتعرض لشك الباحثين ، الا أن أول ناشر لها سنة ١٩٣٥ بلندن - وهو المستشرق الروسى كراتشكوفسكى عضو المجمع العلمى العربى بدمشق - أكد فى مقدمتها التى كتبها بالانجليزية صحة نسبة الكتاب الى ابن المعتز ، مستدلا على ذلك بنقل متأخرى النقاد عنه واشاراتهم المستمرة اليه . وقد قام الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى سنة ١٩٤٥ باعادة نشر الكتاب ، معتمدا على طبعة أوروبا ، ومضيفا اليها اضافات مفيدة . واذا كان الدكتور محمد مندور يرى فى كتابه « النقد المنهجى عند العرب » أن ابن المعتز قد أخذ مصطلحات كتابه أو بعضها من ترجمة حنين بن اسحاق لكتاب ارسطو فى الخطابة (ص ٤٤) فان الدكتور الكفراوى فى كتابه « عبد الله بن المعتز العباسى » يرى أن معظم ما فيه من معلومات كان متداولا بين نقاد العرب (ص ٢٩) برغم ما يقوله ابن المعتز فى متن الكتاب « وما جمع فنون البديع ولا سبقنى اليه أحد » وان يكن فى موضع آخر من كتابه يقول « البديع اسم موضوع لفنون الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء بالشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو » .

بلغه اليوم أن أحد اللذين دار اسمهما على الألسن فى ولاية العرش أصيب بفالج ، اذ كان محمد بن المعتمد فى مجلس العباس بن الحسن يناظر عمرويه صاحب الشرطة . فثار واحتد ، ثم وقع ، فنقل الى بيته داخل قبة خاصة وهو مشلول [1] .

« قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن . ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه . ثم ان حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع وأكثر منه ، فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض وتلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف . وانما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع . وكان يستحسن ذلك منهم اذا أتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل . وقد كان بعض العلماء يشبه الطائى فى البديع بصالح بن عبد القدوس فى الأمثال ، ويقول لو أن صالحا نثر أمثاله فى شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على ميدانه ، وهذا أعدل كلام سمعته فى هذا المعنى » .

ويمضى ابن المنجم ، بينا ابن المعتز يقلب الأمر على وجوهه .

---

(١) الصلة ص ١٦ فى أحداث سنة ٢٩٥

وقد كان حريصا جدا فى هذه الأيام على أن يحسب حساب كل شيء ، ويسأل ، ويعلل . فمن يدرى ، فلعل الوزير كان يقصد شيئا من وراء تلك المناظرة العجيبة ، أو لعله أراد أن يهيىء الناس الى الأمر الجديد وكان المكتفى قد راح فى أول غيبوبة له . ولكن أين من يفضحه ؟

أين ابن بسام الذى سكت عن هجائه أخيرا ، وكان له فيه كل يوم قطعة هجاء ؟

وابن المنجم يقرأ ، ويمضى خطوة خطوة . فالبديع فن قديم لم يخترعه أبو تمام كما يزعم الزاعمون ، وانما هو موجود فى كلام العرب وفى القرآن الكريم ، وبذلك يكون المحدثون غير سابقين الى شيء قط وان يكن لهم فضل وضع الاسم .

والوزير أبو أحمد العباس — فكر ابن المعتز — قد قدم للناس بنهاية تلك المناظرة اسم الخليفة الجديد .. جعفر بن المعتضد ذلك الحدث الصغير الذى ذهب مهنئا الى الحسنى بيوم ميلاده منذ ثلاثة عشر عاما أو نحو ذلك ! أتراه يستحق أن ينصب اماما على الأمة والمكتفى يصر على اختياره ؟

ولكن كيف يتولى امامة المسلمين غلام فى الثالثة عشرة ؟

ألم يعد فى البيت العباسىّ الكفء سواه ، أم هـذه ارادة الوزير الداهية ومن ورائه نساء القصر وصافى الحرمى ومؤنس وفاتك المعتضدى ؟

ولكن صوت ابن المنجم يصل الى سمعه متحدثا عن الاستعارة — وهى أول الأبواب الخمسة التى اشتمل عليها كتابه — فينصت

الى قوله فيها انها « استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها » . لم يخالفه أحد فى ذلك ، فضلا عن أنه اتفق مع المعلم الأول على ما جاء فى ترجمة حنين . لقد مضت عشرون سنة وهو يقول هذا ، ويردد نفس ما ردده فى الأبواب الأربعة الأخرى وهى « التجنيس » و « المطابقة » و « ردّ العجز على الصدر » و « المذهب الكلامى » .

ومع قلة أمثلة الكتاب — وهى شيء يعترف به — وانحصاره فى سبعة عشر ضربا من ضروب البلاغة كحسن الخروج والكناية والافراط فى الصفة ولزوم ما لا يلزم وتأكيد المدح بما يشبه الذم، واعتماده على أستاذه ثعلب أحيانا وأستاذه المبرد أحيانا أخرى.. فانه كان لابدّ أن يقرر بغير غرور « وما جمع قبلى فنون البلاغة أحد ولا سبقنى اليه مؤلف ، ومن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى اضافة شيء من المحاسن اليه فله اختياره » .

أجل .. لم يكن ثمة غرور الا عند أبى أحمد ، وبغروره ذاك سطا على ما فى حوزة الناس وغش واحتال ليؤكد أن الخديعة سلاح يمكن أن يكسب به معركة البقاء فى هذا الزمن المخاتل . هو يقول انه حفظ كيان الدولة من التصدع ، وخصومات الناس وقيام الفرق تقول غير ذلك !

ان هذا ضرب آخر من الغرور .

وأفظع منه استكباره ، ورغبته فى أن يتملقه النــاس وهو يتملق فاتكا وسوسنا وغيرهما . بل يتملق فارس الداية ، ويمشى

فى جماعته ابن الفرات ومثله ممن يدلى بدلوه فيما يستقى منه ، ولله درّ ابن بسّام حين قال ذات يوم :

وزارة العباس من نحسـها ستقلع الدولة من أسـها
شـبهته لما بدا مقبـلا فى حلل يخجل من لبسـها
جارية رعنـاء قد قورت ثياب مولاها على نفسـها

وضحك بصوت عال ، فانقطع ابن المنجم ، وراح يتساءل . ولكن ابن المعتز طلب اليه أن يمضى زاعما أنه كان يجب ألا يساوى بين الاستعارة فى بابها وأبواب التجنيس والمطابقة وردّ العجز على الصدر ، لأنها ليست مثلها مجرد محسنات لفظية يحدد بها مذهب البديع . الحقيقة أنها لباب الشعر ، كما أن المذهب الكلامى جدل عقلى يمكن أن يميز الشعر الذى صدر عنه أبو تمام وان يكن ضربا من التكلف فى التفكير أخذه عن الجاحظ ومثله من علماء الكلام .

هكذا كان يجب أن توضع الأمور ، وهكذا كان يجب أن يقع التقدير !

ولكن ما كان أشبهه فى فورة شبابه بما يقدم عليه أبو أحمد اليوم ! ألم يوعز الى من قال انه لا يستحسن تولية جعفر لصغر سنه مع أن المكتفى أبدى رغبته فى حفظ الخلافة فى أبناء أبيه ؟ لقد أثار شكوك الخليفة شيئا فطالب باحضار القضاة فى يوم الجمعة الماضى — لاحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة — وأشهدهم أنه جعل ولاية العهد لجعفر[1] .

---

(١) راجع ابن الجوزى فى المنتظم ٦ : ٦٧

ما ذلك التردد ؟

اقرأ يا رجل، فقد أفاد الكتاب شيئا ولم يفد الوزير . ووالله لو أنه اقتصر على تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبواب البديع ، لكفاه . غير أنه مع ذلك ديوان فى نقد النصوص ، تناقش به الألوان الجميلة .. كلٌ فى باب ، ثم يكون الى جانبها دائما ما عيب من الشواهد المتكلفة السقيمة . وقد يبدو هو أحيانا متعجلا فيه ، وقد يضرب بعرض الحائط أجزاء من السند ، بل قد يلجأ الى التعميم والاجمال .. الا أنه مع كل أولئك حافظ به على مستوى رفيع من الأداء ، وقدم شروحا وتصريفات للكلمات على نحو ما فعل أساتذته فى كتبهم .

وقد عرضت له المرة بعد المرة فرصة التعـديل والتطويل ، فأبى ؛ لأنه كان من رأيه أنه مهما يحاول فيه فلن يكون ما يأتى به الا نافلة .

وانتهى ابن المنجم ، وتغير الحديث بسرعة الأحداث التى كانت تجرى فى بغداد اذ ذاك . وصرح ابن المعتز — كما اعتـاد أن يفعل — بأن لديه سببا قويا يدعوه الى الاعتكاف ، لئلا يورطه أحـد فى مناقشات لا ترضى أولى الأمر . فهو ليس كالمغامرين اليائسين الذين لا يجـدون وجهـا للعيش الا فى مخـاطرة من المخاطرات ، انه لا يطمع فى أكثر من الهدوء والأمان مرتفعـا ما استطاع عن مستوى الأرض المغمور بالادران والمهانة .

لقد علمته التجربة أن شيئا سوف يحدث ، وكان من رأيه أنه كلما بعد عن القلب جاوز منطقة الخطر !

الباب الثالث

المؤامرة

الفصل الأول

تداول

لم يكن ابن المعتز يعرف ماذا يدبر داخل الحسنى على وجه التحديد ، لأنه من ناحية كان قد ترك الأمور للقدر فهو وحده صاحبها ، ومن ناحية أخرى كانت الأحداث لا تجـرى بمنطق بحيث تفسح المجال للتدبير المسدد . وكان قد بلغه أن المكتفى أرسل يستدعى أخاه جعفرا من دار ابن طاهر ، حيث كان يلزمه هو وأمه شغب وخاله أبو القسم غريب وقهرمانة تدعى أم موسى وخادم يدعى شفيعا .

ثم أشيع أن الخليفة لم يعط عهدا صريحا لأخيه ، ومن أجل ذلك راح الوزير يستشير جماعته . وقد أعلن محمـد بن داود ومحمد بن عبدون أنهما يرشحان أبا العباس عبد الله بن المعتز ، اذ بالاضافة الى صداقتهما له كانا يعهدانه رجلا قديرا ذا تجربة كبيرة وعلى احاطة كاملة بأمور الحرب والسياسة[1] .

كان ذلك يوم الجمعة الحادى عشر من ذى القعدة ، وفى

---

(١) مسكويه فى كتاب تجـارب الأمم ١ : ٢ والصابى فى تحفة الأمراء ١١٤ وما يأتى بعد ذلك منقول بنصه عن هذين الكتابين .

مجلس كتاب الحضرة أفتى غير واحد بابن المعتز أيضا . ولكن أبا الحسن بن الفرات أمسك ، فقال له العباس :

— لم أمسكت ولم تورد ما عندك ؟

فقال :

— هو أيها الوزير موضع امساك .

قال :

— ولِم ؟

فقال مشيرا الى الخليفة المريض :

— انه وجب أن ينفرد أعزه الله بكل واحد منا فيعرف رأيه وما عنده ، ثم يجمع الآراء ويختار منها بصائب فكره وثاقب نظره ما شاء . فأما أن يقول كل واحد رأيه بحضرة الباقين فربما كان عنده ما يسلك سبيل التقية فى كتمانه وطيه .

قال الوزير أبو أحمد العباس :

— صدقت والله قم معى !

وأخذ بيده ودخلا ، وتركا الباقين فى مكانهم ، فقال له ابن الفـرات :

— قررت رأيك على ابن المعتز ؟

قال الوزير وهو يجس نبضه :

— هو أكبر من يوجد !

فقال :

— وأى شىء تعمل برجل فاضل متأدب قد تحنّك وتدرب وعرف الأعمال ومعاملات السواد ومواقع الرعية فى الأموال ،

وخبر المكاييل والأوزان وأسعار المأكولات والمستعملات ومجارى الأمور والمتصرفات ، وحاسب وكلاءه على ما تولوه ، وضايقهم وناقشهم وعرف من خياناتهم واقتطاعاتهم أسباب الخيانة ؟ كيف يتم لنا معه أمر ان حمل كبيرا على صغير ، وناقش جليلا على دقيق ؟ هذا لو كان ما بيننا وبينه عامرا ، وكان صدره علينا من الغيظ خاليا ، فكيف وأنت تعرف رأيه ؟

قال أبو أحمد :

— وأى شىء فى نفسه علينا ؟

قال :

— أنسيت أنه منذ ثلاثين سنة يكاتبك فى حوائجك فلا تقضيها ويسألك فى معاملاته فلا تمضيها ؟ وعمالك يصفعون وكلاءه فلا تنكر ، ويتوصل فى الوصول اليك ليلا فلا تأذن . وكم رقعة منه جاءتك بنظم ونثر فلم تعبأ بها ولا أجبته الى مراده فيها ! وكم قد جاءنى منه ما هذه سبيله فلم أراع فيه وصولا الى ما يريد ايصاله ! وهل كان له شغل عند مقامه فى منزله وخلوته بنفسه الا معرفة أحوالنا والمسألة عن ضياعنا وارتفاعنا وحسدنا على نعمتنا ؟ وهذا هو يعتقد ان الأمر كان له ولأبيه وجده وأنه مظلوم منذ قتل أبوه مهضوما مضغوطا ، فكيف يجوز أن نسلم اليه نفوسنا فنتحرس فضلا عن أموالنا ؟

فقال العباس :

— صدقت والله يا أبا الحسن فمن يقلد وليس هاهنا أحد ؟

قال ابن الفرات وقد أدرك أنه تمكن من الوزير :

— تقلد جعفر بن المعتضد فانه صبى لا يدرى أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب فكيف أن يجعل خليفة ويملك الأعمال والأموال وتدبير النواحى والرجال ؟ يكون الخليفة بالاسم وأنت هو على الحقيقة ، والى أن يكبر تكون محبتك قد انغرست فى صدره وحصلت محصل المعتضد فى نفسه !

قال الوزير محاورا :

— فكيف يجوز أن يبايع الناس صبيا أو يقيموه اماما ؟

فقال له :

— أما الجواز فمتى اعتقدت أنت أو نحن امامة البالغين من هؤلاء القوم ؟ وأما اجابة الناس فمتى فعل الخليفة شيئا فعورض فيه ، أو أراد أمرا فوقف ؟ وهذا وأكثر من ترى صنائع المعتضد ، واذا أظهرت أنك اعتمدت فى ذلك مراعاة حقه واقرار الأمر فى ولده وفرقت المال وأطلقت البيعة ، وقع الرضا وسقط الخلاف .

وسكت قليلا ثم استطرد :

— وطريق ما تريده أن توقف بعض أكابر القواد وعقلاء الخدم على المضى الى دار ابن طاهر وحمل جعفر الى دار الخلافة ، وأن تستر الأمر الى أن يتم التدبير ، وان اعتاص معتاص مد بالعطاء والاحسان .

فقال العباس :

— هذا هو الرأى !

الفصل الثانى

بيعة وضيعة

وفى صباح السبت التالى[1] أخبر الوزير مؤنسا بما تم بينه وبين ابن الفرات فاستحسنه . ثم أمر صافيا الحرمى بالتوجه الى دار ابن طاهر واحضار جعفر الى قصره الذى يسكنه على دجلة لينحدر معه الى الحسنى .

وخلال ذلك أسلم المكتفى روحه الى بارئها ، وتأكد انه أوصى لأخيه جعفر بالخلافة .

وهرع الوزير أبو أحمد الى قصره منتظرا صافيا ، ولكن هذا انحدر من دار ابن طاهر بحراقته متجاوزا قصر الوزير وقد ظن أنه يريد القبض عليه لتغير رأيه فيه — وقد كان كثير التلون مذبذبا — فلما أخبر أن صافيا منع ملاّح الحراقة من الوقوف على قصره عاد الى الحسنى بهامته الكظة وهو يقول :

— لقد كنت أريد أن أصحب أمير المؤمنين ، فلو كان استصباه أحد كنت آخذ بيده حتى يتم الأمر على ما قدر .

وكانت شغب وسائر الحرم من وراء الستار ينصتن ، ووقف

(١) راجع الصلة ١٦ ، ١٧ والمنتظم ٦ : ٦٧ ، ٧١ وتحفة الأمراء ١١٦ والعقد الفريد ٥ : ١٢٧

جعفر حدثا ربعة أبيض البشرة دقيق المـلامح يتطلع الى سرير العرش مبهوتا ، ثم أمر بحصير صلاة وأدّى أربع ركعات . وراح يرفع صوته بالدعاء والاستخارة ، حتى أجلس على السرير بين يدى صاف وفاتك ، والوزير يتطلع بعينيه الكابيتين .

واتفق على أن تكون المبايعة — التى تمت يوم الأحد — قصيرة مختصرة المراسم . لقب فيها بالمقتدر بالله بعد أن ثبت أنه « بلغ » فى شعبان الماضى أى قبل البيعة بثلاثة أشهر . وخـرج المبايعون وهم لا يعرفون أرضوا هم عن امامهم الجديد أم لم يرضوا ، ولكن صوت الوزير كان يردد :

— أنا أوقع لكم وأنتم افعلوا ما فيه المصلحة !

ثم غسل المكتفى ودفن بجوار أبيه فى دار ابن طاهر ، ونشبت فتنة بين الجند ورجال البلاط ففرقت فيهم أموال البيعة وذكروا بالمعتضد وما ينبغى نحوه من حق الوفاء .

وكان ابن المعتز على رأس المبايعين ، وقد تأخر حتى يزجى تهنئته لشغب . ثم خرج فى صحبة صاف الحرمى ونصر القشورى وفاتك المعتضدى ، وهو لا يعرف لماذا يصحبونه ، ثم تبين بعـد قليل من مسيره معهم أنهم يريدون اختياره . فصرح لهم بأنه راض كل الرضى عن المقتدر ؛ فهو كالابن له فى درجات النسب ، وأبوه ولىّ نعمته ، فضلا عن أنه ينزل على رغبة الأمة .

وسرى عنهم أو اطمأنوا ، فانطلقوا يحكون أطرافا من حياة الخليفة « العظيم » ويعرضون لصلاحه ولطفه وذكائه ، قال القشورى :

— انه كان يقول لو وليت لجعلت نقش خاتمى « الحمد لله الذى ليس كمثله شىء وهو على كل شىء قدير » ومن أجل ذلك آثر أن يلقب بالمقتدر .

وقال فاتك المعتضدى :

— انه لا يكون بين يدى جاريته ظلوم ويسمع أذان الله حتى يهرع الى الصلاة ناسيا كل شىء .

وقال الحرمى :

— ولكن ما قولكم فى جميل صنعه وبره ؟ لقد مشيت يوما بين يدى المعتضد رحمه الله وهو يريد دور الحرم ، فلما بلغ الى باب أم المقتـــدر وقف يتسمع ويتطلع من خلل الســـتار فاذا بالمقتدر ، وله اذ ذاك خمس سنين أو نحوها ، جالس وحواليه مقدار عشر وصائف من أقرانه فى السن ، وبين يديه طبق فيه عنقود عنب فى وقت لا يوجد فيه العنب . والصبى يأكل عنبة واحدة ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة على الدور ، حتى اذا بلغ الدور اليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فنى العنقود ، والمعتضد يتميز غيظا . فرجع ولم يدخل الدار ورأيته مهموما فقلت « يا مولاى ما سبب ما فعلته وما قد بان عليك ؟ » فقال « والله يا صاف لولا النار والعار لقتلت هذا الصبى اليوم ، فان فى قتله صلاحا للأمة » فقلت « يا مولاى حاشاك أى شىء عمل ؟ أعيذك بالله يا مولاى اللعين ابليس ! » فقال « ويحك أنا أبصر بما أقول ، أنا رجـــل سست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولابد من موتى. وأعلم أن الناس بعدى لا يختارون غير ولدى وسيجلسون ابنى

عليا وما أظن عمره يطول للعلة التى به [1] فيتلف عن قريب ولا يرى الناس اخراجها عن ولدى ولا يجدون بعده أكبر من جعفر ، فيجلسونه وهو صبى له من الطبع فى السخاء هذا الذى قد رأيت من أنه أطعم الصبيان مثل ما أكل . ساوى بينه وبينهم فى شىء عزيز فى العالم ، والشح على مثله فى طباع الصبيان ، فتحتوى عليه النساء لقرب عهده بهن فيقسم ما جمعته من الأموال كما قسم العنب وتحدث الأسباب التى يكون فيها زوال الملك » فقلت « يا مولاى بل يبقيك الله حتى ينشأ فى حياة منك ويصير كهلا فى أيامك ويتأدب بآدابك ويتخلق بخلقك ، ولا يكون هذا الذى ظننت » .

وسكت صاف فقال ابن المعتز :

— ليته بقى !

فقال فاتك :

— ماذا تعنى أيها الأمير ؟ أفتحسب أن تصبح الصورة بعينها كما قال المعتضد ؟

قال الأمير وهو يبتعد :

— والله لا أدرى .. لا أدرى !

وكان قد عقد العزم على أن يتخير أحد المواضع البعيدة عن الناس . فثم تطيب النزهة ، ويلتقى بطلاب الشراب القدماء . الا أن قدميه قادتاه الى دار ابن جرير الطبرى ، ولما دخل عليه

(١) على هو المكتفى وكانت علته ورما فى حلقه لعله السرطان ، وأطلق عليها فى عصره الخنازير .

وجده بعد أن قدم البيعة عاكفا على الجزء الأخير من كتاب التاريخ الذى تجرد له منذ سنوات فقال له :

— أو سجلت البيعة الجديدة أيها الشيخ ؟

أجاب الطبرى مستأنيا :

— لم يحن الوقت بعد .. فيم العجلة رحمك الله ؟ ولكن أتظن ما حدث صوابا كله ؟

قال ابن المعتز :

— والله لا أدرى .. لا أدرى ! ومع ذلك فحسبى الأسوة بأعيان القوم وان أخطأوا . ولعمرى أنت لن ترى سواى أكثرهم وفاء بالعهد ، وأصدقهم حملا لهذه البيعة !

فأطرق الطبرى مليا ثم همس :

— فيم مجيئك اذن أيها الأمير ؟ ان نفسى والله لتحدثنى بخطير وأعجب لها أن تصورك لى نفسين اذا مضت احداهما بقيت الأخـــرى .

قال ابن المعتز :

— ماذا تقصد يا شيخنا ؟

قال :

— ان لم أخطىء أراك موزعا بين شيئين أحلاهما مر ، فأما الخلافة فأيسر ما فيها أن تقلد أصحابك فيكثر أعداؤك ، وأما الأخـــرى ..

وسكت فقال الأمير :

— ما الأخرى ؟

أجاب :

— حياتك هذه اللاهية التى لم يمنعك عنها شيخوختك المبكرة ولا كثرة السعاة عليك .

فقال ابن المعتز :

— كلنا يلهو أيها الشيخ .. وهل نسيت ما فعله الأئمة كلهم ؟ أقسم أن امامنا الصغير لن يكون أكثر من أكبر كبير فيهم !

فأشار الطبرى أن يكف ، ومضى يقول :

— أما أن تتحدث عن أمير المؤمنين المقتدر بالله فليس لك فيه حيلة ، وأما سلفه فقد اجتذبوا قلوب الناس بما شيدوا وما جمعوا من أسباب القوة والسلطان .. ألم يقضوا على الزنج ويشتتوا القرامطة ؟ ألم يستردوا مصر والشام من الطولونيين ؟ ماذا فعلت أنت ازاء هذا ؟

قال ابن المعتز :

— وقفت معهم ثم شيدت دونهم ما سوف يخلد .. قل بربك أعزك وهداك هل تقيس التاج والثريا بطبقاتى ان كنت قرأته أو بفصول تماثيلى ؟ بل هل تقيسهما ببعض شعرى .. بالمعتضدية مثلا ؟ أنا لا أتيه ولا أتبجح ولكنى أنشد الحق وأقوره ولا أريد من الباطل أن يرتفع !

ولم ينتظر أكثر من ذلك ، فقد انصرف وهو يستشعر أنه مضيّع لا يفهمه أحد .

الفصل الثالث

التدبير الجديد

من المؤكد أن تولية المقتدر كانت غير شرعية ، الا أن أحدا لم يجرؤ على أن يجاهر بذلك سوى قاض واحد أطاع ضميره وقال :

— هو صبىّ ولا تجوز المبايعة له .

فقتل.. أمر بقتله أبو أحمد العباس بن الحسن وشجعه أبو الحسن ابن الفرات الذى أصبح فيما يبدو صاحب المشورة . وعلى الرغم من أن أم المقتدر كان يرجع اليها فى كل شىء — وكانت رومية لها تدبير الروم ودهاؤهم — وتمنع عن القصر حصيف الرأى قوى الخطر[1] فان الوزير قد زاد فى الأمر بعد أن فـوّض اليه كل شىء فى الظاهر واستكبر على الناس وأساء معاملاتهم حتى قال الشاعر :

يا أبا أحمـــــد لا تحـ ـسن بأيامـــك ظنـا
واحذر الدهر فكم أهـ ـلك أمـــلاكا وأفنى
كم رأينـــا من وزير صار فى الأجداث رهنا
فتجنب مركب الكـــ ـبر وقل للنـــاس حسنا

وعلى أثر ذلك أمر باسم المقتدر أن يرفع الحوانيت التى بناها

(١) يروى أنها كانت لا تمنى الا بحديث سندباد وكتب عجائب البحر وقصص الحيوان كالسنور والفأر .

المكتفى فى باب الطاق على أساس أنها أضرت بالضعفاء ، وكان يشيع أن الخليفة سأل : كم تغلّ ؟ فلما قيل له ألف دينار كل شهر قال :

— وما مقدار هذا فى صلاح المسلمين واستجلاب حسن دعائهم ؟

ولكن هيهات !

ان التذمر بات أكبر من أن يسكت عليه ، ووجدت بين صفوف آل الجراح حركة ترمى الى تغيير الأوضاع بأىّ شكل . وانضم اليهم الحسين بن حمدان قائد الجيش فى حروب القرامطة وكان قد اصطدم بأم موسى ، وصرح بأن مؤنسا الخادم يوشك على الادبار لأمر مثل هذا .

وكانت الأرزاق اذ ذاك توزع بغير حساب ، وردّت رسوم الخلافة الى ما كانت عليه من التوسع فى الطعام والشراب ، وفى الوقت الذى احتشد فيه الجلساء وأكابر الملهين ومن يجرى مجراهم على أبواب الحسنى من أجل ذلك وخُصص قصر الرصافة للجوارى والحرم المحتاجات ، كانت دار ابن المعتز خاوية على عروشها . وكان هو يتوصل للعيش بمثل ما يتوصل به الطالبيون الذين يهجوهم ، حتى غدا أضحوكة منهم .

ولقد فكر أن يقصد الى دار آل وهب بباب المخرم ، ثم فكر فى ابن الجصاص وما يملكه من مال وجواهر ، وفى محمد بن أبى داود بن الجراح الذى لم تنتقص منزلته فيما أشيع عنه وعلى رغم كراهية أبى الحسن بن الفرات له وتأثير ذلك عند الوزير .

غير أنه وقف عند مرحلة التفكير ، وكم طاف على بغلته — بلا موكب — شوارع بغداد وكم وقف على ديوان السواد وورد على باب الشماسية ! وفى احدى المرات عاد فوجد — لدهشته — رقعة من الوزير أبى أحمد يقول فيها « قرأت كتابك تذكر فيه علتك وما تريد يأتيك بمكانك » ولم يكن ذكر شيئا ولا شكا علة ، وخشى لو أن أحدا أنهى باسمه كتابا الى ديوان التوقيع حيث تنتهى عادة رقاع من يسأل شيئا عند أمير المؤمنين .

ألم يكن كل شيء يجرى بغير منطق ؟

وأتاه فى يوم ثان أبو بكر محمد بن يحيى الصولى ، وكان قد علم أنه وهب دارا من الدور التى كانت فى يد فارس داية المكتفى وعمل لبستانها مسناة[1] وذلك نظير تدريب المقتدر على الشطرنج ، فسأله عن حاله فقال :

— لا أجد من آمنه على نفسى غيرك وقد قصدتك لتفتح لى ما أغلقه دونى قصر الامام !

قال ابن المعتز :

— ما شيء فى يدى أبا بكر ، أم لعلك اخترت أن تكون التابع فى هذا الزحام ؟

قال أبو بكر :

---

(١) المسناة : سد يبنى لحجز مياه النهر وبه مفاتيح للماء تفتح على قدر الحاجة .

— أذلّ الحرص أعناق الرجال .

فقال ابن المعتز :

— ولكن ألا تحفظ من قول ابن الفرات الرجل الأول بعد أبى أحمد ما قاله من أن السيف تابع والقلم متبوع ، وقل سيف غلب القلم الا كان داعية الخراب !

وهزّ الصولى رأسه وخرج ، فلم يلبث أن قدم عمال الوزير ومعهم ما وعد به ، وسلم رقعة واضبارة وكان فى الرقعة « يا أبا العباس عافاك الله فى هذه الاضبارة سعايات بك وبأخيك اسماعيل من أسبابكما وردت علىّ منذ وليت حكم هذه الأمة ، فبعثتها لك لتعرف بها من عليك أن تحذره » .

ولم يكن فى الاضبارة الا أسماء لا تعنيه فى شيء وان يكن بينها النميرى ويحيى بن على بن المنجم فى داليته « أبعد البين صبر أو هجود » وأحمد بن أبى العلاء صاحب دكان سرّ من رأى ، وابن بسام الشاعر وابن أخت ابن حمدون . وكذلك كانت هناك مقتطفات من أقواله فى « الفصول القصار » وبعض أبيات من المعتضدية وردت فى التعريض بالحكام . وقد سلمها الى يمن ، وهو يقول :

— خذها فاطرحها فى الكانون فما كنت لأعنى بهذا الصغار ، ووالله لا أدرى هل أمدح أبا أحمد على ما وهبه لى من تفضله أم أهجوه ؟ لكم أخشى بوادره وشره !

وفى هذا الوقت بالذات — ولم يكن قد مرّ الا أربعة أشهر على تولية المقتدر — مضى هذا الوزير ومعه فاتك المعتضدى الى

محمد بن داود بن الجراح بداره . فاذا هناك الحسين بن حمدان، فدار الحديث عن غضبة مؤنس الخادم من حرم القصر لتدخلهن فى كل صغيرة وكبيرة وتنحية الرجال أمثاله عما هيئوا له ، فقال الحسين :

— قد عرفنا خطأنا الا أنه قد لزمنا عهده .

فقال الوزير ملتفتا الى ابن الجراح :

— أتذكر يا أبا عبد الله يوم استشرتك فيمن يلى الخلافة وكان معك ابن عبدون ؟

وهنا دخل مؤنس وهو يضحك — ويبدو أنه كان على موعد معهم — ثم أخرج صفحة فيها أبيات من الشعر قال انها لابن بسام وراح يقرأ :

يا رب انك عــــدل على البرية شـــاهد
ثـــلاثة ليس فيهم الا ثقيـــل وبارد
بنـــو الفــرات ثقال وكلهم لك جاحـــد
يا رب ان كان لابـــد من ثقيل فواحـــد

وتعالى الضحك ، ولكن الوزير ذكر أن أبا الحسن بن الفرات استقل بديوان الخراج ومن استقل بهذا الديوان نال الوزارة ، ثم انقطع ليسأل فجأة :

— وماذا قال البسامى فىّ أيضا ؟

ولم يتكلم أحد ، فتولى هو الحديث معلنا أنه الملوم ، وأنه يطمع فى الاصلاح وارجاع الأمر الى أصحابه ، فقال ابن الجراح :

— هيهات .. ضاع ما نشدناه للناس من احسان !

فعاد الوزير يقول :

— وماذا يردنا اليوم عن ردّه فنحق الحق ونعطى الأمر لصاحبه ؟

أجاب ابن الجراح :

— البيعة والناس الذين نستنصرهم .

قال الوزير :

— أما البيعة فأمرها هيّن وصاحبها مسلوب الارادة مذهوب الجنان ، وأما من نستنصرهم فهم كثير !

قال ابن الجراح :

— لا أعنى عامة القوم فهؤلاء يسهل ارضاؤهم ولكنى أعنى الوجوه وهم لهم فى حكم المقتدر اربة .

قال مؤنس لأول مرة :

— وماذا عنكم أنتم يا آل الجراح ؟

قال ابن الجراح :

— أنا لا أضمن الا نفسى ، ولا بأس من ابن أخى أبى الحسن على بن عيسى ، وانه والله كما أعلم وتعلمون منذ تقلد ديوان المغرب رجل صدق وبلاء .

قال فاتك :

— أنا أضمن لكم الحجرية والمفلحية والديالمة وغيرهم من المماليك ، كما أضمن المصافية بباب العامة .

قال ابن الجراح :

— لا أعنى هؤلاء أيضا ، وان يكن ينبغى حساب أمرهم ، ومع ذلك فمن سواهم وسوى على بن عيسى ؟

قال الوزير :

— أبو المثنى وأبو عمر القاضيان !

قال ابن الجراح :

— بئس الرجلان .. الأول يعلن فى اليوم أنه نادم لأنه بايع لصبى فأحدث حدثا وغدا يعلن شيئا آخر ، والثانى هو ما هو من الغدر وضعف الهمة وسوء التدبير ، فمن غيرهما ؟

أجاب الوزير :

— محمد بن سعيد الأزرق الأنبارى كاتب الجيش وبدر الأعجمى ووصيف بن صوار تكين .

وسكت فقال مؤنس :

— تذكرون هؤلاء وأمامكم ابن حمدان فهو الدرع الذى يحمى صدوركم وظهوركم فى الأمر الجديد .

وعلى هذا النحو امتدت المناقشة وطال القيل والقال ، ثم وكل لكل من ابن الجراح وابن حمدان أمر ابلاغ ابن المعتز على أنه اختير للأمر الخطير باجماع قادة الأمة واستشارة زعمائها ، ومن ثم يجب أن يخلع المقتدر بعد أن تجىء المبايعة الجديدة من الناس فى الأطراف[1] .

---

(١) راجع تاريخ ابن الاثير ٦ : ٢ — ١٢٣ (ط . المنيرية سنة ١٣٥٧)

الفصل الرابع

وراء المصير

نحن الآن فى عام ٢٩٦ وحركة التذمر تشتد محتجة على سوء الأحوال . وكان منجل الطغيان يحصد رقاب القادة فى السرّ ، ويظهر غريب الخال بالقوة التى تظهر بها أم موسى ومن ورائهما شغب تبذر فى أمور النفقة تبذيرا مخيفا ، وتبسط سلطانها باسم الخليفة الذى تفرغ تماما لجاريته ظلوم .

ولم يعد هناك من يقرأ ابن المقفع ولا أبا حيان ، كما توقفت حـركة نشر الكتب . واكتفى بروايات تميـم الدارى وغرائب الأصمعى ونوادر أبى العيناء ، تسرد ما لم تكن هناك جريدة عن الحسنى .. جريدة بالأنباء قصيرة ، لاذعة ، مخرجها الأول الوزير أبو أحمد على النحو الذى يشاء !

ان بغداد الآن موضع يتصف بالقلق والترقب ، والأيام التى كانت تعجّ بالاحتفالات قد انقضت ، وانقضت معها ضروب الزينة والزركشة كما اختفت الجوارى اللائى كن بهجة الطريق بشعورهن المطمومة وأقبيتهن التى تلتزم الجسد حتى لترسم للعين تقاطيعهن الممكورة ، وأفسحت السبيل للفرسان والشرط والجواسيس .

لم يكن هناك شيء واضح وراء كل ذلك ، ولكنه الحدس !

وبحدسه فارق ابن المعتز بغداد فى ثياب العامة .. ازار بسيط وقميص ودرّاعة ثم سترة طويلة رخيصة ، وترك يمنا وبعض خدمه على وعد أن يعود الى داره بالصراة بعد شهور .

ان وجهه جامد ولكن نظرته العميقة تنم عن أسى ووجد ؛ فوعد الدنيا الى خلف وبقاؤها الى تلف ، وبعد عطائها المنع وبعد أمانها الفجع ، وانها لطواحة طراحة آسية جرّاحة ، فمن لم يتأمل الأمر بعين عقله لم يقع سيف حيلته الا على مقاتله [1] .

لقد اعتاد أن ينفض من حوله الناس ، ثم يقبلوا . ولكنه فى هذه المرة يبدو البادىء بالفرقة مدفوعا من احساسه بالخواء الذى يدفعه دفعا الى البعد عن أقرب الخلصاء .

ان السأم هو الشىء الذى فات الجاحظ أن يصفه للناس كما وصف البخل مع الجوارى والغلمان .

فمثل ابن المعتز كمثل الطير لابد أن تغريه الريح بالحركة كى يظل جاثما فوق الرياض والأنهار ، ولابد أن يكون بحاجة الى الجو المنعش الذى يحلق فيه برضى وأمان ، فاذا غامت السماء وثب الى حيث يكون الصحو .

وهو فى هذه المرة وراء الصحو فى قطربل أو طيزناباذ بعد أن رأى المطيرة قفرا أو كالقفر !

لقد كان أبو نواس كلما أعيته الحيلة وسدت أمامه السبيل يذهب الى « جابر » الذى يعتق الشراب سنين بالحيرة ويقول

---

(١) هذه السطور من نثر ابن المعتز فى مأثوراته .

حالما يراه « لا يجتمع هذا والهم فى صدر واحد » ويسمع الى ضرّاب الطنابير فيسكر فى الليلة الواحدة سكرات ، ويعانق ويجمش معتدلات القوام ذوات الحسن مرات

فأين جابر ؟

انه يعرف بعض الحانات مخصصة لنزه الخاصة والسراة من الناس ، ولكنه لا يريدها فى هذه المرة .

انه يريد هذه المنطرحة متعددة العرصات التى يجتمع فيها السفلة وترتع الركائب حولها ، ولا يكون فيها رقيب الشرطة الا كما يكون طراق الليل مجونا وخلاعة . ولا بأس اذا كانت هنالك هذه المقرطقة التى اختفت من شوارع بغداد ، وتستطيع أن تتثنى كما يتثنى الغصن تحت كل هبة نسيم :

صحوت ولكن بعد أى فتون
فلا تسألونى توبتى ودعونى
ودبّ مشيبى بعضه نحو بعضه
فأخرجنى من أنفس وعيون
فأفردت الا من تصنع خائن
سريع شرار الشر غير أمين
وخمارة يعنى المسيح بدينها
طرقت وضوء الصبح غير أمين
فلما رأتنى أيقنت بمعذل
قليل بقاء الوفر غير ضنين

وقامت وفى أجفـــانها سقم الكرى
تفض بكفيها خـــــواتم طــــين

فلما رآها الليـــــل حث جنــاحه
مخافة صـــــبح فى الدنان كمــين

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى
نطـــــير غرابا ذا قوادم جـــون

فما زلت أسـُـــــقاها بكف مقرطق
كغض ثنته الريح بين غصــــــون

لوى صدغه كالنون من تحت طرة
ممســـــــكة تزهى بعاج جبــين

والطلب من ورائه ، لا يهتدون اليه ولا يعرفون مكانه . سألوا عنه الأصدقاء والمعارف ، نطاحة وجحظة والدمشقى وابن المنجم والصولى وابن حمدون وجعفر بن قدامة وغيرهم ، وتعقبوه على شطئان دجلة والفرات ونظروا فى قوافل المسافرين وفى شتى الزوارق والسميريات .

كانوا يعرفون ما طبع عليه من الافتتان بالطبيعة ومحاسنها ، فالتمسوه فى كل بقعة طيبة .

وكانوا يعرفون تماجنه ، فطلبوه فى أكثر من مكان مريب ..

وهم بين مشفق أن يكون خليفتهم الجديد — خليفة الغـد الذى قيــل انه صاحب علم وفضــل وأدب — حيث يكون الخلعاء ، وبين طامع فى أن ينتهى كل شىء قبل تمكن شغب وبقية الأتراك فيصعب اليوم ما كان بالأمس سهلا هينا .

أين هو .. أين هو ؟

يا عين نوحى بأسرار الهوى نوحى
قد برّح الكتم بى كل التباريح
كم ليلة قد عدونا تحت كوكبها
والفجر يومىء للسارى بتلويح
تجرى بنا من بنات الريح ملجمة
طارت بكل خفيف الجسم والروح
ينبهن أنفاسنا المسك العتيق اذا
وطئن من لمم القيصوم والشيح
ومغرمين بشرب الرّاح قد هتكوا
أستارهم ولقوا عدلا بتصريح
خاضوا الظلام الى خمار دسكرة
منعم النوم يقظان المصابيح
يبيت يشخب زقا أو يفرّغه
بأنطع من رخال الذّيغ مذبوح
قلنا له هاتها واحكم على كرم
فقد ظفرت بفتيان مساميح
وقد أتوك الى غمىّ لتعديهم
على الهموم بتفريج وتفريح
فصبّ فى كأسه راحا معتقة
ظلت تحدث عن عاد وعن نوح

وعندما عثروا عليه لم يكن قد ذاق شيئا من هـذه الراح المعتقة ، ولئن لم يكن فى استطاعة أحد من الرسل أن يخبره شيئا فقد حدس أن يكون ثمة أمر خطير . ولقد دفعه فضوله أولا الى أن يمضى معهم ، فهو حتى لو عرف مقدما ما وراءهم لما منعه شىء عن الاعتذار .

لقد كانت رحلته صعبة بعض الشىء .

وكان هو — ولا مراء — من أسرع الملولين ، ومن أعجل الخلق حركة وتحولا !

وما من شىء أدل على ذلك ثم على فضوله من أنه وهو الذى كاد يموت لهفة على أماكن الريب يسمح لغيره بأن يقوده عنها الى مصير مجهول .

وهو وراء هذا المصير المجهول شأنه كشأنه وراء مغامرة ما ، بحاجة الى الاثارة ، فحسبه أن تكون أيامه حافلة بالتغير .

ولما دخل بغداد شاهد عمارية على بغال وجندا وغلمانا يمضون الى باب الكناس يريدون الكوفة ، فرجح أن يكون ذلك لطالبى خرج . الا أنه لم يلبث غير قليل حتى شاهد شـفيعا التركى — وكان يعرفه ويكرهه — على فرسه ومن ورائه يخب غريب الخال فى ثيابه المزركشة ، ثم يعلن المنادى :

يا أهل بغداد أعدّوا البهم للأعياد .

وكانت العادة تجرى على أن يفرق فى العامة أيام المناسبات المختلفة أجزاء من بعران ويلتزم على ذلك مال يؤخذ من الخزانة بلا حساب ، وقد يلحق به ما يغطى ما يفرق على القواد والفرسان

والرجالة والخدم والبوابين وأصحاب الرسائل ووجوه الكتّاب وخُزّان الدواوين فى كل مناسبة ، وعاد المنادى يعلن :

البدار للحسنى البدار .

وأنشأ غريب الخال يعدو حول العمارية وهو يرفع صوته فلا يصل الى أحد . وما كان عليه أن يفعل ذلك ، ولكنه كان يحاول أن يؤكد بنفسه أن قصر الخليفة للأمة كما كان أيام المعتضد والرشيد . وقد لحظ ابن المعتز أن العامة لم تكن تهلل كما رآها تهلل قديما فى مثل هذه الأحوال ، بل لعل بعضهم كان أكثر حفاوة به عندما وقعت عليه الأنظار .

وقبل أن يدخل داره لمح جنديا أو جنديين من الأتراك يرمقانه شـــذرا !

الفصل الخامس

محاولة إقناع

ان سـيرة ابن المعتز كما يرويها أصدقاؤه وخصـومه على حـدّ سـواء تنبض بحرارة حياته وفورة أحاسيسه ، ولقـد أضفوا عليها نتيجة جموحه طابع السرعة والتهـاون حتى ليبدو غالبا — وهو العاقل المجرب عالم العصر من غير شك — مسيرا أو أداة طيعة فى كل يد . وكان لهم فى هذا السبيل أن يخترعوا الصور والعبارات التى تبرر لينه ، وأما هو فى حقيقة الأمر فلم يكن مضطرا الى شىء من هـذا لأنه لو تكلفه ما اسـتطاعه .

كان شـاعرا فذا .. وبمنطق الشـعر أراد أن يعيش حتى وهو يفكر فى عرش أبيـه ! .

وهذا ما يجب أن يحسب حسابه ...

بل هذا هو السبب المباشر فى أن سيرته تحفل بعدد هائل من المواقف المتعارضـة ، لم يسـتطع أى رجل قبله ولا بعده — فيما سجل التاريخ — أن يقدم ما يعدله تناقضا وتباينا .

ان الذى يجهد الانسـان فى صنعه كى يحمله سـاعة على الريح أو فوق لجـة مـاء يصنعه أى طـائر بغـير مجهود وبلا تفكير ، وكان ابن المعتز أشـبه بهذا الطائر . وكان عليه كالطائر

تماما أن يستسلم للمقـدور ويجعل خفق جناحيه ملكا للغيب ، أفلم يكن مدفوعا الى ألا يفكر ولا يأخذ أهبته ؟

لئن كان من خطل الرأى أن يوصف الطائر بالغبـاء ، فمن الخطل كذلك أن نأخذ ابن المعتز بتلك النقيصة . وهل كان له وهو شاعر أن يلتصق بالتراب ؟

لقد جاءه ابن الجراح وابن حمدان .. ممثلا العقل والقوة ، وطرحا الموضوع أمامه فبهت ، ثم تردد ، ثم أعلن الرفض ! انه لا يسـتطيع أن يحمل عبء الخلافة مع أنه كان فيما بينـه وبين نفسـه يديم الفكر فيها ، وكأنما التفكير فى شيء يختلف كل الاختلاف عن تمرسه والابتلاء به .

ان العرش واجب وليس مطمعا !

واذا كانت شغب وغريب يؤثرانه من جانبـه الثانى فليس الا لمرض فى نفسيهما ، وهو بعدُ لم يمرض . وليتحدث الناس به وعنهما وليعجبوا لما يجرى فى الخفـاء فهل ترى تطلعوا اليـه — فى هذه الأزمة — حتى بان لهم ما رأوا معه التعويل عليه فى سياسة الأمور ؟

هو لا يدرى .. هو لا يدرى ! ولكن ابن الجراح يكشف له بحكم اتصاله بأسباب الحكم عن تفصيلات لم يكن يتصور أنها تغيب عنه . وساق ما ساق وهو يعلم أن هذه هى السبيل الوحيدة لاستهواء قلب الشاعر ، ثم قال له :

— ألم تر الساعة فزع شغب حتى أرسلت أعوانها يتملقون العامة بشيء هو لهم ؟ لقد اتصل بى قبل مجيئى هنا خادم ممن

أعوّل عليه فى مراعاة أخبار المقتدر فعرفنى أنه شاهده وقد جمعت له أمه جماعة من خواص مماليكها ، واقامتهم حواليه بالسلاح ، وأسبلت الستور فى غرفته عليه وظلوم الى جانبه لا تفارقه ليل نهار . وأما أم موسى فسيكون من نصيبها فى حيلة النداء برسم الأضاحى مئات المئات من الدراهم ، ولا تسل بعدُ عما سيأخذه غريب الخال وشفيع ونصر وغيرهم ممن أعمتهم غواية التبذير !

قال ابن المعتز :

— ولكنى بايعت ، ولو تأملتم فخطر عليكم الخاطر من بعض أفكارى لرأيتم أننا لا نبايع الا لابن المعتضد . وهو من هو ، كم ألبسنى من حلل الاحسان والجميل .

قال ابن الجراح :

— اننا بايعنا للمقتدر ولم نبايع للحرم أيها الأمير ، ومع ذلك فالمقتدر ضعيف وباسمه يقلد الطماعون مال الضياع والجهبذة فيربو عندهم المال وأمور المسلمين ضائعة لا يجدى فيها نصح ولا تنفع مشورة .

قال ابن المعتز :

— لعلكم آسفون أن يسقط من أرزاقكم شىء ، فلا بأس وقد أسقط من أرزاق أولاد القرابة ما زادت به أموال الحرم والحواشى والفرسان .

قال ابن حمدان :

— ما لهذا جئنا أيها الأمير فان ما استغل من الضياع أو وفر

من أرزاق المحتاجين ليس وحده مبررا لخلع البيعة ، ولكن الأمة لم تعهد صبيا يحكم وله فى قرابته العاقل العدل الحكيم الرشيد ، وبه تعتدل الأحوال . اننا لا نريد أن يضيع الأمة حدث غرير !

قال ابن المعتز :

— لا أستطيع أن أكون يدا عليه فوالله لو جاءنى منه ما كان يجيئنى من أبيه أو أخيه لأحبس أو أطرد لما عصيت .

وهنا صاح ابن الجراح :

— ان لم نخلعه نحن خلعه غيرنا هكذا يقول مؤنس فماذا تقول أنت أعزك الله وأسبغ نعمة الهداية عليك ؟

قال :

— أقول ما سوف تقوله العامة عمل ليرد الخلافة الى بيت أبيه !

قال ابن الجراح :

— ليكن ، أفليس هذا حقك ؟ ألم تنف فى سبيله وتشرد ؟ ألم ينكل من أجله رعاك الله وحفظك بأهليك فماتوا أو ضاعوا أو عفت عليهم ريح النسيان ؟

صاح ابن المعتز :

— ويحك أبا عبد الله ، ما هكذا تأتى الى الأمور فلقد هيجتنى وانى لأسأل من نصيرنا فى هذا العمل الجليل .

قال ابن الجراح :

— كلنا .. كل وجوه الناس وقوادهم .

فتساءل ابن المعتز :

— حتى ابن أخيك ؟

قال ابن الجراح :

— ان أبا الحسن على بن عيسى معنا فى هذا الأمر .

فأطرق الأمير ثم همس :

— والوزير ؟

أجاب ابن حمدان :

— حتى هو !

قال ابن المعتز :

— هذا المذبذب المتردد الذى لا يرى أسـهل من التحـول والنكوص ؟ هذا الذى لا يرى أسهل من الغدر سبيلاً ؟

قال ابن حمدان :

— دعه لى أيها الأمير ففى سيفى شفاؤه !

فانتفض ابن المعتز قائلا :

— تريد أن تقتله ؟

أجاب ابن حمدان :

— وأقتل كل من يتصدى لثورتنا .

فصرخ ابن المعتز :

— هذا والله ما لن يكون ، لا أريد أن نأخذها حربا قط .

قال ابن حمدان :

— تدبير بغير سيف أعزك الله ؟ بئس الرأى اذن . وفيم أعددت قواتى أيها الأمير ؟ أنت يا أبا العباس تعرف القصر منذ نشأت ، وقد اتصلت بأسبابه سنين كثيرة فهل رأيت من يدع القوة

جانبا حين تكون الحاجة اليها ويأخذ بدلا منها بالسلم طريقا غير مضمون ؟ وهبك على ما ذكرت من أنك رأيت أن تحفظ للمعتضد حسن صنيعه ، فهل استوفيت كل ما ينبغى أن تستوفيه من الحيطة والحـــذر ؟

قال ابن المعتز بحزم :

— بالسلم أو فَدع !

فقال ابن حمدان :

— القوة أولا !

وهنا صاح الأمير :

— والله لن أقبلها الا بشروطى !

فأسرع ابن الجراح يقول وقد خشى أن يضيع الأمر بين عناد الرجلين :

— ليكن أيها الأمير ، أو على الأقل نحفظ للمقتدر حياته .

قال :

— وحياة أمه وخواصه !

الفصل السادس

برغم الخيانة

كان هذا فى يوم الخميس لتسع ليال بقيت من ربيع الأول من السنة نفسها ، وفى يوم الجمعة نمى الى المؤتمرين أن الوزير عادت اليه نوبة تردده على أثر مقابلة تمت بينه وبين فاتك المعتضدى ، فاستقر رأى ابن حمدان بعد أن استشار كلا من ابن الجراح ومؤنس على ازالته من طريقهم . وكان قد بلغهم من ناحية أخرى أن بعض الترك — على رغم كراهيتهم لابن المعتز — باتوا يأتمرون بأمر سوسن الحاجب الذى جعل تدبيره لمؤنس .

وفى يوم السبت ركب الوزير يريد بستانه المعروف ببستان الورد ومعه فاتك المعتضدى . فاعترضه ابن حمدان وهو فى صحبة بدر الأعجمى ووصيف بن صوارتكين ، وعلاه بالسيف وقتله . ولما أراد فاتك الافلات عطف عليه القائد الثائر فقتله تحت سمع الناس وأبصارهم !

وأسرع القائد الى حيث توقع أن يكون المقتدر يضرب بالصوالجة فيقتله مخالفا اتفاقه مع ابن المعتز ، الا أن الخليفة كان قد سمع صراخ الناس بقتل الوزير وفاتك فبادر بالدخول الى قصره وأمر بتغليق الأبواب دون القائد الثائر .

لم ييأس ابن حمدان قط ، وأسرع الى دار سليمان بن وهب بالمخرم ، مرسلا من هناك الى ابن المعتز أن يقدم على عجل . فأسقط فى يد الأمير ، وخرج من بيته بالصراة الى ظهر المخرم ، وهو يرجو أن يرفع ابن حمدان يده عن الرقاب [1] .

وفى الجانب الآخر كان لهذه الحركة المباغتة أثرها العكسى فى النفوس ، أو على الأقل فى نفوس بعض الذين فكروا فى خلع المقتدر . وشرع مؤنس بصفة خاصة يفكر فى أناة ويعيد النظر مع سوسن واضعا مصلحته ومصلحة الأتراك — فهو مقدمهم — فى الصدارة .

حقا كانت قد وصلت لابن الجراح كتب كثيرة يبايع أهلها لابن المعتز فهل يتم الأمر بعد أن هتكت بواديه بقتل الوزير وأخذ القصر يصطنع المزيد من الحرص والحذر ؟ وهب الأمر تم فأين يوضع هو من أحباء ابن المعتز يمن غلامه وبعض من أبعدهم عن القصر فى مختلف الظروف .

وبغض النظر عن هذا وذاك ، هل يهيىء ابن المعتز للترك ما تهيأ لهم قبل من سعة فى الرزق وهو يعلم أنهم قاتلو أبيه وجده؟

والحسين بن حمدان بعد هذا يمكن أن يصبح كل شىء اذا نجح ابن المعتز ، ويمكن أيضا استهواؤه كمغامر خدم الطولونيين ثم خدم الدولة بما يؤمنه ويوفر له رغد الحياة . مثل هذا الرجل

(١) راجع الصلة ١٩ والمنتظم ٦ : ٦٩ وتجارب الأمم ١ : ٥ والكامل ٦ : ١٢٠

لا يمكن أن يستريح له حاكم خبر العيش وتحنك به وعرف أسراره !

وفى اللحظة التى التقى فيها هذا القائد المغامر الأفاق بابن المعتز وأعلنه أن الرأى قد استقر على أن يكون لقاء البيعة فى دار ابراهيم بن أحمد الماذرائى ، كان يلبق غلام مؤنس يسعى اليه وفى كمه رسالة خطيرة .

وفضّ الرسالة وقرأ ..

وكان ابن الجراح اذ ذاك يستشير علية القوم أى الألقاب أصلح أن تخلع على الخليفة الجديد ، أيكون الراضى أم الرضى أم المنصف أم المنتصف ؟ وأحضر عبد الله بن على بن أبى الشوارب القاضى وطولب بالاستعداد للبيعة فقال :

— ما فعل جعفر المقتدر ؟

فدفع فى صدره ، فتسلل سوسن الحاجب الى مؤنس وأوقفه على الخبر ، فطلب الى القصر أن يضاعف الحرس ، وفى الليل هبط على ابن حمدان منذرا وموعدا !

ما له هو وهذا الأمير الذى يشتعل بحب الملذات وحب السلطان معا ، ولا همّ له سوى اغتنام سوانح النعيم ؟ يتعلق بأذيال كل فرصة ولم يتح له القدر من تلك الفرص الا أهونها ، فكيف يرتجى منه الفلاح ؟ ومن سوء طالعه أن ينكشف التدبير فى أوله ويطاح بأبى أحمد الوزير فلا يعلن أنه برىء مما حدث وهو الذى تشدق أمس بالسلام .

وبعد ذلك من معه ؟

ابنا الجراح وأحدهما — وهو على بن عيسى — متردد كأبى أحمد وان يكن دائم التظاهر بالتثبت والتدين والتصوّن والتعفف .

وأبو الحسن محمد بن عبدون الكاتب الهين .

ويمن الرقيع القوّاد .

والقاضى أبو المثنى أحمد بن يعقوب المذبذب ذبذبة أبى أحمد وعلى بن عيسى بلا خلف كبير .

والقاضى أبو عمر الذى لا شك أنه سيحمل حملا على البيعة .

وابن الجصاص الجوهرى المعتوه .

ووصيف بن صوارتكين الذى لم يكسب فى حياته سوى معركة واحدة على القرامطة ، ومع ذلك كان للمكتفى فيها فضل التوجيه .

وجماعة أساتذته وندمائه الذين قد لا يفوت بعضهم أن يغدر ويخون ، وأين هؤلاء من ابن الفرات وحده أو من ابن جرير الطبرى الذى أكد بيعته للمقتدر عقب مقتل وزيره ؟

وعلى ذلك النحو مضى مؤنس يحصى ويقارن ، وينقد وينقض ، وابن حمدان مبهور مأخوذ لا يملك دفعا ولا ردا ، حتى اذا انتهت المقالة وفرغت الحجج تساءل فى ضعف :

— وما الرأى أيها الأستاذ ؟

قال مؤنس :

— تظاهر بأنك معهم ، فاذا خرجنا نحن لمقابلتهم فمل عنا

واندفع بفرسك دون أن يراك أحد ، واذا جرت الأمور على غير ما يدبر القصر ضمنا جانب ابن المعتز .

انهما يريدان أن يصطادا عصفورا بحجر واحد !

ولقد جرت الأحداث بطريقة خوفتهما وشككتهما فى تدبيرهما، اذ تقاطر الناس على بيت الماذرائى منذ صباح الأحد حتى ضاقت بهم فرؤى أن ينتقل المجتمعون الى قصر ابن وهب بظهر المخرم . وتجمع العامة حول الموكب الكبير ، فسار ابن حمدان بقواته وقد تصوّر أن الأمر لابن المعتز ، وبادر باعلان ترك البيعة التى كانت فى ذمته للمقتدر .

وفى قصر المخرم أجلس ابن المعتز على أريكة فخمة ووقف محمد بن سعيد الأزرق يأخذ البيعة باسم الخليفة الراضى أبى العباس عبد الله بن المعتز . فتقدم ابن الجراح مبايعا فولاّه الوزارة ، وتلاه محمد بن عبدون ففوّض اليه الأمر فى دواوين الأزمة ، وأعقبهم علىّ بن عيسى فتقلد عامة الدواوين . ثم تبعهم ابن حمدان فجعل أميرا على الجيش ، وتقدم بعد ذلك أبو المثنى فتقلد ديوان القضاء ، فى حين جعل يمن بعد المبايعة حاجبا وقد ظن أن مؤنسا سيكون صاحب هذه الوظيفة . ثم أنشأ المبايعون يتقاطرون ، ويمرون أمام الخليفة مؤدين اليمين القانونية(١) .

وتلمّس الناس ابن الفرات ومؤنسا وسوسنا ، فلم يقع لهم أحد على أثر . وبحث ابن المعتز عبثا فى أصدقائه عن أبى بكر الصولى وفى العلماء عن ابن جرير الطبرى !

---

(١) راجع تجارب الأمم ١ : ٦ والصلة ٢٠

واذ تم كل شيء — برغم هذا — ومحمد بن يوسف القاضى يشهد كما شهد أبو المثنى دخل ابن بسام للمبايعة فرفضها ابن المعتز ، وأعقبه النميرى ويحيى بن المنجم فردا ردّا جميلا . وحضرت صلاة المغرب فأديت الصلاة ثم شرع فى قذف الحسنى الى صلاة العشاء للتخويف وليس لاصابة أحد . وبعد صلاة العشاء أعلن ابن المعتز أنه لا صلاة للناس مع المقتدر ولا حج ولا غزو ، وأصدر اليه أمرا بالتحول عن الحسنى الى دار محمد ابن طاهر ، فأتاه الجواب بالسمع والطاعة .

وبات هو فى قصر المخرم ريثما تعد العدة للانتقال الى دار الخلافة ، وفى اليوم التالى صلّى بالناس الصبح ، ثم التفت اليهم وقد أخذته حماسة الموقف وقال :

— قد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح .

فضجوا وهللوا ، ومضى هو يتحدث مقررا أن المرء يشفيه من الحاسد أن يغتم وقت سروره دون أن يعلم من كان يعنى بالحاسد اذ ذاك . وفى الوقت نفسه كان ابن الجراح مشغولا بانفاذ بقية الكتب الى الأطراف بانتهاء خلع المقتدر وابتداء خلافة الراضى بالله ابن المعتز .

الفصل التاسع

الهزيمة

كان على الحسين بن حمـــدان قائد الجيش وابن عمرويه صاحب الشرطة من قبل ابن المعتز أن يذهبا لتسلم الحسنى من المقتدر وحاشيته ، وقد ظننا أن كل شيء قد آل للامام العباسى التاسع عشر . الا أن ما حدث عقب وصول كتاب هـــذا الامام للمقتدر عاد فربط الأحداث بما قدر مؤنس ، فان أم موسى أخذت على عاتقها تدبير مخرج وكانت قد أمنت جانب مؤنس وسوسن بما أسبغته عليهما من عطاء .

واستطاعت بفضل المال الذى أخرجتـــه شغب أن تستهوى أفئدة الحجرية والمفلحية والكنداجية والديالمة وسائر الترك ، مذكية فى قلوبهم نار البغضاء التى كادت تخمـــد . ثم أرسلت للمقتدر جاريته ظلوم تقوية ، وتسأله عدم الاذعان لابن المعتز مهما تكن الظروف .

— وهل ترضى يا مليكى أن تستسلم للمارق عدو الله فيأخذنى منك ويرسلك الى المطبق أو ينفيك الى مكة أو يشيعك الى القبر؟

قال المقتدر :

— كلا .. كلا .. ولكن ماذا بيدى وليس فى جانبى أحد ؟

حتى خالي وحتى مؤنس وسوسن وغيرهم من أعيـان القصر هجـروه !

في هذه اللحظة دخل كل من مؤنس وغريب الخال يقولان :

— وكيف ندع أمير المؤمنين وحده ؟

ثم قال مؤنس وحده :

— أحكمت الخطة يا أمير المؤمنين ، فان أتاكم في الغد ابن حمدان فلا تستسلموا وادفعوه عن القصر فلن يدخله .

وجلس يبسط تفصيلات الخطة حتى طلع الصباح ، ثم لم يكد يرتفع الضحى حتى كان ابن حمدان وابن عمرويه قرب القصر في مواجهة جماعات مستعدة بالسلاح والخوذ والجواشن ، وفي النهر شذاءات معدة للضرب ، ومن وراء نوافذ القصر تبدو السهام مفوّقة معدة للانطلاق .

كان الحسنى على أتم الاستعداد لمعركة لم يتأهب لها الخليفة الشاعر . وهنا استعرض ابن حمدان اتفاقه مع مؤنس ، وبعـد مناوشة صغيرة أمر جنده بالارتداد على أن يعيدوا الكرة ليلا[1] . وفي هذه الأثناء تحركت الشذاءات في دجلة بقيادة غريب الخال وسوسن ، وكانت مؤلفة من مائة قطعة مسلحة وفوقها عشرات من المحاربين الترك ، ورآهم من كان على الشاطىء فصاح :

— مراكب المقتدر .. مراكب المقتدر !

وسأل بعضهم بعضا :

— وأين الراضي ؟

(1) تجارب الأمم ١ : ٦

وقال ثالث :

— لعله دحر !

وأكد رابع :

— بل دحر والله !

وهكذا دب الهلع فى النفوس ، وتطاير الأعوان بددا مع أن سهما واحدا لم يطلق . ولو كان بعضهم وقف قليلا أو ناوش على سبيل التغطية ، لتغير الموقف ، ولسار ابن المعتز نحو الغاية التى وجد نفسه مدفوعا الى السير نحوها .

ونحن لو قارنا بين تدبيره هنا وما تضمنه سلوكه القديم أيام كان منطلقا نحو لاشىء الا اراحة بدنه وتسكين سورته ، لوجدنا الفارق شاسعا من حيث عمق التجربة لا نوعها . هناك كان قادرا أريبا داهية ، وهنا متداع حتى لكأنه فى بحر لا شاطىء له .

وهذه هى النهاية الحتمية لتشكيله ذلك التشكيل الغريب الذى قضى بأن يخرج من الحياة غريبا كما دخلها غريبا ، مع أنه آثار وحرك طول أيامه . لقد كان حظه العاثر هو الذى يقوم بأداء الدور الأول فى مسرحيته الكبيرة ، وكانت شاعريته — أو قل خيال الشعراء عنده — الى جانب ذلك تؤكد دائما أنه قلما ينجح الا فى نقل كلمته الطيبة الينا .

ان ابن المعتز عاش — وهذا مؤكد — منطويا على نفسه ، على الرغم من تقلبه فى شتى الظروف . اذ لم يكن أحد يفهمه ولا سيما فى قصر الخلافة ، بل انه ظن يوما أن جمهور الناس أقرب اليه من غيرهم ، ولكن هؤلاء سرعان ما انفضوا من حوله

عندما حانت ساعة الجد ، فوجد نفسه فجأة وحيدا فى الميدان ، وعبثا صاح فيهم أقرب المقربين اليه :

— يا معشر العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى[1] .

لقد خاف هؤلاء سطوة السلاح وكانوا يبحثون عن القوة ، ولهذا لم يكن غريبا أن يتساءلوا وهم يتفرقون :

— أين ابن حمدان ؟

وقيل اذ ذاك انه قتل ، وقيل انه سار الى الموصل ، وقيل انه دخل الحسنى من الجانب الآخر ولم يخرج !

ومضت اللحظات الحاسمة محفوفة بالمكاره والمصاعب ، فرأى ابن المعتز أن يخرج من قصر المخرم قبل وصول الشذاءات اليه ووقوع اشتباك لا يضمن هو نتائجه .

ان الرجل المحارب الذى شهد أكثر من غزوة يترك الميدان !

خرج ومعه وزيره المنكود محمد بن داود ويمن حاجبه ، وكان شاهرا سيفه للعجب ويصيح كما صاح بعض غلمانه من قبل:

— يا معشر العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى !

وأخذ الثلاثة طريق الصحراء تقديرا منهم أن يتبعهم من الجيش من يثبت أمرهم فى سرّ من رأى ، فلم يتبعهم أحد . ورأوا وهم على أطراف بغداد ابن عمرويه — صاحب الشرطة — يعدو بخيوله مناديا بشعار المقتدر .

---

(١) راجع الكامل ٦ : ١١٩ وانما نسب هذه النسبة لأن الحسين بن القاسم البربهارى كان مقدم الحنابلة ، والسنة من العامة لهم فيه اعتقاد كبير ، فأراد استمالتهم كسنى بهذا القول .

وهكذا ضاع كل رجاء ، وأدرك ابن المعتز أن من العبث المقاومة أو التعلق بأهداب أمل كذوب . ان الأيام لا تريد له الظفر ، والقدر لا يواتيه بشيء مما يريد ، فما عسى أن يلقى بعد ؟ لا شيء ، وليكن الهرب ثم ليكن بينه وبين يمن وابن الجراح الوداع الذى لا لقاء بعده .

أما ابن الجراح فقد حاذى داره ودخلها ليستتر ، وأما يمن فقد اتجه الى بيت وصيف بن صوارتكين ليعلم أنه هرب . فرجع الى ابن المعتز وهو فى مخبئه يشهد من بعيد اندلاع نار الفتنة وهجوم الشطار والعيارين على البيوت الآمنة .

وبعد أن قلّب الأمر على وجوهه ، قرر أن يلجأ الى ابن الجصاص . وكانت الطريق المؤدية الى دار هذا الجوهرى تتدرج فى الانخفاض حتى تنتهى الى رحبة تتخللها عدة أشجار ، وبعد هذه الأشجار طريق السوق وقد اكتظ بالناس يصرخون ويهللون . وقد استطاع هو أن يميز من خلال الصراخ والتهليل من يصيح قائلا :

— يا مراء يا كذاب !

حتى اذا اختلط بالعامة محاذرا تبين أنهم يطاردون ابن عمرويه، ثم نمى اليه أن مؤنسا يجدّ وراءه .

وفيما كان يتأمل هذه المشاهد ، سمع فجأة وقع سنابك لخيل تدق الأرض ، فتسلل خلف أحد الحواجز النباتية ويمن يلتصق به وهو يمسح عرقه . وفى اللحظة التالية ألفى نفسه وجها لوجه أمام

أبي عمر محمد بن يوسف ففزع ، ولكن أبا عمر بدا أشد فزعا منه وتلفت حوله ثم هتف :

— يا رحمة الله .. عوائد الله عند أمير المؤمنين ورجاله فيمن يشاقهم ويناوئهم توفى على الموت !

صرخ ابن المعتز :

— ومن أمير المؤمنين ؟

فمضى القاضي وكأن أحدا لم يبادره بسؤال :

— وليس أحد يظهر عصيانه أو يخفيه الا جعله عظة للأنام .. اهرب بالله أيها الأمير ، واسحب على وجهك اللثام !

ثم وقفا يتبادلان النظر بضع لحظات ، وكتب على ابن المعتز فى ذلك الوقت ألا تبرح صورة هذا القاضي مخيلته حتى قضى .. عينان داكنتان ماكرتان ، ولحية شعثاء تريد أن تطمس فما متهدل الشفتين ، ولكنه لم يستطع أن يتبين فى قسماته أهو مخلص أم يمكر به . غير أنه جرى ومن خلفه يمن ، فليس له أن يحاسب من نكث وغدر ، ولا له أن يسأل من مرق وداجن ؛ فانه كان لسوء حظه أن يعتمد على رجل كأبى عمر .

ووصل أخيرا ، وراح يدق الباب وهو لا يزال يسمع هدير الجماهير من بعيد . وكانت النار فى هذه اللحظة قد بدأت تجتاح المدينة ، عاقدا دخانها سحائب قاتمة ورائحة الموت تختلط بأرج الزهور التى تفوح من وراء السور المرتفع .

وفى الوقت الذى فتح فيه الباب وتوارى هو خلفه ، برزت شرذمة من جنود مؤنس وهى تخب فوق خيولها باحثة عن .. عنه

فى أغلب الأمر ! ولقد دهش غلام ابن الجصاص لأنه كان حديث عهد بالدار فضلا عن وجود اللثام على وجهه ، غير أنه سمعه يقول بصوت لاهث :

— قل لمولاك انى أطمع فى مروءته !

قال الغلام :

— من أنت ؟

أجاب ابن المعتز :

— قل له ان صديقا له يطاردونه .

تساءل :

— يطاردونه ؟

قال ابن المعتز :

— وقد أقتل اذا ظللت تلح عليه بالمسألة !

وهنا برز ابن الجصاص يصرخ :

— هلم .. هلم !

ومال الغلام عن طريقه ومولاه يقول للغريب :

— ولكنهم اذا وجدوك هنا ضاع كل شيء وضعت أنا .. انحن واتبعنى !

وأشار الى يمن وقال :

— وأما أنت فسيتكفل بك غلامى سوسن . ستكون فى داره آمنا !

وسار ومن خلفه ابن المعتز ، ولم يكادا يقتربان من مسناة الماء

القائمـــة فى جانب النهر حتى دق البـــاب بعنف ، فصرخ ابن الجصاص :

— رحماك يا رب !

وأدار رأسه فى بستانه ثم جمع بصره على المسناة فأسرع يشير اليها وهو يقول :

— اهبط تحتها حتى تنكشف الغمة .

ولحظة غاص ابن المعتز تحتها ممسكا ببعض أغصان متجمعة على حواف المسناة تصدع الباب واندفع فوقه عشرة من الشرط يلقون بأنفسهم الى الداخل وهم يحملون رماحهم ويصرخون :

— هنا عدو الله ؟

ولم ينتظروا جوابا ، وانما تفرقوا فى كل مكان يبحثون ويبحثون ، فى حين وقف ابن الجصاص يرتعد ويقرأ كل ما يخطر على ذهنه من آيات القرآن الكريم .

الفصل الثامن

فى طريق النهاية

اتضح كل شيء بعد ذلك ، وكان يمن قد قبض عليه وسيق مع ابن الجصاص الى ابن الفرات الوزير الجديد (1) وكان قد جلس للمحاكمة فى قصر المقتدر ومن حوله مؤنس وغريب الخال وصافى الحرمى وسوسن ، وأمامه ابن مقلة . ومن خلف الستار جلس المقتدر وجاريته ظلوم وأمه شغب وأم موسى القهرمانة يسمعون جميعا الى المناقشة التى انتهت بقتل يمن ، واطلاق سراح ابن الجصاص على ستة آلاف ألف دينار جملة واحدة بشرط أن يلزم داره حتى يؤذن له بالخروج .

وقبل أن يعود أحاط بكل شيء خبرا ؛ فأما أبو الحسن على ابن عيسى وأبو الحسن محمد بن عبدون فقد استترا فى منزل رجل يبيع البقل . ولكن العامة نذروا بهما فكبسوهما وأخرجوهما ، ثم سلموهما الى بعض أعوان المقتدر المجتازين فى الطرق ، فأركبا

(1) راجع تجارب الأمم ١ : ٧ ، ٨ وفى الصلة ١٩ ذكر الصولى أن المقتدر خلع على أبى الحسن على بن محمد بن الفرات بالوزارة وكان ذلك يوم الاثنين ، كما خلع على أبى الشوارب لقضاء جانبى بغداد وعظم أمر سوسن مع أن هناك أكثر من رواية تؤكد أنه كان من أكبر أنصار ابن المعتز (راجع تحفة الأمراء ٢٦)

بغلا هزيلا وصرخ فيهما على طول الطريق قبل أن يغيبا عن العيـون .

كما قبض على جاره ابن البصرى العـلوى ووصيف بن صوارتكين وصديقه خرطامش — وكان من المبايعين لابن المعتز — والقاضى أبى المثنى أحمد بن يعقوب ومحمد بن سعيد الأزرق ، ورجل من وجوه الترك اسمه سرخاب لم يقعد عن مبايعة ابن المعتز [1] . وسلم أبو عمر نفسه ، فعفا عنه مؤنس بعد أن استشفع له بمال يدفعه أبوه يوسف ، وأما أبو المثنى فقد واجه مصيره بشجاعة اذ سأله ابن الفرات :

— يقول لك أمير المؤمنين بم استحللت نكث بيعتى ؟

أجاب رابط الجأش :

— لعلمى أنه صبى لا يصلح للأمر !

قال ابن الفرات :

— اذن فسوف تجزى بقدر ضلالك !

قال :

— افعلوا ما تشاءون فلكم دينكم ولى دين !

وحمل ابن الجصاص الى الأمير نبأ مصرعه فيما حمل من أنباء أزعجته [2] ، وعلم أن الجميع لاقوا حتفهم سـوى جاره العلوى وكل من ابن عيسى وابن عبدون ، ولم يستطع ابن الفرات

---

(١) تحفة الأمراء ٨٨ ، ١٤٧

(٢) راجع تحفة الأمراء ٧٩ وكان ابن الفرات قد أمر يوسف ابن فيجاس وهارون ابن عمران بمصادرة أملاك ابن المعتز وأمواله .

أن يظهر على الأخيرين فى مناظرته لهما . غير أنه صادرهما مخففا على ابن عيسى ومثقلا على ابن عبدون لعداوة كانت بينهما ، وأمر بنفيه الى الأهواز [1] .

وأما محمد بن داود فلم يهتد أحد الى مكانه ، وان يكن شاع أن غلاما لابن جرير الطبرى سعى به عند ابن الفرات فلم يحرك بشأنه ساكنا !

وروى ابن الجصاص أن مؤنسا أرسل للطبرى ينهى اليه أمر ابن المعتز عندما بويع — كأنه يستفتيه أو يستشيره — فسأل :

— ومن رشح للوزارة ؟

فقيل له :

— محمد بن داود .

قال :

— فمن ذكر للقضاء ؟

قيل :

— أبو المثنى .

فأطرق ثم قال :

— هذا أمر لا يتم !

قيل :

— وكيف ؟

قال :

(١) تحفة الأمراء ١٣٥ وما بعدها ثم صفحة ١٤٨ ، ٢٨٦ وتجارب الأمم ١ : ٨

— كل واحد ممن سميتم متقدم فى معناه عالى الرتبـة ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، وما أرى هذا الا الى اضمحلال وما أرى لمدته طولا [1] .

وأما أبو بكر الصولى فقد لزم المقتدر يلهيـه بالشطرنج ما فارق جاريته ظلوم ، فى حين توجه قدامه بن جعفر الى ابن الفرات ينشده[2] :

لما غدوت وفى الحشـا نار مضرمة تشـب
والفكر والأحـزان مسـ جون بهـا جسم وقلب
أنشدت ما قال ابن جهـم وهـو بالأشـعار طب
أملقت بعـدك يا عـلى ونالنى ما لا أحـب

هكذا الدنيا ، ألم يقل وهو يحسن القول دائما انه ربما أورد الطمع ولم يصدر ووعد ولم يصرف ؟ ثم ألم يقل أيضا من تجاوز الكفاف لم يغنه اكثاره ومن ارتحله الحرص أنضاه الطلب ؟ ولا يدرك الغنى بالسلطان لا سيما فى هذا الزمان المتلون الأخلاق المتداعى البنيان ، الموقظ للشر المنيم للخير ، المطلق أعنة الظلم الحابس لروح العدل ، المر الثمرة البعيد المجتنى ، القابض على النفوس بكربه والمنحى على الاحسام بغربه[3] .

هكذا .. هكذا !

وانه لفى انتظار غـد مشكوك فى اقباله ، وقد أصبح مطلوبا

---

(١) هذه الحكاية بتفصيلاتها مما سجله السيوطى .
(٢) تحفة الأمراء ٢١٢
(٣) من كلمات ابن المعتز أوردها الصولى فى الأوراق ٢٨٧

توصل الى البأس — أو أراد — بغدره ومكره وخديعته فأوحش الناس من أمير المؤمنين وشيعته ، وحسّن لهم الخروج أو كان بعضهم محسنا اياه فى عينيه . فاذا كان قد شهر سيف الفتنة وأضرم نارها ، فقد حق أن يكتوى بعذاب الخوف والقلق والوحشة ، وليس له الا أن يرى الأمر فى صوره البشعة ..

تربص الحسين بن حمدان بأبى أحمد الوزير فقتله ، ثم ثنى بفاتك المعتضدى فأزهق روحه . وقصد أتباعه المارقون — وفيهم الخونة الشذاذ — الى دار الخلافة وشغبوا بعض الشىء الا أن الله « وفق » الخدم المصافية والغلمان الحجرية فى محاربتهم ، فتحصنوا بالابعاد فى الهرب لما خافوه من شدة الطلب . ولكن جماعة من خواصه تؤسر ، وتحمل الى الحسنى ، لتدفع الى أعظم بؤس وأضيق حبوس .

وأما هو ..

ففى انتظار غد مشكوك فى اقباله ، وحيدا فريدا يسرد خاطره عليه قصة حياته شأن من ينظر وراء ظهره الى الدنيا من عالم الأشباح ، وقد كفت حواسه الا عن الترقب والتوجس . وبلغ من شدة هلعه أنه قلما خلع لثامه خارج حجرته ، وقد بغته سوسن أكثر من مرة فانتفض ، ورأى وجهه الأسمر يتكسر اعياء .

الى أن طرقت الدار ذات يوم سيدة احتفى بها ابن الجصاص وأدخلها عليه . ومن ثقب بالباب رأى الخادم وسمع ، وتردد على لسان صاحب الوجه الأسمر اسم بنت الكراعة .. مرة ومرة !

انه هو ، وهذه هى التى ضربت بحبها له مثلا لكل جوارى

بغداد وعذراواتها . وحفظت وده ، فى الوقت الذى داست عليه شريرة حتى تفرغ الى مغن مجهول اسمه ابن البقال ، ولكن كيف جـاءته ؟

لم يشأ سوسن أن يواصل تنصته أكثر من هذا ، فقد شغلته فكرة الوشاية وألحت عليه ، وبدا له أن خير ما يفعل أن يتنصح فى الدلالة عليه الى صاف الحرمى الذى كان فى خدمته قبل أن يصير لابن الجصاص [1] . وأسرع فعلا الى صاف وأفضى له بشكوكه حتى انتهى بقوله :

— فان لم يكن ابن المعتز نفسه فهو واحـد ممن يطلبهم أمير المؤمنين .

وكان مؤنس قد أخبر بأمره ، فأسرع الى دار صاف وابتدر سوسنا قائلا :

— صفه لنا أيها الجصاصى .

فقال :

— اذا خلع لثامه رأيت وجها شديد السمرة مسنونا جميل الأسارير ، ورأسا ولحية فشا فيهما الشيب فسترا بالخضاب ، وأما بدنه فممتلىء قليلا وقوامه كالسمهرى .

قال مؤنس :

— وكم سنه اذا حدست ؟

أجاب سوسن :

(١) تجارب الأمم ١ : ٨ والكامل ٦ : ١٢٢ وتحفة الأمراء ٨٨

— ان وجهه لا يشف الا عن نفس هزمتها الأحداث ، ولكن لعله فى الخمسين .

قال مؤنس :

— وماذا كان يرتدى يوم رأيته أول مرة ؟

قال سوسن :

— سراويل فضفاضة وقفطانا وغلالة قصب مبطنة بملحم خراسانى يضرب الى الصفرة ، وعلى رأسه مجلسية .

وسكت ، فقال مؤنس :

— لو كنت صادقا يا جصاصى ولم تنقل الى ما سمعت من صفاته ولباسه لكان هو فتوجب الحال اطلاق الهدية لك !

الفصل التاسع

النهاية

لم تغمض عينا بنت الكراعة ، فقد غاب سوسن عن القصر فجأة فتوجست شرا . الا أن اقبال ابن المعتز عليها بعد طول ادبار قد شغلها عن كل شيء الا مشاركته كئوس الشراب والتغنى فى شعره بصوتها الذى كان ذات يوم من أجمل الأصوات . حتى اذا ثقلت عيناه ، بدأت تتنبه الى حقيقة الخطر المحدق بهما .

ها هو ذا راقد فى اعياء ، وأنفاسه المترددة لا توحى قط بما قد يواجهه عند اليقظة . كيف ينام من هو على حافة الموت ؟ ومن أين تهب عليه ريح الهدوء والسلام ؟

وتتحسسه فى رفق بالغ ، ثم تمس لحيته وخديه وكفيه ، وهو مستسلم مسترخى العضلات .

ان جلده مشدود ، لا يدل على وهن مع أنه فى الخمسين أو يكاد ، فتلتصق به حتى تصير حركاتها كلها موافقة لشهيقه وزفيره . وأخيرا تضع وجنتها على خده لينسدل شعرها عليه ، ولكنه لا يتحرك . وقديما لم يكن يحركه شيء فيها ، الا أنها تحبه وتساعدها الذكريات على التخفف من رعبها فتوشك أن تغفو .

ولكن لا يكاد يصافح جفونها أول خيط للسواد حتى تثب

مذعورة على جلبة وصياح ، فتقف مشدودة القامة لتصل برأسها الى مستوى الشباك الوحيد فى الغرفة . فلما أزاحت الستار ، لمحت فى البستان ثلة من الجند يتقدمهم سوسن الجصاصى وهو يزعق زعقات منكرة .

وفاتها أن تصرخ — أو لعلها ألجمت — وفاتها أن تدفع النائم ليتحرك ، بل فاتها أن تولى هى خارجة . فلما دخل عليه عريف الجند ألقت بنفسها فوق جسده كأنها تحميه فصرخ :

— اليك عنه أيتها الملعونة !

وهنا .. بل هنا فقط تنبه الراقد ، وأدرك على الفور عبث المقاومة ، فرفع يديه مستسلما وهو يردد :

— لا حول ولا قوة الا بالله .. لا حول ولا قوة الا بالله !

وعندما حاول أحد الشرط دفعه ، نظر الى العريف نظرة لم تخل من بؤس ثم قال :

— حكم الله ورسوله فى مثل هذا الأمر معروف ، وأرجو ألا يخرجنى أحد منه ولو كان أمير المؤمنين عن حد الانصاف . ومع كل هذا فلا سخط على حكم الله ، ولا وحشة مع خلافته !

وخرج دون أن يرى ابن الجصاص ، ولكنه قبل أن يحدر فى طيّار الشرط لمحه من ورائه فى قيود واحدة مع بنت الكراعة ، وكان يصرخ ويستشفع بأمواله كلها ، فى حين كانت هى تصيح :

— قتلتموه والله يا أعداء الله !

وعندما وقف أمام مؤنس ، كانت نفسه مفعمة أسى ومرارة ، ولا مكان فيها لأى احساس بالخوف على مصيره . فليكن ما يكون ،

لأنه فى الحقيقة لا يطلب غفران ذنب لم يقترفه ، ومن ناحية أخرى كان يكره التوسل حتى لا يزداد تذللا ويزداد خصمه تطاولا . وان عليه مهما تكن الظروف أن يعيذ حاله عند تكرمها من حاسد يكيدها ومن شانىء يبغضها ، فلا يسأل الله من ثم الا آن يجعل حظه من هذا وذاك بقدر احتقاره اياهما .

وفى غرفة التعذيب أقعد ، وكانت المرارة وحدها رفيقه وصورة بنت الكراعة . ثم قدم عليه ابن الفرات وغريب الخال ومؤنس وابن مقلة ، وقد بدأ ابن الفرات الحساب قائلا :

— هو هذا اذن عدو الله ابن المعتز ؟

فضغط السجين على أسنانه وقال :

— هو أنا يابن الأمة !

لأول مرة يتبذل . انه يعلم أن الوزير الجديد آخذه بلا شك فى التمويهات معولا على دفع الحق بشتى المباهتات . وليكن ثقة أمير المؤمنين ، وليكن ما شاء أن يكون ، غير أنه سيظل فى نظره أحد القاعدين عن نصرته وأكبر المفسدين أمره ، فلا أقل من أن ينال منه بلسانه . ولكن ما حدث كان فوق ما توقع اذ تقدم ابن الفرات فشتمه شتما قبيحا ومدّ يده فنتف شعرات من لحيته فلم يملك هو الا أن يصيح :

— أوه !

وضحك مؤنس وابن مقلة ، فى حين تقـدم غريب الخال وصفعه ، فصاح ابن الفرات :

— جوّد .. جوّد !

وصرخ ابن المعتز :

— الله .. الله .. قد ذهبت والله عينى !

فقال ابن الفرات :

— لو كان الله أحبك لذهب بك قبل يومك هذا !

قال ابن المعتز وهو يتماسك :

— هل يعلم مولاك بما أنت فيه الآن ؟

قال :

— هل تريد أن تعرف رأى أمير المؤمنين ؟

وهز رأسه ، فاستطرد :

— كافر أراد هتك سره ، وهو الآن فى شغل عنك باستيفاء ما يلزم الأمة !

وضحك ابن المعتز وشر البلية ما يضحك ، فسأله ابن الفرات:

— ماذا تظن ينتظرك أيها اللعين ؟

أجاب ابن المعتز :

— لن أقول كما قلت لا تشن حسن الظفر بقبح الانتقام ، ولن أقول كما قلت تجاوز عن مذنب لم يسلك باقرار طريقا حتى اتخذ من رجاء عفوك رفيقا ، ولكنى أقول من عظمت البلية فيه طابت المنية عنده !

قال ابن الفرات :

— ومن أجل ذلك ضاجعت بنت الكراعة يا فاجر ؟

قال :

— حسبك الأسوة بها أيها الشقى فهى لم تخطىء ، ولعمرى انك لن توصل بمثل وفائها أبدا .

قال ابن الفرات فى سخرية :

— حمدا لله .. ولكن بم تريد أن توصى بكلمك ؟

قال :

— بألا يرينى الله وجهك .

قال ابن الفرات محاورا :

— حتى وأنت تموت ؟

قال ابن المعتز :

— سأقول لك ما فى نفسى ، فما زال أولياء الله يعرضون على المحن فيستقبلونها بالصبر ويتبعونها بالشكر .

فتضاحك غريب وقال :

— فاشكره اذن على محنك .

قال ابن المعتز :

— والله يا هذا ان بصيرتى لتنفذ مذموم أوائلها الى محمود عواقبها وأعدها مرقى الى شرف الآخرة ومرتبة لأهل السعادة فى دار كهذه الدار تلجها الهموم ويزول فيها النعيم .

قال مؤنس :

— هذا هو الكلام غير المفهوم !

ولكن همهمة سرت بينهم حتى لكأنهم سيئوا ببلائه وعناده ، وراحوا يصوبون اليه لعناتهم مؤملين اضعافه ولكنه مضى يقول :

— اذا تأملتم قبحكم الله فساد ما أنتم فيه وضياع أمور

المسلمين على أعتاب خليفتكم المحتمى بصدور الحرم ما جرؤتم على مجابهتى بما تظنونه يصدع ، ولكنه الخوف منى ومن أن لا تجدوا من يضمنكم أمامى . فاذا كان أعدل الناس من أنصف عقله من هواه ، فان اسمهم من يرى الحق ثم يغمض عنه عينيه . ومع كل هذا فانى أقول هو الحسد ، والحاسد كما قلت دائما مغتاظ على من لا ذنب له ، يحفل بما لا يملكه ويطلب ما لا يجده، فماذا تطلبون بعد ذلك ؟ أم هل تظنون كلما حسنت نعمة الجاهل زال قبحه من العيون ؟

وانتفض ابن الفرات وهدر صائحا :

— حسبك يا ملعون حسبك ، وانها آخرتك اذا شاء الله ، وأنتم يا رجال أمير المؤمنين ألا أشرتم علىّ بميتة له !

قال غريب وكأنه كان المقصود باشارة ابن الفرات :

— ليمت ميتة أبيه !

قال ابن الفرات :

— والله لا يصلح لها ولا تصلح له !

قال مؤنس :

— ألم يكبس ومعه امرأة ؟

فمالت الرءوس ، فاستطرد قائلا :

— فقد دلنا اذن على نهايته المطلوبة !

فتساءل غريب الخال :

— ماذا تعنى ؟

أجاب :

— فليقض عليه بحق الزنا أو تعصر خصيتاه ، وفى الحالين يموت صبرا فماذا بعد هذا ؟

قال ابن الفرات :

— اكتب يا بن مقلة أو دعنى أكتب خطى وأشهد على نفسى بجميع ما تريدونه منى فاما أن يموت هذا الفاسق المارق فما لى وجه عيش فى هذه الحياة .

ثم نودى على رجلين من الزنج ، وبعد قليل انبعث غطيط عال. واستمر هذا الغطيط ساعة ، بعدها خرج ابن الفرات وأتباعه وهم منفرجو الأسارير ، وكان ابن المعتز يرقد على الأرض منكفىء الوجه وقد هتكت سراويله والدماء تضرج فخذيه وتعقد على الأرض بقعة داكنة غليظة .

وراح أحد الزنجيين يمسح يده بخرقة من ملابس القتيل ، فى حين كان الثانى يدك خنجره فى رأسه ليفتح ثغرة لدم يريد أن يفارق جسدا فارقته الحياة .

الفصل العاشر

ذكرى

هذه النهاية التي وصفها القدماء ممن كتبوا عن ابن المعتز[1] لم تكن بالشيء الذي غاب عن معاصريه ، وان يكن المقتدر قد زعم أنه مات حتف أنفه . واستطاعت صورته الأليفة أن تحتضن كل انسان في ودّ كبير ، حتى ليجرؤ جماعة على التحدث عنه في الوقت الذي كان يطارد فيه أصحابه ، وبلغ من سلطانه على النفوس أن تقدم ابن بسام — وهو الذي عاش يلهج ببغضه — ورثاه بقوله [2] :

لله درك من ملك بمضيعة
ناهيك في العلم والآداب والحسب

ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه
وانما أدركته حرفة الأدب

كما تقدم ابن العلاف الضرير بمرثية رمزية كنّى عنه فيها بهرّ طالما أحبه قبل أن يموت ، فقال فيما قال [3] :

(١) راجع على سبيل المثال الكامل ٦ : ١٢٣ والمنتظم ٦ : ٦٩، وتجارب الأمم ١ : ٨

(٢) تاريخ أبي الفداء ٢ : ٦٦

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٢٤٧

يا هــــر فارقتنا ولم تعـد ... وكنت عنـدى بمنزل الولد
فكيف ننفك عن هواك وقد ... كنت لنا عـدة من العـــدد
صادوك غيظا عليك وانتقموا ... منك وزادوا ومن يصد يُصد
ثم شفوا بالحـديد أنفسهم ... منـك ولم يرعووا على أحد
فما سـمعنا بمثل موتك اذ ... مت ولا مثـل عيشك النكد
عشت حريصـا يقوده طمع ... ومت ذا قاتل بلا قـــود
عاقبة الظلم لا تنـام وان ... تأخرت مـدة من المـدد

وقال عنه الصولى بعد أن تخلّى عنه « شاعر مفلق محسن ، حسن الطبع ، واسع الفكر ، كثير الحفظ والعلم ، يحسن فى النظم والنثر . ومن شعراء بنى هاشم المتقدمين وعلمائهم ، ومن نشأ فى الرواية والسماعة ، يكثر فى مجلسه من حدثنا وأخبرنا »[1] وقد نقل عنه كثيرا ، واعتمده بصفة خاصة فيما كتب عن أبى تمام .

وبعد أيامه بقليل كتب عنه أبو الفرج الأصفهانى « وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور فى فضائله وآدابه شهرة تشرك فى أكثر فضائله الخاص والعام . وشعره وان كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين ، فاذ فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين »[2] .

ولكن الأمر لم يخل من نوع من الشماتة بقدر ما حمل من بغض ضارعات ، فينشد يحيى بن المنجم مرثية يقول فيها عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر « ما رأيت مرثية موشحة بالعيوب مطرزة

---

(١) الأوراق ١٠٧
(٢) الأغانى ١٠ : ٢٧٤

بالهجاء مسداة بالتعنيف الا هذه ، وهى بأن تسمى مثلبة أولى »

يقول يحيى [1] :

أسيت لفقد الصديق الذى اســـ
تحال عـــــدوا فمن مســعدى
تجنّى الذنوب وخـــــان العهود
وأصـــــــبح فى صــورة المعتدى
وعمّى عليه الصواب الهـــــوى
فأورده شر ما مـــــــــــــورد
فان أبـــــكه الآن لا أبـــــكه
لحسن وفاء ولا ســــــــــؤدد
ولكن لشـــــــــعر له رائق
اسمع البصـــــــــير وللمنشد

ولخص بن الفرات بعد تولّية الوزارة رأيه فيه فوصفه بالمكر والخديعة والمروق والضلال ، وذلك فى رسالة كتبها الى أبى العباس أحمد بن محمد بن بسطام مقلدا اياه بها الخراج والضياع بمصر ، ونحن هنا نثبتها لأنها وجهة نظر فيما تم حتى أطيح بانسان شاء سوء طالعه أن يخسر كل شىء ، يقول ابن الفرات [2] :

« نِعمُ الله عند أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — تتجدد فى سائر أوقاته ، وتتأكد فى جميع حالاته » فليس يخلو منها قاهرة

---

(١) ابن المعتز وتراثه ٦٧ نقلا عن الصولى فى أخبار المقتدر .

(٢) تحفة الأمراء ٢٨٧

لأعدائه ، وناصرة لأوليائه ، والله يعينه على أداء حقها والقيام بشكرها ، انه ذو فضل عظيم .

وكان جماعة من جلّة الكتاب والقواد ووجوه الغلمان والأجناد حسدوا أبا أحمد العباس بن الحسن — رحمه الله — على محله فى الدولة ومنزلته وما قام به لأمير المؤمنين — أيده الله — من عقد بيعته فسعوا فى اتلاف مهجته وازالة نعمته . وتوصل اليهم عبد الله بن المعتز بمكره وخديعته ، فأوحشهم من أمير المؤمنين وشيعته ، وحسّن لهم الخروج عن طاعته . فنكثوا ومرقوا ، وغدروا وفسقوا ، وشهروا سيوف الفتنة وأظهروا أعلامها وأضرموا نيرانها .

وتفرد الحسين بن حمدان بأبى أحمد فقتله ، وثنّى بفاتك المعتضدى فأتلفه . وقصد المارقون دار الخلافة حتى وصلوا الى جدرانها ، وأحرقوا عدة من أبوابها . ووفق الله الخدم والأولياء المصافية والغلمان الحجرية لمحاربتهم ومنازلتهم ، فانصرفوا مفلولين . واجتمعوا الى عبد الله فعاقدوه وبايعوه ، وتسمى بالخلافة فى ليلته ، ووازره محمد بن داود على ضلالته وما صحبهم من غلمان أمير المؤمنين — أدام الله عزه — وخاصته وذوى البأس من رعيته ممن حسّن دينه وخلص يقينه . فتحصنوا بالابعاد فى الهرب لما خافوه من شدة الطلب ، وأسر جماعة من كتاب عبد الله وخواصه منهم محمد بن عبدون وعلى بن عيسى ومحمد بن عبد الرحمن الأزرق ويمن الكبير ووصيف بن صوار تكين وسرخاب الخادم وعلى الليثى ومحمد الرقّاص وأبناء دميانه

والمعروف بأبى المثنى ومحمد بن يوسف ، وحملوا الى دار أمير المؤمنين — أيده الله — فحصلوا فى أعظم بؤس وأضيق حبوس .

ولما خمدت النائرة وسكنت الفتنة الثائرة ، استدعانى أمير المؤمنين أدام الله تأييده ، فأوصلنى الى حضرته وخصنى ببره وتكرمته وفوّض الىّ تدبير مملكته ورعاية خاصته وعامته ، واعتمد علىّ فى حياطة ملكه ودولته . وقلدنى سائر دواوينه مع وزارته ، وخلع علىّ خلعا ألبسنى بها اجلالا وقدرا وجمالا وفخرا، وعدت الى دارى مغمورا باحسانه مثقلا بأياديه وامتنانه . وأسأل الله معونتى على طاعته ، وتبليغى غاية رضاه وارادته ، بمنّه وقدرته .

وكان أول ما بدأت به الجدّ فى طلب عدو الله عبد الله بن المعتز الى أن هيأ الله الظفر به على يد صاف مولى أمير المؤمنين ، بعد أن تنصح فى الدلالة على موضعه خادم مشهور الديانة مذكور الصيانة يعرف بسوسن الجصاصى . فأوجبت الحال اطلاق صلة لسائر الأولياء وافرة المبلغ ، وأنا بتجديد البيعة عليهم متشاغل وللخدمة مواصل . والأمور جارية على أحمد مجاريها ، وأفضل المحاب فيها ، والحمد لله ربّ العالمين » .

ونقول ان تلك الرسالة وجهة نظر لأنها لا تضع ابن المعتز موضعه المناسب ، فهى تقدمه فى صورة المتآمر ، وتضفى عليه من النعوت ما لا يتفق مع سيرته والنعوت التى خلعها عليه المنصفون . والحقيقة أن المرء لا يمكن أن يحكم عليه بسهولة ، أولا لأن سيرته

الخاصة كانت مضطربة ، وثانيا لأننا كى نزيل هذا الاضطراب يجب أن نفرق بين ابن المعتز السياسى وبين ابن المعتز الأديب .

وهناك على أى حال باحثون متحذلقون يشجبون الحياة كلها ويرون من سوء الطالع حقا أنهم لا يتحكمون فى مصائر الناس كما يشاءون ، بل لم يتساءلوا كذلك عن أسباب بقائهم . وقد يرى الرجل منهم قردا فيخطر له أحيانا بأنه كان يكون أفضل لو زالت فروة جسده ، أو استقامت ساقاه قليلا أو غار فكه بعض الشيء . ومع ذلك يداخله دائما شعور بأنه لا يستطيع أن يصنع دون القرد وربما لا يستطيع أن يخطط على الورق صورة لأى قرد !

مثل هؤلاء نراهم ازاء سيرة ابن المعتز ولا نستطيع أن نستفتيهم شيئا ، كما لا نستطيع أن نسألهم انصاف الرجل فيفرقوا بين نشاطه السياسى ونشاطه الأدبى .

ونحن اذا جعلناهم البداية لكلمتنا الأخيرة رأينا أنهم عابوا عليه ضعفه وتهتكه وسوء تدبيره ، كما قاسوه شاعرا بأبى تمام لا سيما بعد أن لحظوا أنه دائم الاشارة اليه كثير الصنعة مثله ، واعتبروه من ناحية ثالثة مصحّفا فى رواياته غير مدقق لها ولا طابع لكتاباته ومؤلفاته .

ويمكن لنا بسهولة أن نردّ الاتهام الأول الى قسمتنا الثنائية، فمن حيث انه أمير حُرم عرش أبيه على رغم استحقاقه له فكريا وعاطفيا ، كان سلبيا وقد دفعته سلبيته الى التماس السلوى فى التهتك . ومن حيث انه شاعر ومؤلف — والتهمتان الباقيتان بصدده فيهما — ففى أغلب الأحيان لا يظهر دوره الا بتفصيل

مرتبط بزمنه وان يكن أغلب الدارسين يجعلونه فى الشعر والكتابة قمة .

وفى ضوء هذا نقول ان ابن المعتز السياسى نكرة أو نبات طفيلى لا طائل وراءه ، ولكنه أحد معالم الابداع الهامة فى القصيد والتأليف . ولا ريب فى أن موقف التقدير حيال هذا أسلم من موقف التشنيع ، ذلك أن هناك فارقا خطيرا بين حكاية القرد وحكاية تاريخ ابن المعتز لأن القرد من صنع الطبيعة وتاريخ ابن المعتز من صنعه وصنعنا . واذا كان علينا بناء على هذا ألا ننقد القرد ، فان العدل يقتضينا أن ننقد التاريخ . وسنحاول فيما يلى أن نقوم بذلك مع تفنيد كل وجوه الاعتراض الموجهة الى ابن المعتز ، لينزل عندنا المنزل الذى يستحقه كعلم من أعلام العرب الكبار .

* * *

أما أنه كان سياسيا فاشلا وأميرا كل همّه أن ينتظر حتى تأتيه الخلافة تجرر اليه أذيالها — كما يقول الشاعر القديم — فأمر لا ننكره ، ولكننا نرى أن الظروف القاسية كانت تفرض عليه هذا الانتظار وتدفعه اليه دفعا . وتبدو هذه الظروف مكوّنا عاما من مكوّنات العصر قبل أن تكون مكوّنا خاصا له ، فقد ولد ابن المعتز والدولة فى حرج شديد وتخضع خضوعا كاملا لعسكرية الأتراك الذين لم يكونوا يدركون شيئا فى السياسة والادارة والثقافة . وكان شرهم قد استفحل بعد نقل الخلافة الى سرّ من رأى ، ولما جاء الواثق بتهالكه لم يتجرد لأية معركة حربية هامة

فوجد الأتراك أنفسهم يتسللون واحدا وراء واحد الى ميادين الادارة والحكم ، حتى ليتدخلوا فى ولاية العهد ويأتوا بالمتوكل ويقتلوه .

وكانت فترة السنوات التسع التى نبهنا عليها وتقع بين سنة ٢٤٧ وسنة ٢٥٦ من أقسى الفترات على كيان العباسيين ، وتركت فى نفوس جميع أبنائهم رعبا لا نظير له . حقا وجد من الخلفاء — كالمعتضد — مَنْ حدّ مِن سلطانهم فيما بعد ، غير أنهم ظلوا مع ذلك الشبح الذى يخيف بتدبيراته الظاهرة والخفية ، وكانوا يسطون على خزائن المال بلا تحرّج ولا تأثم ويغرون أولى الأمر بجوار حسان يسهمن فى شلّ القوى بدلهن وفتونهن . وهنا يرتع خصوم العباسية ما شاء لهم الرتع ، وتتعدد الفرق وتهدد كيان الدولة تهديدا مباشرا .

فى هذه السنوات المريرة يولد عبد الله بن المعتز ويعيش ، وتسهم جدته قبيحة فى مؤامرات الترك فيطاح بالمعتز ثم تنفى هى وينفى معها حفيدها الأمير ليعيش فى الغربة صباه الحزين المهدد . وعندما يعود الى سرّ من رأى ثم يسكن بغداد يكون كل شىء قد أعد لتخويفه ، ويكون كل شىء أيضا قد تهيأ ليصبح عالة على عطاء مال الخاصة . وبالتقتير عليه من ناحية أخرى ألجىء الى بعض الوزراء يمدحهم ، لينال عطاءهم . ثم يواجه بقوة عمه الموفق ويعجب به ويضطر الى أن يزداد استكانة ، واذا قدم المعتضد بجرأته وقوته — وهو فلتة فى تاريخ انهيار العباسية —

يكون ابن المعتز قد شل تماما ، بل يصبح ألعوبة في يد هذا الخليفة العظيم .

لقد تم قهر الأمير اذن ، وهذا سر سلبيته التي ظهر بها في تدبير آل الجراح . ان مدة حكم المكتفي لم تكن كافية لتظهر أنه كان من الممكن أن ينتعش ، بل كان الأتراك أسرع منه حركة عندما رأوا امام المسلمين مريضا واهنا ويظهر في علته من ضروب التخبط والأنانية ما جعلهم يتطلعون الى ما سلبهم اياه المعتضد . وكان الكتاب يغالبونهم كعنصر يمكن ترجيح كفة على كفة ، لا سيما أن الوزراء كانوا قد راحوا يشعرون بقوتهم وحاجتهم في الوقت نفسه الى من يشد أزرهم من الكتاب ، فتفرق هؤلاء شيعا وأصبح الوضع معقدا جدا ومؤلما جدا .

كل أولئك كان ينذر بالشر ، وكان يعقد حياة كل أمير عادي ، فما بالنا بابن المعتز الذي كانت العيون تتجه اليه بما كان له من حق في الوراثة وبما كان يصدر عنه علم ورأي ؟ وربما كان لصغر سن المقتدر وعدم خبرته أهم الحوافز التي حركته بعد طول تردد ، ولكنه عندما تحرك كان من الواضح أنه لم يحسب حساب كل خطوة فضلا عن أنه ظل مسلوب الارادة فاقدا معظم سلطانه وغير مقدر تماما قوة « الحرم » الممثلة في شغب وظلوم وأم موسى .

لذلك كله سقط ابن المعتز ونحن اذ نقرأ عن سنواته المريرة التي قطعها قبل أن يصرع صرعته البشعة ليمضنا أن يسير الى حتفه مغلوبا مقهورا ، ولكننا لا نرى قط مسوغا الى التهجم عليه.

ثم ان حياة تلك مكوّناتها لا يمكن أن تخلق الانسان الكامل .

ومع كل هذا فينبغى أن نقرر أننا نحن الدارسين قد لا نكون على الدرب القويم دائما ، ومن ثم لا نطمع أن نلزم أحدا بشيء مما نراه . وكما أن أى امـرىء اذا وقف فى « الكامل » أو « المنتظم » عند الرشيد أو المعتصم أو المعتضد ودهِش لثرائهم وسلطانهم وحسن تدبيرهم ، فاننا لندهش أيضا اذا وقفنا على تخبط الواثق والمتوكل والمعتز وابنه الطامع فى العرش . هى الحياة لا يمكن الا أن تفرض على أىّ كائن كلمتها ، وهـذا لا يعنى بطبيعة الحال أن المرء يجب أن يسلم بالتقية ويصطنع السلبية ، وانما يعنى أن المرء قد لا يملك الا أن يفكر ولكنه اذا سار فقد يتردى فى أكثر من هاوية .

ثم ماذا عن تهتكه ؟

ولعله من المفيد أن نتوسع فنناقش ما قد يثار حول خلقيات الرجل ، أو قل نوازن بين الواقعية والمثالية كمسلكين تردّد بينهما ابن المعتز ، ولكننا نلحظ أن العصر الذى عاب على هذا الأمير مجونه كان عصر المذهب الطبيعى ، اذا صح أن نأخذ الماضى بهذه التسمية الحديثة . وكانت الحياة الاجتماعية فيه قد أصبحت — من أغلب جوانبها — صورة للوجه السياسى المتقلب ، فشاعت الاضطرابات ، وبرزت المادة بروزا قضى على كثير من الجوانب الروحية السمحة ، كما تفشت نزعات التحرر والاباحية حتى ظهر أن كلّ شيء قد تهيأ للعبث مع نزعة سخط ظهرت عند أدباء العصر ومفكريه .

هذا هو ابن الرومى متشائم متسخط ، وهــذا ابن بسام لا يعجبه شيء حتى ليهجو أباه ، ثم هذا ابن جرير الطبرى يتهم فى اعتقاده كما يتهم أى رجل من العامة فيعتزل . ويستمر هذا السخط حتى يؤخذ به واحد كالمتنبى فيقتل بسبب ، وآخر كأبى العلاء فيشنع عليه !

فهل بدع أن يلهو ابن المعتز ؟

ومع هذا فقد أوتى من الاســتعداد الطبيعى والغريزى مع تخطيط خارجى — من جانب القصر غالبا — ما دفعه الى الخوض فى المجون خوضا . فهو يائس بادىء ذى بدء ، ثم هو قوى البنية حسن الصورة ، والبيئة الاجتماعية من ناحيتها تحفل بمجالس المتعة ، فكيف بعد هذا يظل أسير المثالية التى ينادى بها الأخلاقيون؟

ولقد كان العصر نفسه بعد ذلك أو قبل هذا يتوخى نقل أدق التفصيلات عن كل انسان . فالى جانب قوة المعتضد وحسن خلقه يظهر طيشه وتورّطه بالجوارى ، وأخذه الناس بالبطش حتى ليأمر بهدم بعض دور الفقراء ليقيم لنفسه عالى البنيان . والى جانب علم البلاذرى وثعلب والمبرد ، بل الى جانب فضلهم وفضيلتهم نرى ثمة ميلا الى الغناء والعبث والهجاء والتخاصم واقتناء النساء.

ولم يكن ليغضب هــؤلاء أن يذاع عنهم ذلك ، لأنهــم لا ينفكون يريدون الحياة بالوجه الذى يرضيهم أو بالصورة التى تناسبهم .

فلماذا يطالب ابن المعتز وحده بالحشمة و يؤخذ عليه لهوه ؟ فى بعض مراحل حياته نجد منه التمسك بأهداب الخير ،

وقد يحدثنا حديث الحكماء ، وربما يعيب على غيره نقيصة من النقائص ، الا أنه فى كل ذلك كان نمطا مألوفا . مألوفا بكل خيره وشره . وليس هناك فى رأيى شىء أكثر تدليلا على ذلك من المقارنة بين شعره ونثره أو قل بين أغلب شعره وأغلب نثره ، فسنجد الانسان اللاهى فى قطعة الشعر والانسان الوقور فى قطعة النثر .

واذن فالذين يطلبون من ابن المعتز ما قد يطلبه المتحذلق من القرد مخطئون ، وكأنهم يقـولون ألم يكن أولى به ألا يأكل أو يضحك أو يستجيب لشتى ظروف عصره !

أنا لا أدافع عن ابن المعتز ، وانما أحاول أن أضعه فى الاطار الذى تقلب فيه ، والا فما أحرانا بأن نعود الى التاريخ من جديد فنستفتيه ونستشيره دون كلال ولا ملال .

* * *

أما ابن المعتز الشاعر الكاتب فهو حجر الزاوية فى تاريخه ، أو هو الرجل الذى يظهر عملاقا يصعب كثيرا النيل منه . ولقد يمكن أن يختلف حول تقدير درجة عبقريته ، الا أن هـذا الاختلاف لا يخرجه قط عن دائرة الكبار . ويبدو لى أن القاعدة التى يجب أن ترسى دعائمها هى ألا نطلب من الفنان المتأخر أن يكون صورة طبق الأصل من الفنان المتقدم ، لأن هذا معناه ألا فنّ على الاطلاق . كذلك ليس من الضرورى أن يحمل هو الراية ثم يسير فى الطريق نفسه راكبا جملا أو حمارا أو بساط ريح ، فان فضل السبق اذ ذاك يكون حاسما فى تأخيره عن الأولين درجة ودرجة ودرجات . وعلى النقيض من ذلك فاننا لا نسأل

الفنان الكبير فى الحقيقة الا أن يأتى بجديد ، أو على الأقل لا نسأله الا أن يحملنا الى عالم يقل فيه النظير الى الحدّ الذى نستطيع أن نقول : ما أروع ما نرى ؟

والى جانب هذا يجب أن يكون العالم الذى يقدمه لنا واحد كابن المعتز متماسكا ، يصدر عن فكرة أصيلة ورأى يمكن أن نساق اليه وتتعاطف معه دون أن نمكث فيه . أجل ، ويكون متينا الى الحدّ الذى يمكن فيه أن يقاوم الضربات التى تأتيه من فوقه وتحته ، فيكفى فى هذه الحال أن نحس ونفكر ونسأل وتقيس وتقارن . ومن ذا يستطيع أن يزعم أن عالم المعرى فى « الغفران » لا يستهوينا وان كنا لا نريد أن نظل فيه طويلا ؟ بل من ذا يظن أن شعوبيات بشار بن برد لا تأسرنا على الرغم من خوفنا منها ؟

ان غفران المعرى وشعوبيات بشار تكوين ممتاز يجبرنا على تقديره والالتفات له ، وهذا ما نريده من آثار أىّ فنان !

وبالنسبة لابن المعتز الشاعر نرى فى شعره عالما نحبه كثيرا ، وان يكن من المسلم به ألا يرضى أغلب الأخلاقيين .

لماذا ؟

لأنه رصد فيه مجونه كله بلا خزى ولا شعور بالعار ، وتحدث فيه عن المرأة حديثا ربما يكون أقرب الى حديث الفساق . وهو مع ذلك جميل جدا عذب جدا ، ولا يخلو أحيانا من صفاء غريب ، ويبدو كل جميل فيه ممتزجا بنفسه المرهفة وبالطبيعة التى تحس احساسه وبالأمل الذى يراوحه بين أن يعيش خليفة وعاشقا مدنفا .

واننا لنجد القارىء يعلّق أهمية على بديعه وصوره فيتذكر

أبا تمام ويستعرض آراء ابن المعتز فيه وروايته لأشعاره فيسأل : أتراه كان يقلده ؟

فان ظفر بجوهر نفسه — وهو ظافر — فلن نكون بحاجة الى أكثر من موازنة عاجلة . وهنا يطل العالم الذى يضع كتاب البديع كما وضع فصول التماثيل وكما كتب رسالته النقدية عن شعر أبى تمام .

المهم أن ابن المعتز هنا تكوين خاص .. هو شاعر وهو عالم، وهو مقدم لنا شيئا له مذاقه الخاص ولونه المتجانس الذى يجعلنا نرى بوضوح وحدة الصنيع الأدبى الكبير . وهذا فى الواقع نتيجة وحدة الشخصية التى تنعكس باستمرار من خلال شعرها وفكرها، فاذا فرض عليها شيء — تحت أى ظرف من الظروف — لم يكن ثمة ما يغير من الخطوط العريضة للجوهر الأصيل .

ان ابن المعتز الذى جاء بعد أن ثبت نهائيا هيكل الشعر العربى كان أكثر من محسن ، غير أنه على ما يقول الدكتور شوقى ضيف كان أميرا مترفا ، ولم يتح له ترفهه أن يتعمق الثقافة والفلسفة كما تعمقها أبو تمام « وهو كذلك لم يتعمق وسائل التصنيع الحديثة »[1] أى الجناس والطباق وغيرهما مما يدخل فى مصطلح البديع الذى وضعه هو .

ويقول الدكتور محمد نجيب البهبيتى انه لا يسير فى الحقيقة الا على النمط التقليدى مع « مرونة فى اختيار موضوع الافتتاحية،

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٢٦٤ ، ٢٦٥ (ط . المعارف سنة ١٩٦٠)

ولكنه لا يلبث أن يتعدى الاستهلال الى الحديث عن السماء ونجومها والسحب ورعودها أو البساتين والرياض وأزهارها وشذاها » [1] وبه من هنا تضاف الخطوط الذهبية التى تزين هيكل الشعر العربى العظيم .

وعلى الرغم من أن الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى يعده أحد الشعراء الخالدين حتى شغل الناس والعلماء والأدباء بانتاجه [2] فانه يكتفى بتقسيم الصولى لشعره ليصف بعد ذلك ضربى الجزالة والرقة عنده معترفا بأن أسلوبه يشيع فيه نضرة النعيم وترف الملك، ليخلص من ذلك الى بديعه .

وأما الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى فيدرس تشبيهه ويقرر أنه كان يؤثر الصفة و « يتحمس للمحدثين ، ولكنه فى الوقت نفسه يكره أن يسرف المرء فى ذلك اسراف أبى تمام » [3].

وكل أولئك مع سداده لا يبين عظمة هذا الشاعر الحقيقية ، بل يقف عندما قرره القدماء دون اضافات سوى الشرح والتفصيل. وربما كان يعوزنا هنا قول جامع فى الشعر كالذى قاله ابن رشيق فى النقد [4] ، ولكن الشىء الذى ليس فيه شك أن شعره كان له

---

(1) تاريخ الشعر العربى ٥١٢

(2) ابن المعتز وتراثه (الطبعة الاولى سنة ١٩٤٩) .

(3) عبد الله بن المعتز العباسى ١٣٧ (ط . نهضة مصر بالفجالة) والى هذا ذهب عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة ٢٦٢ (الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٩) وقال انه على أستاذيته ليس من المطبوعين .

(4) العمدة ١ : ١٨١

طابعه الخاص ، واستغل فيه الزخرف الحسى استغلال أبى تمام للزخرف المعنوى وكأنه كان يرى — استنادا الى ما أورده فى كتاب البديع — أن المذهب الكلامى شيء آخر غير الشعر .

ان الشعر عنده صورة قوامها التشبيه [1] وعناصر التشبيه غالبا مادية دقيقة ، فاذا لم يكن فهو خطابى تعليمى يظهر بصفة خاصة فى أرجوزتيه الكبيرتين المعتضدية وذم الصبوح . ومع هذا التفاوت الكبير فى التعبير — أى مع اختلافه بين التصوير والتقرير — فاننا نحس بوحدة النسيج اللغوى وسلامته وأصالته، ويمكن أن نميز بسهولة أبياته سواء هذه التى يتكلف فيها البديع وهذه التى يتكلف فيها التعليم من أبيات شاعر كأبى تمام الطائى أو آخر كأبان اللاحقى .

وحسبه هذا !

بل ربما اعتبرناه المسئول الأول عن تحوّل الشعر من بعده الى الزخرفة الحسية ، فقد كان نموذجا طيبا ويبدو سهلا لدى الجميع .

وقضية السهولة التى تطبع شعره — حتى فيما كان يقصد به الى ممدوحيه — ومنها بائيته فى المعتضد وداليته فى المكتفى [2] —

---

(١) فى معاهد التنصيص ١ : ١٤٦ انه قال اذا قلت « كأن » ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فاى ! وكان ابن عبد ربه يقول فى العمدة (١ : ١٩٤) انه ينقاد بطبعه الى التشبيه .

(٢) قال الحصرى عنها فى زهر الآداب (٣ : ٥١) كانت لسهولتها تجرى مع النفس ، على اننا يجب الا نقرنه بشعراء عصر الانحراف اللغوى ابتداء من بشار الى الخليع لأن هؤلاء كانوا =

هى التى تفرقه عن أبى تمام نهائيا وتعطى القول الفصل فى حملته على تعقيده واصطناعه الرمز الغريب وما كان يستبشع مثله من اللجاج ورؤبة[1] .

انه يكره التصميمات التقليدية ، ولكنه يختار منها ما يناسبه ويحسن تمثيله . وفكرته الأساسية تتخذ شكل تَبَنٍّ صادق للتراث ثم هضمه وروايته والانتفاع به على أن يحتفظ الخلف بشخصيته أمام السلف .

يجب أن يكون الانسان شاعرا عالما ، ولكن من الخير ألا يفسد المرء الشعر بعلمه وكان يقول أحسن الشعر ما لا يحجبه عن القلب شيء[2] ومعنى هذا أن الاحساس هو المعول فى الشعر ومن ثم لا تعقيد بالضرورة ، لأنه ليس أقدر على المخاطبة والافهام من الاحساس .

وبعد ، فلم يقاس بأبى تمام ويقال عنه انه دونه ؟

* * *

= يتسمحون فى شعرهم بالخطأ ويتعمدون تمزيقه بدعوى تصوير العصر وحالتهم ، فى حين ظل هو على مستوى رفيع وسليم من الأداء الفنى .

(١) ضرب لذلك مثلا فى رسالته عن أبى تمام قوله :

تقرو بأسفله ربولا غضة ... وتقيل أعلاه كناسا فولفا

وفى المعتضدية هجا أبا الصقر اسماعيل بن بلبل بتقعره واستعماله الغريب فقال :

يستعمل الغريب فى خطابه ... وغامضات النحو فى كتابه
ويزجر الناس اذا تكلما ... مفخما مجهورا مغلصما

(٢) كتاب البديع ٣٨

وأما ابن المعتز الكاتب فلو أنه لم يضع سوى «كتاب البديع» لكفاه حتى يبذّ أقرانه ، ولكنه ضرب فى كل مجال بسهم . فحفظ وروى حتى ليكثر فى مجلسه من « حدثنا » و « أخبرنا » كما يثبت الصولى على ما مرّ بنا ، وألّف على النحو الذى عرف به التأليف فى أيامه ، وابتكر شيئا لم يسبق اليه وأصبح شـاغل الدارسين فيما بعد .

ولقد رأينا أنه سمع من كثيرين منهم ابن سعيد وأبى سعيد والمبرد وثعلب والبلاذرى ، وآثر أهل العلم وفضلهم ، واحتذاهم حتى قيل ما كان ثم عباسى أجمع منه ولا أقرب لسانا من قلب[1] . وليس من شك فى أن هذا كله يخطط له صورة العالم الثقة الحافظ الذى لا يكاد يخطئه شىء اذا امتحن أو اذا سئل ، وفضلا عن ذلك كان يعبر عن آرائه تعبير الأديب صاحب الأسلوب الموجز المعجز فيعجب به معاصروه ويراسلونه فيستجيب اليهم صادرا عن صياغة رائعة وفكر رشيد حتى ليمكن أن نستخرج منه فلسفة متكاملة ضمن معظمها فصوله القصار .

هو هاشمى مترفع بلا كبر ولا غرور ، ولكنه يخشى التقرب من الحاكم حتى وان أولاه البِشر وكان يقول « اذا زادك السلطان تأنيا فزده اجلالا ، ومن صحب السلطان صبر على قسـوته كصبر الغواص على ملوحة بحره » فيربط بين ظروفه وغرة الدهر ومصائبه وتفرق الناس بين حاسد ونمام وكاذب وحريص وشقى

---

(١) الأوراق ١٠٧

وماجن ومغترب وطامع ومؤمل فى دنيا من عجب أنها دائما تطرح التراب على وجه مَن تكرمه .

وكان يقول « العقل غريزة تربيها التجارب »[1] وعرف من تجاربه أن الخير فى التقرب الى الناس عاميهم وخاصيهم ، على ألا يكون بينهم كذب قط . وكان فى هذا دائم التنبيه الى أن من اضطر الى مصاحبة الكذاب فلا ينبغى أن يصدقه ولا ينبغى أن يعلمه أنه يكذبه « فينتقل عن ودّه ولا ينتقل عن طبعه »[2] .

أما آراؤه العقيدية فهى بسيطة وقد صدر بها أقواله وأحاديثه. انه عربى سنىّ يكره الشعوبية وذوى المذاهب المخربة ويقول عنهم « كلاب قد عدتهم أنعمنا وأشادت بذكرهم خدمتنا ، سعوا بالباطل علينا وجحدوا احساننا وهجوا نبينا صلّى الله عليه وسلم ، حتى اذا كظّهم العذاب وأسكتهم الجواب تحسنوا بالترفض ومدحوا أهلنا وأخص الناس بنا »[3] .

ويقول عن البارى تعالى « ان الله جل ثناؤه لا يمثل بنظير ولا يغلب بظهير ، جل عن موقع تحصيل أدوات البشر ، ولطف عن الحاظ خطرات الفكر ، لا يحمد الا بتوفيق من يقتضى حمدا ، فمتى تحصى نعماؤه وتكافأ آلاؤه »[4] .

وفى القرآن كتابه يقول « وفضل القرآن على سائر الكلام ،

---

(١) زهر الآداب ٤ : ١٢٩

(٢) زهر الآداب ٢ : ٢٦٦

(٣) رسائل ابن المعتز ٥٧

(٤) زهر الآداب ١ : ١٣٧

معروف غير مجهول وظاهر غير خفى ، يشهد بذلك عجز المتعاطين ووهن المتكلفين وتحيّر الكذابين . وهو المبلغ الذى لا يملّ ، والجديد الذى لا يخلق ، والحق الصادع ، والنور الساطع . والماحى لظلم الضلال ، ولسان الصدق . النافى للكذب ، ونذير قدمته الرحمة قبل الهلاك ، وناعى الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة المخلدة ، ومفتاح الخير ، ودليل الجنة » (١) .

هذه الأقوال رائعة حقا ، وأعتقد أنها فى جملتها تكشف عن جوهر ثمين ، كما أنها فى الوقت نفسه تحدد اتجاها رصينا لأى انسان عاقل . وأما فيما يتعلق بالأفكار السياسية ، أو أما فيما يتعلق بالجدل الذى نشب يومذاك بين الكتاب والوزراء ورجال البلاط فانه لم يشغله قط . واذا شئنا الدقة لم يحاول أن يتعرض له الا من حيث يرضى الامام على ما فعل فى المعتضدية ، وقد اجترأ فمس مسا عاجلا ذلك الظلم الذى واجه به رجال الادارة عامة الشعب .

ولكن اذا لم تكن له آراء محددة أو حتى اذا لم يكن له غير القليل جدا من هذه الآراء فان من السخف أن يفهم أنه لم يعش الا للذته ، والأولى أن يقال انه كان أكثر اهتماما بعلمياته وتصنيفاته ، فضلا عن أن ظروفه الخاصة — وظروف العصر أيضا — لم تكن تسمح له بأكثر مما فعل .

---

(١) زهر الآداب ١ : ١٤٩

ولعل أهم ما قدمه من حيث هو كاتب كبير يمكن تقسيمه الى ثلاثة أقسام :

فى القسم الأول توضع كتبه عن الزهر والرياض والجوارح والصيد والمحبة ، ولئن كان أغلبها ضاع فما يرد منها فى كتب غيره يدل على أنها من الأدب الوصفى الرفيع ، ويبدو ابن المعتز فيها مصوّرا للجانب اللاهى من حياته .

وفى القسم الثانى توضع كتبه عن الأدب ونقده وتاريخه وأشهرها « فصول التماثيل » و « الجامع فى الغناء » و « طبقات الشعراء » و « البديع » و « السرقات » ويضاف اليها رسالته فى محاسن شعر أبى تمام ومساويه ، والمؤلف فيها رجل حكيم متزن ، يصطنع المنهج التاريخى مع ميل الى اصدار الأحكام المتأنية .

وفى القسم الثالث توضع كتبه ورسائله التى كان يقصد فيها الى التجويد وأشهرها « الفصول القصار » و « كتاب الآداب » و « رسالة فى وصف سرّ من رأى » وابن المعتز يبدو فيها على ما سقنا من أقواله وقورا هادئا ذا خبرة بعيدة المدى ، مما أغرى الكثيرين منهم الصولى والحصرى على تسجيل بعض هذه الأقوال.

ولما كان القسم الأول من مؤلفاته بعيدا عن متناول الأيدى فانه يمكن الاكتفاء بالقسمين الثانى والثالث — وهما من غير شك الكفة الراجحة — للتعرف على الدور الكبير الذى لعبه ابن المعتز فى تاريخ البيان العربى كله . والحق أن عصره عرف أكبر كتاب العربية بعد وفاة الجاحظ سنة ٢٥٥ ووفاة ابن قتيبة

سنة ٢٧٦ فثم المبرد وثعلب والبلاذرى وعبد الله بن طاهر وأحمد ابن أبى طاهر ، وكذلك آل الجراح وآل الفرات وابن ثوابه والصولى . ومنهم من انقطع للقديم ومنهم من تجرد للقديم والجديد ، ثم فيهم من شغل المناصب الكبيرة وفيهم من قنع بالكفاف . واختلفت مؤلفاتهم بين كتب الطبقات ، وكتب الشعر والشعراء وكتب الأخبار ، وكتب النوادر والاختيار . والقلة من ألف فى موضوع واحد متكامل ، بل لعل ابن المعتز كان واحدهم فى ذلك حيث وضع « كتاب البديع » مقدما به أخطر أثر فى تاريخ النقد العربى على الاطلاق ، ولعله أيضا به ثم برسالته عن أبى تمام قد شحذ الهمم الى مناقشة آثار المجددين من الأدباء فى ضوء منهج له قواعده الواضحة الثابتة .

واذا كان كتاب البديع قد عدد لأول مرة صنوف الزخرفة والحلية ومحسنات الشعر كما عرفها هو وعرفها أدباء عصره ثم صار أهم مصدر من مصادر الدراسات البيانية بعد موته ، فان رسالته تلك أول عمل كبير فى نقد الطائى . ويبدو أنها كانت — ان لم يكن من المؤكد — السبب الأساسى فى أن يضع الصولى « أخبار أبى تمام » فى الدفاع عنه . وقد روى المرزبانى فى موشحه قطعة منها اعتمدناها فى أحد فصول هذا الكتاب ، واستند اليها الآمدى فى نقد شعر الرجل كما استند اليها الجرجانى فى وساطتها ، ويمكن أن تكون بعد أساس جميع الموازنات التى عقدت بين أبى تمام والبحترى .

---

(١) كتاب البديع ١٠٦

ان ابن المعتز الذى لفته أبو تمام الى ضروب الوشى يعلن فى صراحة أنه عندما كتب عنه — ولا نقول كتب به — لم يكن أحد قد سبقه اليه [1] . ومن المؤكد أنه أخذ بعض مصطلحاته من كتاب الخطابة لأرسطو ، وكان قد ترجمه فى عصره على ما تواتر عن حنين بن اسحاق [1] . بل لا نستبعد أن يكون قد استعان ببعض شواهده بعد تبديلها وتغيير الأعلام فيها على الرغم من أنه يقول « ولعل من قصّر عن السبق الى تأليفه هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا فى فضيلته ، فيسمى فنا من فنون البديع بغير ما سميناه » [2] .

والحقيقة أنه لا يعنينا الا أن هذا الكتاب حدّد لأول مرة خصائص مذهب البديع ، فاعتمده كلّ النقاد من بعده وصار — مع رسالته المذكورة — من أكبر الأسباب التى مكنت للخصومة بين أنصار القديم وأنصار المحدث .

فاذا انتقلنا الى ثانى كتاب فى الأهمية عنده ، وجدنا ضربا آخر من التأليف شاركه فيه غيره ممن عكف على البحث الأدبى كمحمد بن داود صاحب « الورقة » وأحمد بن أبى طاهر صاحب « كتاب فى الشعراء » وجعفر بن محمد بن حمدان صاحب « الباهر فى أشعار المحدثين » و « الشعر والشعراء الكبير » .

هذا الضرب يجمع بين الحقائق التاريخية والطرف الأدبية ،

---

(١) يقرر الدكتور محمد مندور فى كتابه النقد المنهجى عند العرب ٤٤ أنه اطلع على هذه الترجمة بمكتبة جامعة القاهرة .

(٢) البديع ٤٤

ويمتزج فيه الرأى الشخصى بالرأى العام . وبين كل أولئك أخبار طويلة ، أو قصص ربما يقتصر عليها الموضوع بأكمله .

واسم الكتاب « طبقات الشعراء فى مدح الخلفاء والوزراء » اختصر من بعده مع أن أهم ميزة فيه القصد والاعتدال . ولقد تقدم أنه بدىء ببشار وأنهى بالناشىء الذى عاصر المؤلف ، وجمع فيه مائة وعشرين شاعرا ونيفا ترجم لهم أو حكى عنهم وساق نماذج تمثل خير ما لهم وأخرى مما أغفله لبعضهم الرواة ورآه هو جديرا بالتنويه . هذا مع اهتمام ملحوظ بكثير من المغمورين ، فيكون هذا حافزا لابن داود على قصر « الورقة » عليهم ، ويحذو الحذو نفسه كثيرون .

وعلى الرغم من أن الكتاب فى الطبقات فانه لم يفتقد روح المؤلف النقدية ، بل ربما وجدنا فيه من آرائه الصائبة ما لا نجد نظيره فى كلّ ما أثر عنه من نقد وان يكن يعيب أحكامه أحيانا عدم الاحتراز فى اثبات الروايات المتعارضة والغريبة .

والكتاب بعد هذا سجل للحياة الأدبية بعد أن خلفت وراءها عصر العربية الخالصة بموت فحول بنى أمية أوائل القرن الثانى الهجرى ، وفيه نرى الاتجاهات العجيبة والمحاولات التى كان يقصد من ورائها تحطيم المأثور واقامة الجديد . كما نرى الموازنات العاقلة والشروح الدقيقة والميل الى أخذ المسائل أخذا وجدانيا بعيدا عن الجدل الذهنى الذى غلب على النقد فيما بعد .

ولا نريد أن نمضى وراء الطبقات أكثر من هذا ، فلا يزال أمامنا شق من الرجل رأينا بعض معالمه فيما سقنا عنه من حكمة .

ونعنى به نثره الذى يجوّده وهو حريص على أن يخليه من التاريخ ومن النقد الأدبى وان يكن ينضح بآثار علمه وثقافته .

ولنقرأ له هذه الرسالة التى بعث بها الى بعض اخوانه يصف فيها سرّ من رأى ويذكر خرابها مادحا فيها الامام وذاما بغداد وأهلها[1] « كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها وأقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى وكأن خرابها ينشر ، وكلت الى الهجر نواحيها واستحث باقيها الى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حقّ جوار ، فالظاعن منها ممحو الأثر والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره ارجاف وسروره أحلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع .

فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارها عليهم أرديةُ السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول . على خيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد بالنقع سائرها ، قد نشرت فى وجوهها غرراً كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل [2] كأسورة اللجين ونُوطت عُذرا كالشنوف[3] ، فى جيش يتلقف الأعداء أوائله ولم ينهض

(١) معجم البلدان ١ : ١٨

(٢) التحجيل : بياض فى رجل الفرس .

(٣) نوطت : علقت ، عذرا : جمع عذار وهو ما تدلى من اللجام على خد الفرس ، الشنوف : جمع شنف وهو ما علق فى الأذن من الحلى .

أواخره ، وقد صبّ عليه وقار الصبر وهبت له روائح النصر . يصرفه [1] ملك يملأ العين جمالا والقلوب جلالا ، لا تخلف مخيلته ولا تنقض مريرته [2] ولا يخطىء بسهم الرأى غرض الصواب ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب ، قابضا بيد السياسة على قطار ملك لا ينتشر حبله ولا تتشظّى عصاه [3] ولا تطفى جمرته . فى سنٍّ شباب لم يجن مأثما وشيب لم يراهق هرما [4] ، قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته ، راجما بالعواقب الظنون لا يطيش عن قلب قاضل الحرم بعد العزم ، ساعيا على الحق يعمل به ، عارفا بالله يقصد اليه مقرا للحلم ويبذله ، قادرا على العقاب ويعدل فيه .

اذ الناس فى دهر غافل قد اطمأنت بهم سيرة لينة الحواشى خشنة المرام ، وتطير بها أجنحة السرور ويهبّ فيها نسيم الحبور ، فالأطراف على مسرّة والنظر الى مبرّة ، قبل أن تخب مطايا الغير [5] وتسفر وجوه الخَدر [6] ، وما زال الدهر مليا بالنوائب طارقا بالعجائب ، يؤمن يومه ويغدر غده .

---

(١) أى يصرف الجيش ويقوده ويوجهه .

(٢) تنقض مريرته : يحل ابرام حبله .

(٣) تتشظى عصاه : تتشقق .

(٤) يراهق هرما : يدانيه .

(٥) تخب مطايا الغير : تسرع مطايا الأحداث ، أى تأتى مصائب الدهر .

(٦) كذا فى الأصل والمعنى بتعاقب فتحين الظلمة ، فاذا كانت بفتح فكسر قلنا الخدر من الأماكن أى الغامض المظلم .

على أنها وان جفت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى كوكبها يقظان وجوها عريان ، وحصاها جوهر ونسيمها معطر وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة وليلها سحر ، وطعامها هنىء وشرابها مرىء ، وتاجرها مالك وفقيرها فاتك . لا كبغدادكم الوسخة السماء الومدة الهواء [1] ، جوها نار وأرضها خبار [2] ، وماؤها حميم وترابها سرجين [3] ، وحيطانها نزوز [4] وتشرينها تموز ، فكم من شمسها من محترق وفى ظلها من غرق ، ضيقة الديار قاسية الجوار ، ساطعة الدخان قليلة الضيفان . أهلها ذئاب وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ومالهم مكتوم لا يجوز انفاقه ولا يحل خناقه . حشوشهم مسائل [5] وطرقهم مزابل ، وحيطاهم أخصاص وبيوتهم أقفاص .

ولكل مكروه أجل وللبقاع دول ، والدهر يسير بالمقيم ويمزج البؤس بالنعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء والهمّ الى فرجة ، ولكل سائلة قرار وبالله أستعين ، وهو محمود على كل حال » .

ان هذا الاثر الذى يشبه أن يكون كاملا يعطى الملامح الأخيرة لابن المعتز ، أو يقدم على نطاق واسع صورة الابداع فى

---

(١) الومد : الحر الشديد مع سكون الريح .

(٢) خبار : صلبة .

(٣) سرجين : زبل (فارسية) .

(٤) نزور : تكثر من نز الماء .

(٥) الحشوش المسائل : البساتين التى تسيل منها الماء ، والحشوش هى المخارج أيضا .

نثره الفنى ، فانه مما ليس فيه شك أن حكمه وأقواله فى « الفصول القصار » ومعظمها ضائع لا تكاد تضيف الى ما قدمنا مثل ما تضيفه هى .

والأسلوب فى صياغته تلك يرتفع الى مستوى اهتماماته بالبديع ، ويختلف من ناحية أخرى عن نثره المرسل الذى نراه فى الطبقات . ومن الجلى أنه يقترب من الجاحظ شيئا ولا سيما فيما يجنح اليه من التوازن ما لم يكن ثمة سبيل الى السجع . ولقد اتسع استعمال التوازن فيما بعد وأطلق عليه الازدواج ، وجعله القلقشندى فى درجتين لا داعى لتفصيلهما هنا [1] ، ولكن ابن الأثير كان يقرر أن ما يحدثه عادة من الأثر فى النفس سببه الاعتدال ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء[2] .

ولقد كان ابن المعتز من الداعين الى هذا الاعتدال فى الكتابة ، ومن الحاملين على كل متقعر . واذا كنا نلمح فى الرسالة بعد سجعا وتصويرا قوامه التشبيهات والاستعارات ، فلأن الحاجة كانت تتطلبه .ولهذا تبدو صنعته دائما مستوية مقبولة .

وأكبر الظن أنه كان فى ذلك اماما لكتاب الدواوين فى عصره — ويجب ألا ننسى أنه راسل بعضهم وأجابوه — فاحتذوه ثم استطاعوا من بعده أن يزيدوا من المحسنات ما أبعد الكتابة عن حد الاعتدال المنشود .

---

(١) راجع صبح الأعشى ٢ : ٢٧٣ (ط . الأميرية سنة ١٩١٣)
(٢) المثل السائر ١٦٩ (ط . بولاق سنة ١٢٨٢)

وأخيرا نلحظ أن السجع أصبح بعد موته العنصر الأول فى وشى كتاب العصر . حقا لا نراه مطردا فى رسالة ابن الفرات الى ابن بسطام — وقد مرت بنا كاملة — ولكننا نراه عند غيره كأبى العيناء وابن ثوابه وأخيه [1] وغيرهم . وفى عصر المقتدر سنجد السجع غالبا على دواوين الحكومة ليكون مظهرا من مظاهر التأنق العظيم .

(١) معجم الأدباء ٤ : ١٤٤ ، ١٤٧

مصادر السيرة

فيما عــدا المؤلفات التى ذكرتها فى المقدمة ــ وان تكن مما أعان وأفاد ــ فاننى أسوق أهم ما اعتمدته من مصادر ، ذاكرا بين يديها طبعاتها حتى يسهل الرجوع اليها :

(١) ابن الأبار : أعتاب الكتاب
ط . دمشق سنة ١٩٦١

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ
ط . المنيرية سنة ١٣٥٧

(٣) ابن الأنبارى : نزهة الألبا فى طبقات الأدبا
ط . مصر سنة ١٩٢٤

(٤) ابن الجوزى : المنتظم
ط . حيدر أباد الدكن

(٥) الحصرى : زهر الآداب وثمر الألباب
ط . التجارية سنة ١٩٢٥

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان
ط . بولاق

(٧) ابن رشيق : العمدة فى صناعة الشعر ونقــده
ط . هندية سنة ١٩٢٥

(٨) الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء
ط . بيروت سنة ١٩٠٤

(٩) الصولى : الأوراق (قسم أشعار أولاد الخلفاء)
ط . الصاوى سنة ١٩٣٦
أخبار أبى تمام
ط . لجنة التأليف سنة ١٩٣٧

(١٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
ط . الحسينية ومعه الصلة لعريب

(١١) عبدالقاهر الجرجانى : أسرار البلاغة
ط . الثالثة سنة ١٩٣٩

(١٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد (الجزء الخامس)
ط . لجنة التأليف سنة ١٩٤٦

(١٣) أبو الفدا اسماعيل : تاريخـــه
ط . القسطنطينية سنة ١٢٨٦

(١٤) أبو الفرج الاصبهانى : الأغانى (الجزء العاشر)
ط . دار الكتب سنة ١٩٣٨

(١٥) المرزبانى : الموشح
ط . السلفية سنة ١٣٤٣
معجم الشعراء
ط . القدسى سنة ١٣٥٤

(١٦) المسعودى : مروج الذهب
ط . باريس سنة ١٨٦١

(١٧) مسكويه : تجارب الأمم (الجزء الأول)
ط . مصر سنة ١٩١٤

(١٨) ابن المعتز : البديع
ط . لندن سنة ١٩٣٥
البديع
ط . القاهرة سنة ١٩٤٥
ديوانه
ط . استنبول سنة ١٩٤٥
ديوانه
ط . بيروت سنة ١٣٣٢
رسائله (جمعها محمد عبد المنعم خفاجى)
ط . الحلبى سنة ١٩٤٦
طبقات الشعراء
ط . المعارف سنة ١٩٥٦
فصول التماثيل
ط . القاهرة سنة ١٩٢٥

(١٩) النويرى : نهاية الأرب (الجزء الخامس)
ط . دار الكتب سنة ١٩٢٥

(٢٠) ياقوت الحموى : معجم الأدباء (الارشاد)
ط . مصر سنة ١٩٠٦
معجم البلدان (الجزء الأول)
ط . السعادة سنة ١٩٠٦

فهرست

الباب الثالث

المؤامرة